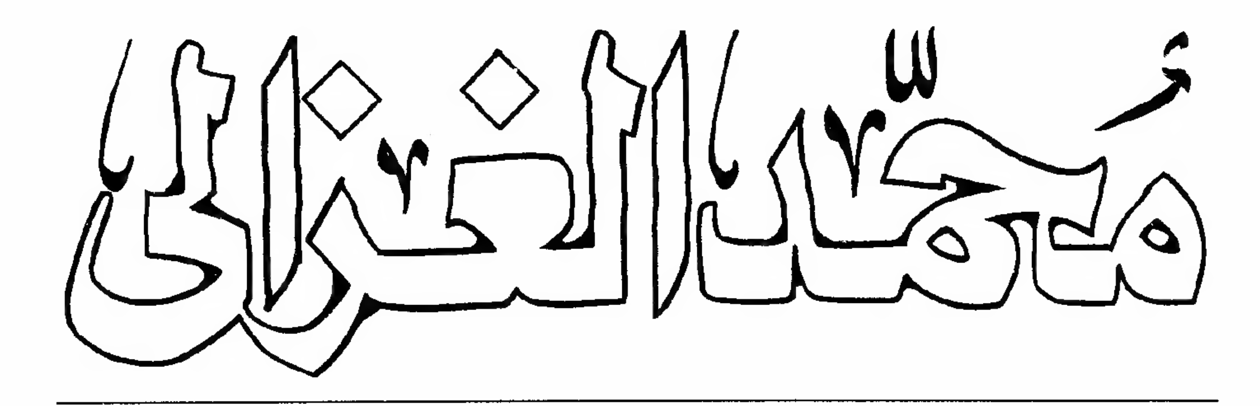


من مقالات

الشيخ الغزالي

« الجـزء الثاني »

37

جمع/ عبدالحميد حسانين حسن

طبعة جديدة ومحققة



العنوان: من مقالات الشيخ (محمد الغزالى) الجزء الثانى.
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .
جمع: عبدالحميد حسانين حسن .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يناير 2005م .
رقم الإيداع: 2004/ 3474
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2626-5

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



المقدمـــة

يعد فضيلة الشيخ/ محمد الغزالى من أبرز علماء الأمة الإسلامية ومفكريها بالقرن العشرين الذين أثروا الحياة الدينية والفكرية بآرائهم المتجددة فى سبيل تنوير وتبصير المجتمع المسلم بأمور دينه .

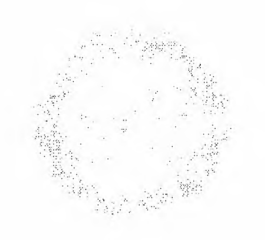
وقد كان لآرائه وأفكاره الدينية المتوازنة بين إصلاح الإنسان وإعمار الدنيا وإعمار الآخرة أثره البالغ فى إحياء وبعث الروح الدينية الصحيحة فى نفوس العديد من المسلمين ليس فقط بمصر أو العالم العربى وإنما على نطاق العالم الإسلامى بأسره .

وقد كان أهم ما يتميز به فضيلة الشيخ المجدد/ محمد الغزالى جرأته فى الحق حتى أصبح رائدًا لمنهج يعتمد على الفهم الصحيح للنصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة وسيرة السلف الصالح والمصلحة العامة للمسلمين ومتطلبات العصر .

ولهذا ، فقد اتفق من اتفق معه واختلف البعض حول آرائه وفتاواه العصرية ولكن من المؤكد أن الجميع قد انجذب لسحر بيانه ووضوح حجته .

ومن خلال ذلك الزخم الهائل من تراث فضيلة الشيخ/ محمد الغزالى قام الأستاذ/ عبد الحميد حسانين حسن بجهد طيب فى جمع المقالات غير الدورية التى قام الشيخ بنشرها فى كبرى المجلات والدوريات بأنحاء العالم الإسلامى عسى أن ينتفع المسلمون بآرائه وأفكاره .

وقد عنيت **دار نهضة مصر** بنشر هذه المقالات فى أجزائها الثلاثة ؛ رغبة فى الحفاظ على تراث الشيخ الجليل .



المسلمون فى أسوأ أيامهم ولكن
يوم الإسلام.. قادم

بعد هذه الغاشية التى دهت البلاد العربية بغزو العراق للكويت ، والحرب الضارية بين القوات المتحالفة والجيش العراقى . . وما خلفته هذه الأزمة القاتلة من آثار عنيفة مدمرة للكويت والعراق ومؤثرة أكبر التأثير على الموقف العربى والإسلامى العام ، وموقف الرأى العام العالمى من العرب وذلك الغبار الكثيف الذى ثار فى مختلف وسائل الإعلام الدولية عن العروبة والإسلام ، وذلك التغيير الكامل الشامل الذى يطرق أبواب العالم العربى والإسلامى والذى تتطلع إليه الشعوب فى كل مكان ــ كان لابد لنا أن نستلهم رأى العلاّمة الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى فيما يدور حول الحضارة الإسلامية ، وموقف الأمة الإسلامية من الأحداث والتطورات الخطيرة ، وتشخيص دواء العالم الإسلامى المعاصر ، وأنجح الوسائل للأخذ بيده والخروج به من أزمته والعمل على إعادته إلى طريق الحق والصواب .

وللإمام الغزالى تاريخ طويل فى الدعوة الإسلامية ، وقد تولى التدريس فى العديد من جامعات العالم الإسلامى ، وأثرى المكتبة الإسلامية بعشرات الكتب المهمة التى تميزت بالانتشار والذيوع وإقبال الناس عليها بتقدير كبير ، وقد أجرى الحديث معه محمد عبدالشافى القوصى مندوب «رسالة الإسلام» .

* فضيلة الشيخ محمد الغزالى : يقال إنه لابد من بقاء قوات أجنبية ترابط فى البر العربى أو تسبح فى البحار حتى بعد انتهاء أزمة الخليج الراهنة!! فما رأيكم فى ذلك؟

** إن القوات الأجنبية جاءت نجدة مؤقتة ، ودعمًا عارضًا عابرًا ، وإنه إذا ذهب الخوف واستقرت الأوضاع فلا مساغ لها ولا معنى لوجودها ، وإن الاحتيال على بقاء القوات بعد انتهاء أسبابه هو عدوان جديد من خصم ماكر .

وقد يفقد الوجود العسكرى الأجنبى بمختلف دوله أى سبب لاستمراره إذا أبصر

العراق وكف عدوانه على غيره ، كما أن هذا الوجود ينبغى أن يتلاشى إذا انهزم الرئيس صدام وانكسرت قواه ، وانفكت القيود التى وضعها فى أعناق الأحرار وتراجعت جيوشه عن دولة الكويت التى اجتاحها عنوة .

ونحن نعلم أن أبناء عبدالعزيز آل سعود رجال شرفهم الأول هو الانتماء الإسلامى النقى ومواريث البطولة من أب خاصم الجبروت وعاش حمى الأنف ، وعزيز الجانب ظل طوال عمره يخاصم الاستعمار ويناصر الأحرار .

إنهم يستحيل أن يقبلوا احتلالاً أجنبيّاً ، أو يقيموا فى أنحاء الجزيرة قواعد لهذا الاستعمار المتربص الكفور .

* ما رأى فضيلتكم فيما يتردد الآن على الساحة بأن هناك «مؤامرة» أمريكية ـ صهيونية وراء أحداث الخليج؟!

** ليس هذا بجديد على تاريخنا وعلى أمتنا العربية والإسلامية ، فإن الخطة التى وضعتها القوى المعادية للإسلام نفذت بدقة وبراعة ؛ لتوفير الفرص أمام إقامة إسرائيل الكبرى على عجل وفى صمت . إن دولة «ما» هى التى أفهمت العراق أن بتروله يسرق من الأرض المتنازع عليها ، وهى التى هاجته ليتحرك وأعطته الضوء الأخضر ليمر .

فإن أعداء الإسلام يعبثون ببعض الساسة العرب ، كما يلعب الفيلسوف ببعض الصبية ثم تنجر الأمة كلها إلى مصيرها القائم بعد هذا التآمر الخبيث .

يقول نبينا العظيم ﷺ : «لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف فيها حقه من القوى غير متعتع» .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ** ﴾[1] .

ولنعلم أن أعداء الإسلام أمدوا صدام بأفتك ما لديهم من قوة حتى يقضى على المسلمين فى إيران وعلى الأكراد فى العراق باسم البعث العربى .

وإننى أناشد المسلمين بعدما افتضحت المؤامرة أن يلموا شملهم ويستعينوا بربهم ويحلوا مشكلاتهم على ضوء الإسلام ولنتشبث بوحدتنا ورسالتنا وننجو من أحابيل الغادرين والخائنين .

---

(١) النحل : ٩٢ .

* ما هو مستقبل الأمة العربية والإسلامية فى ظل أوضاعها الحالية ـ كما يراه الداعية الإسلامى الكبير؟!

** إن حاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم مظلم موحش، وكيف لا يكون ذلك؟! وهم يسبحون فى بحار الفقر والجهل والمرض.

والغريب أن الفجور فى الخصومة، والعبث بالعقود والعهود، والاستهانة بالكلمة، والإضاعة للأمانة كلها تكاد تكون عادات مألوفة عند العرب!!

إن المسلمين لا يلتزمون بما ورثوا من دين فى ميادين الأخلاق عامة إلا من عصم الله، على حين نجد أتباع ملل أخرى يتحرون فى معاملاتهم ومسالكهم مكارم الأخلاق ويترفعون عن الفوضى والإسفاف والتسيب.

إننى عندما أسمع وأقرأ كل يوم عن مجىء الجيوش الأجنبية إلى أرضنا وتتابع الأحداث وانتشار الفوضى، أقول: هذه أيام بالغة السوء! ماذا حدث؟! إننا لم ننحدر إلى هذا القاع منذ قرون خلت، فمنذ أيام معدودة كان الصف مجتمعًا فكيف انصدع .. ماذا فعل العرب بأنفسهم ورسالتهم؟ إننا أمة تنتحر! وقع زمامهم فى أيدى الشياطين، فهى كما حدث القرآن الكريم من قبل: ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** ﴾[1].

اليهود يد واحدة تضربنا بقوة .. عبيد البقر يد واحدة تزهق أرواحنا بالمئات فى المساجد.

الناس فى شرق أوروبا وغربها يتجمعون ونحن وحدنا نتفرق .. ماذا يعمل العرب بدينهم ودنياهم؟!

فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم يتحدث العرب عن أنفسهم أنهم لو حملوا أمانات الوحى لكانوا أرعى لها، وأبر بالناس ممن سبقوهم فى هذا الميدان.

فهاهم حملوا هذه الأمانات فما رعوها حق رعايتها ولا شرفوها محليّاً أو عالميّاً فى هذه الأيام العجاف.

فبم علق القرآن على هذا السلوك؟ قال: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ..** ﴾[2].

---

(١) الأنعام: ٦٥.

(٢) فاطر: ٤٢، ٤٣.

إن المسلم العربى يصطبغ وجهه بالقار عندما يرى عرب الكويت يطلبون النجدة من «بوش» حامى إسرائيل ، ويرى بوش عند حسن الظن به . . وويل للجماهير اللاهية من علمانيين يحكمون وجاهلين يفتنون .

فما أحوج هؤلاء العرب الجبناء والمسلمين الفقراء إلى دراسة أسباب هزائمهم العسكرية والحضارية .

إن الرؤساء عندنا وراء كل منهم مائة ألف روح لايسألونه إذا غضب : لِمَ غضب؟

ومن ثم فهو يمضى بمن وراءه إلى النهاية المرسومة ، إلى الغرق الذى لف قوم فرعون فى أمواجه حتى أوردهم القاع! أهذا الاستبداد الأعمى تعاليم دين؟ أم سخافات أم وسقوط تاريخ؟!

* ما رأيك فيما يحدث الآن بالمسجد الأقصى من منع الصلاة فيه ، والحراسة اليهودية الدائمة؟!

** أجاب القرآن الكريم عن هذا التساؤل فقال : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا** ﴾[1] .

وقيام اليهود بأذى المسجد الأقصى شديد الخطورة ، وتصوره تصور مظلم للعرب والمسلمين جميعًا ؛ لأن اليهود لا يمنعون الصلاة فحسب بل يعدون العدة لهدم المسجد وبناء هيكل سليمان «المزعوم» وهم يصرحون بذلك دون حياء .

وقد تمت عدة محاولات لتنفيذ هذه الجريمة ، لكن الأقدار التى تحرس حرمات الله حالت دون إنفاذها .

والغريب أن فى العهد القديم فى سفر «حزقيال» إيحاء ببناء الهيكل على نحو معين استغرق الوصف فيه قرابة صفحتين!!

وإذا تم لليهود ما يؤملون فسوف يكونون سادة العالم أجمع وسيكونون الأداة التى يستغلها ساكن الهيكل وهو الله سبحانه وتعالى فى سياسة المشرق والمغرب .

* ما هى قضية الأسرى المصريين المفرج عنهم فى إيران والأسرى الذين مازالوا هناك فى السجون؟؟

---

(١) البقرة : ١١٤ .

** الأسرى فى العراق قسمان : قسم مدنى يعمل فى الصيد أو يعمل فى الشئون الحرة والأعمال الإدارية وهؤلاء لا صلة لهم بالقتال فهؤلاء الذين جئنا بهم من إيران للقاهرة .

والقسم الآخر كانوا مقاتلين فى الجيش العراقى وكانوا يحملون جنسية عراقية وأخفوا جنسيتهم المصرية الحقيقية ، وهؤلاء تم الإفراج عنهم أثناء عملية تبادل الأسرى فى بداية الغزو العراقى للكويت . . والمهم أنه لا يبقى الآن أسرى فى سجون إيران نهائيّاً .

* مارأى فضيلتكم فى مسيرة الحضارة الإسلامية المعاصرة ، وعلى أى جناحيها تعتمد : الكم أم الكيف؟؟

** العلم الآن لا يعرف إلا حضارة الغرب فى جميع شئونه الحياتية ، أما حضارة الإسلام ففى خبر «كان» . ربما كانت ذكريات أهيل عليها التراب ، وربما حاول أولو الغيرة أن يبرزوها للناس فى حكايات أو فى أحلام . . و لا أستطيع القول إنه توجد حضارة إسلامية كالتى سادت العالم قرابة ألف سنة ـ كان المسلمون فيها هم العالم الأول المتقدم ، وكانت الدنيا تنقاد لهم وتنتشر حضارتهم بتقدمهم العلمى والعملى .

بل إن المسلمين لما انهزموا عسكريّاً أمام التتر ظلت حضارتهم قائمة ولذلك دخل التتر فى الإسلام .

وكانت الأمة المهزومة ـ آنذاك ـ أرقى حضارة وأكثر ثقافة من الأمة المسيطرة عليها ولذلك ذابت فيها .

أما اليوم فقد تخلف المسلمون وتخاذلوا وتضعضعوا إلى الوراء كثيرًا مما يجعلنا نجزم بعدم وجود حضارة حالية ، وإن كانت توجد مواريث ضرب عليها العنكبوت بنسجه تذكرنا بقول الشاعر :

لخولة أطلال ببرقة سهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

لكننى لست بيائس فإن أمتنا تمرض ولا تموت ، وقد تسقط على الطريق فتطول كبوتها ولا تقصر ، وتتحامل على نفسها مرات ومرات ثم تتابع المسيرة مرة أخرى .

والمستقبل إن شاء الله للإسلام ، وكثيرًا ما كنت أقول للناس : يوم الإسلام قادم فارتقبوه .

* ما رأى فضيلتكم فى مسار الدعوة الإسلامية الآن . . ما لها وما عليها؟؟

** الدعوة الإسلامية تتعثر فى هذا العصر ؛ لأن القوى التى تواجهها أعتى منها وأدهى وهى داخل نطاق الأمة الإسلامية أو وراء حدود أمتنا تعمل بنشاط لضرب الإسلام فى صميمه .

بل إنها وضعت برامج محددة وسنوات معدودة لكى يذوى شأن الإسلام فى إفريقيا ويختفى فى أندونيسيا ، إلى غير ذلك مما تزينه الشياطين لأعداء الله .

والغزو الثقافى يحيط بالدعاة المسلمين من نواح شتى ، ولذلك فإن الدعوة تحتاج إلى يقظة وروح جديدة ومواجهة صريحة لكل الأزمات الروحية التى تتعرض لها الأمة الإسلامية ، ولا أقول بأن الأمة الإسلامية تسير سيرًا حسنًا ، لأن بعض المساجد لاتزال مفتوحة للقاصدين فهذا لون من الجهل لا يجوز أن ينخدع به عاقل أبدًا .

والدعوة بحاجة إلى مفكرين وإلى دارسين وإلى خطباء من طراز غير الطراز الذى نألفه وإلى كتب ورسائل بالعربية وغيرها من اللغات .

الدعوة الآن بحاجة إلى مقيمين وظاعنين وسائحين يتقنون اللغات الأجنبية ويعيشون بين ظهرانى الأمة الإسلامية حينًا ويتنقلون فى أوربا حينًا آخر .

أى إن جهاز الدعوة المطلوب الآن ـ لكى تنجح الدعوة ـ جهاز شامل مستوعب لكل الحقائق والمفاهيم .

وهذا الجهاز المتكامل لا وجود له الآن ، وقد توجد جهود مشكورة لأقسام الدعوة فى الأزهر ، ولكن هذه الجهود تشبه بعض الترع التى تكلف برى الصحراء الكبرى .

* هل تعتبر قضية المسجد الأقصى قضية عربية أم قضية إسلامية؟

** إن قضية فلسطين منذ بداية التاريخ قضية دينية ، فكون سكان بيت المقدس أكرادًا أو هنودًا ، لا يغير القضية ، فالقضية التى يحكى التاريخ أطوارها منذ بدء إنشاء أورشليم . و«شليم» هو «سليم» كما ينطق اليهود موسى «موشى» .

وظل بيت المقدس يتداول بين اليهود والفاتحين عدة قرون ، ثم آل إلى العرب منذ خمسة عشر قرنًا إلى هذا اليوم ، وربما استطاع الفرنجة أن يستولوا عليه نحو ٩٠ سنة لكن المسلمين بقيادة صلاح الدين استردوا القدس فى معركة «حطين» التاريخية المشهورة .

والحرب الصليبية لم تنته حتى الآن وإن زعم المارشال «اللنبى» كاذبًا أنها انتهت بسيطرة الإنجليز على فلسطين وفقدان المسلمين لحكم بيت المقدس ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾[1] .

وحلم اليهود بأن يستولوا على بيت المقدس ليمتد من النيل إلى الفرات وليس هذا فحسب ، بل إنهم يريدون أن يستعبدوا العالم أجمع .

وهذا الحلم هو محصّلة نبوءات كثيرة فى كتبهم الدينية ، ومن هنا قال «وايزمان» : إن «بلفور» عندما أعطانا وعد تملك فلسطين كان يترجم فى العهد القديم لأن «البروتستانتى» يرى أن العهد القديم واجب النفاذ!

و«بلفور» كان رجل دين أولاً ، ثم رجل سياسة ثانيًا ، وهذه معلومة لا يفهمها كثير من الناس . . .

ولكنّ المسلمين فى نوم عميق وسبات طويل .

* إلى أى مدى تتعارض أو تتفق التكنولوجيا المعاصرة مع مبادئ الإسلام؟

** التكنولوجيا لا تختلف أبدًا مع الإسلام فهاهو الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ يقول : «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**» .

فلتكن فى الدنيا سيارات وقطارات ومخترعات ، وليكتشف الطائرات والأقمار الصاعية وليعبروا البحار والأجواء ، فهذا كله لا صلة له بالأديان جميعًا من ناحية أنه تقدم بشرى ، وهو وسيلة قد تخدم الخير وقد تخدم الشر .

فالمسدس فى يد اللص يقتل به الآمنين وفى يد الشرطى يحرس به الأمن بين الناس .

المصيبة الفادحة أن يكون التقدم فى يد اليهود وليس فى يد العرب والمسلمين!

ومعنى هذا أن باطلاً مسلحًا يعتدى على حق أعزل!

* بماذا يكون دعاؤكم لإنقاذ المسلمين من الكارثة الحالية؟

** نحن نشخص المرض ونفتح العيون على الدواء ، فإذا كان هناك تخلف أخلاقى أو غباء فى المعرفة أو قصور فى وسائل الإنتاج ، فنحن نشرح هذا الواقع وننبه إلى أخطاره ، وليس على الداعى أن يستصرخ الهمم لكى لا يبقى فى وضع مهين .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

الإسلام مع تعدد الأحزاب
ويرفض شطط الاجتهاد..
ويهذب فوضى حرية الفكر

الداعية الإسلامى الكبير . . الشيخ/ محمد الغزالى ـ حفظه الله ـ بعد مسيرة حافلة قضاها فى حقل الدعوة الإسلامية المملوء بالألغام والمفروش بالأشواك . . وهو يتنقل من قطر إلى قطر . . ومن بلد إلى آخر ناصحًا وموجهًا ومرشدًا . . وهو يشخص الأمراض الاجتماعية التى ابتليت بها أمتنا العربية والإسلامية ، ولقى الشيخ فى سبيل تبليغ رسالته كثيرًا من العقبات التى ما زادته إلا ثباتًا وإيمانًا بقضيته ورسالته الجليلة .

والتقت به رسالة الإسلام ؛ لتستلهم رأيه فى كثير من القضايا الإسلامية الشائكة وما يتعرض له المسلمون فى مختلف أنحاء المعمورة . . وغير ذلك من المسائل الفقهية والعقائدية التى لم ينته الحديث فيها بعد . .

* باعتباركم من العاملين فى حقل الدعوة ، فكيف تواجهون جبهة أعداء الإسلام ، والذين يتربصون بالدعوة الإسلامية الدوائر؟

** الصحوة الإسلامية تشق طريقها وسط هذا الظلام الدامس ، ومهما طال الليل فلابد من طلوع الفجر . . وإننا أمة تمرض ولا تموت . .

إن أعداء هذه الصحوة المعاصرة ما هم إلا امتداد لأعداء الإسلام منذ بزوغ فجره ، وهؤلاء لم تزدهم الأيام إلا قسوة قلب ، وغباء فكر . .

إنهم يريدون الخلاص من الإسلام على أية حال ، لكنهم إلى اليوم فاشلون ، إن الجماهير المسلمة لم تنس دينها على كثرة المنسيات ، ولم يضعف حنينها إلى العيش فى ظله ، برغم ما صنع الغزو الثقافى بعد الغزو العسكرى .

ولم يقف خصوم الإسلام عند هذا الحد أبدًا . . فإن محاولاتهم لهدم أركان الإسلام لا تنتهى ، وستظل جهودهم متراكضة كى يذودوا الشعوب عنه ، ويمنعوها من إنفاذ

أحكامه وإحياء شعائره . وأدواتهم لبلوغ هذه الغاية كثيرة خفيها أكثر من جليها ، وماكرها أعقد من ظاهرها!!

والهدف من كل هذه المحاولات الملعونة هو «الإجهاز على هذا المصحف الشريف» . . وجعله حبرًا على ورق أو أثرًا يودع فى المتاحف .

وعلى المسلمين فى القارات الخمس ، وعلى كثرتهم العظمى بين المحيطين الهادى والأطلسى أن يلمسوا هذه الحقيقة ، فإما عاشوا بدينهم ، وإما نكصوا على أعقابهم فهلكوا . . إلا أن العاقبة للتقوى ، والمستقبل القريب والبعيد للإسلام دين الله من الأزل إلى الأبد .

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[1] .

* فضيلة الإمام . . هل يمكن أن تلقى لنا الضوء على المحنة التى يمر بها مسلمو يوغسلافيا من القتل والاضطهاد والتشريد؟!

** إن «يوغسلافيا» دولة حديثة الوجود ، كوّنها الحلفاء عقب فوزهم فى الحرب العالمية الأولى من عدة قوميات مختلفة الأعراق ، كان المسلمون جزءاً كبيرًا منها إذ يبلغ عددهم قرابة ٦ ملايين مع ملاحظة أن إقليم «كوزوفو» سلخ من ألبانيا المسلمة وضم إلى يوغسلافيا ، وهى سياسة اتبعها الاستعمار العالمى فى معاملة الأمة الإسلامية المترامية الأطراف لاسيما فى إفريقيا ، فهو يأخذ جزءاً من الصومال المسلم ليضمه إلى كينيا ؛ حتى يفقد شخصيته وتضعف الصومال بفقده . وتكررت هذه السياسة فى أغلب دول القارة التى استحدثت فى السنين الأخيرة ، المهم أن المسلمين فى «يوغسلافيا» جعلوا من دينهم قومية خاصة عاشوا بها فى إقليمى «البوسنة والهرسك» ولهم بقايا كثيرة فى سائر أقاليم الدولة الجديدة . .

وموقف المسلمين فى يوغسلافيا شديد التعقيد ، إنهم ــ الآن ــ يلتزمون الحياد بين الفريقين المتخاصمين (الكروات والصرب) ، ولكن الصرب تتربص بهم وتريد أن تشق لنفسها طريقًا على شاطئ «الأدرياتيك» كى تنشئ لها ميناء على البحر ، وذلك بداهة على حساب المسلمين المعزولين فى هذه البقاع . . والعدوان مرتقب إن لم يكن اليوم . وعندما يضرب المسلمون فى قطر أوروبى فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . . ونتساءل ــ

---

(١) محمد : ٣٨ .

أما لهم من نصير من إخوانهم فى القارات الأخرى؟! والجواب كئيب!! إن الجنرال «ميخابلوفتش» قتل منهم مائة ألف ومر دون مساءلة!! وجاء بعده «تيتو» وهو شيوعى ملحد فكان موقفه من المسلمين مثل موقف سابقه .

بم ينشغل المسلمون؟!!

إن موقف المسلمين فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود وكوزوفو وألبانيا نفسها يجب أن يدرس بأناة ، وأن يتحرك العالم الإسلامى لمساندته ورد العدوان عنه .

بم ينشغل المسلمون؟ وإذا أصيبوا فى أخوتهم العامة فماذا يبقى لهم؟!

وهل بعد ذلك إلا أن تدور الدائرة عليهم فى عقر دارهم؟

المسلمون المعاصرون تنقصهم التربية النفسية والفكرية

العالم الإسلامى يجب أن يتحرك لمساندة المسلمين فى يوغسلافيا

* شيخنا الجليل . . نريد أن نسترشد برأى فضيلتكم فى مسألة تعدد الأحزاب على الساحة . . وهل هى فى الحقيقة تخدم الإسلام أم تقف عقبة فى طريقه؟

** ما يمنع الإسلام تعدد وجهات النظر ، والاختلاف العقلى فى مناهج الإصلاح الدينى أو الدنيوى .

فنحن فى شئون الدنيا أحرار الفكر ، لم يلزمنا الإسلام بشىء . . «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**» وكذلك نحن فى الوسائل التى تحقق غايات قررها الإسلام ولم يشرع لها طريقة خاصة ، كرفع المستوى العلمى والخلقى للأمة ، وتحقيق العدالة الفردية والاجتماعية ، وكاقتدار البلاد عسكرياً على الجهاد فى البر والبحر والجو . . وأمور كثيرة تتفاوت الأنظار فى أسبابها ولا تتفاوت فى نتائجها .

ثم هناك مجال مهم تختلف فيه العقول وهو كيف تستنبط الفروع من الأصول؟ فلقد نشأت من ألف عام أو يزيد مدارس شتى فى ذلك . . وتعدد الأحزاب فى الغرب يشبه تعدد المذاهب عندنا .

ويضحكنى ادعاء الذين يقولون إن الأحزاب تقسم الأمة ، فالأمة لا تمزقها وجهات النظر السليمة إنما تمزقها الشهوات!! ولقد ولدت الأحزاب مع ميلاد الكيان الإسرائيلى على أنقاضنا فماذا حدث لهم وماذا حدث لنا؟؟

إن نظام تعدد الأحزاب لم يضر الغرب شيئًا ، وفقدانه لم ينفع الشرق الشيوعى . . ولذا فإقحام كلمة حلال أو حرام هنا هو ضرب من السخافات التى تعودنا عليها!!

والذى يسأل هذا السؤال وغيره من الأسئلة مثل :

لبس البدلة الفرنجية حرام . . كشف وجه المرأة حرام . . الغناء حرام . . الموسيقى حرام . . التصوير حرام . . الكلونيا حرام . . إعلاء المبانى حرام . . ذهاب النساء إلى المساجد حرام . . أقول له : كيف يتحرك الإسلام مع هذه الأثقال الفادحة؟! فالإسلام بهذه الحالة ــ يا معشر المسلمين ــ لن يكسب أرضًا جديدة ، بل قد يفقد أرضه نفسها . .

فالإسلام مظلوم مع أصحاب النظر القصير والرؤية المحدودة ؛ لأنهم يقرون ما يعرفون ، وينكرون ما يجهلون .

ومن ثم ففهم الإسلام أو تدريسه على أنه نهضة عربية أو يقظة كلية أكذوبة كبرى!

وكذلك تناوله من زاوية خاصة ، وعدم الوصول بمعانيه إلى أبعادها الأبدية العامة .

إن عالمية الإسلام «من كتاب وسنة» هى أنهما يخاطبان الإنسان حيث كان ، دون انحصار فى زمان أو مكان . . إنهما ارتباط بالفطرة ، وحوار من العقل البشرى تحت أى سماء وإلى آخر الدهر .

يتهمون الأزهر بالجمود والعدوان على حرية الاجتهاد ويأتى أحدهم ليجتهد ويحلل الخمر

* فضيلة الشيخ ــ ما رأيكم فى الذين يقولون إن الأزهر الشريف يصادر حق الإبداع ويقف دون حرية الفكر والاجتهاد؟؟

** سؤالك يذكرنى بأحد الصعاليك الذى ألف كتابًا ــ مؤخرًا ــ نال فيه من الوحى والنبوات وسخر ما شاء أن يسخر من الدين وحقائقه ، فعاقبه القضاء بالسجن بضع سنين على وقاحته وهبوطه ، فإذا بكاتب شيوعى يعترض على الحكم ويقول : إن هذا مصادرة لحق الإبداع!! فالإبداع فى عُرفه هو الإقزاع فى شتم الأنبياء!!

وكأنما كانت هذه الحركة إشارة على بدء الهجوم ، فإذا عصبة من الملاحدة تتصايح هنا وهناك على ضرورة إلغاء الحكم أو تخفيفه ليكون صوريًّا!!

والتهمة المختارة التى يرددها هؤلاء أن حرية الفكر فى خطر ، وأن المتدينين ــ وفى

طليعتهم الأزهر ـ صنعوا مقصلة لقتل المفكرين الأحرار، أو بعثرة الأشواك فى طريقهم!!

وقال واحد منهم يدعى أنه حُرم من حق الاجتهاد وصودرت له عدة كتب!!

وقرأت ما كتبه ذلك المجتهد، فإذا هو يحلل الخمر مستدلاً بالآية: ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** .. ﴾[1] .

هذه هى عبقرية الاجتهاد عند مستشار، ولا أدرى أكتب كلامه وهو صاح أو سكران؟ إنه يتهم الأزهر بالجمود والعدوان على الحريات وإغلاق باب الاجتهاد!!

إن الحاقدين على الإسلام كثروا وعلا صياحهم وطالت لجاجتهم، ويقع هذا فى بلادنا فى أيام نحسات تتعرض فيها الحركات الإسلامية لضروب الفتن وأنواع القمع .

* أستاذى الشيخ الغزالى .. ما تقييمكم للثقافات التى يتربى عليها جيلنا الآن ـ ما لها وما عليها؟؟

** فى رأيى أن الثقافة التى آلت إلينا مؤخرًا ضحلة آسنة لا فى مجال المعرفة الدينية وحدها، بل فى مجال الأداء الأدبى كذلك، وأن هذه الثقافة أعجز من أن تصنع أمة تنهض برسالتها، وتخدم كتاب ربها وسنة نبيها .

وقد كانت ثقافتنا فى العصور الأولى تصنع أجيالاً عملاقة، قادرة على المحو والإثبات، تحترم الحقائق وتعشق الفضائل، وهكذا هبط العلم الدينى وتقوقع رجاله فى تخصصاتهم الدينية لا يمدون أنوفهم وراءها .

ولذا أقول: إن العلم بالدين كله لا يتم عن طريق تجار التجزئة، وإن الصورة الكاملة للإسلام إنما تتم على النحو السلفى الأول، وأن العقل الإسلامى المعاصر يجب أن يرتفع إلى مستوى الشمول فى القرآن الكريم حتى يستطيع إعادة بناء الأمة الواحدة التى لا تحدد رقعتها على سطح الأرض خطوط الطول والعرض .

﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾[2] .

وعرف المسلمون بالبداهة أن أمة العقيدة لا يحصرها مكان وأن إخوان العقيدة لا يحدهم جنس، وأن المسلم إذا استبيح دمه على شاطئ المحيط الهادى فى الفلبين يجب أن يتحرك له أخوه على شاطئ الأطلسى فى المغرب والسنغال ونيجيريا .

---

(١) الأنعام: ١٤٥ .　　(٢) العنكبوت: ٥٦ .

* هل معنى ذلك أنه ليس هناك ـ ثمة ـ وجه مقارنة بين شخصية المسلم فى العصور الماضية وبين شخصية المسلم المعاصر؟!

** إن الأجيال المنتمية للإسلام فى هذا العصر تنقصها التربية النفسية والفكرية التى برز فيها السلف الأول ، وأضحوا بها قادة ترنو لهم الدنيا بإعجاب وحفاوة .

فالصورة التى عرفت عن شباب العرب والمسلمين فى أوروبا وأمريكا لا تشرف دينًا ولا تغرى بنظر فيه . . ولولا أن الحضارة الحديثة تحض على النظر والاستكشاف ، ما عرف أحد الإسلام على حقيقته .

إن شباب العرب والمسلمين يهجرون أوطانهم طلبًا للمتعة ، واستكثارًا من الفضائح فى بلاد لا يعرفون فيها!! فالمال الإسلامى يراق بسفه غريب فى عُلَب الليل وموائد القمار والخمر وأنواع التهتك التى تفوق الخيال!

والغربيون ليسوا أغبياء! إنهم يقولون : أما على هذا المال رقابة؟ من أين اكتسب؟ وفيم أُنفق؟ وهم يعلمون أن جماهير غفيرة من المسلمين ذهبوا ضحايا الجفاف والقحط ، ومن بقى منهم فى آسيا أو إفريقيا بقى جلدًا على عظم ، أو ملامح تصرخ بالبأساء والضراء!

فعلينا أن ندرس بأناة الأسباب التى جعلتنا فى العالم الثالث أو الرابع بعد أن كنا وحدنا العالم الأول دهرًا طويلاً . .

إنها أسباب كثيرة ، ثقافية واجتماعية وسياسية!!

* كثر الجدال وتضاربت الآراء حول عمل المرأة وخروجها . . خاصة فى السنوات الأخيرة . . فما رأى ـ صاحب الفضيلة؟!!

** هناك تقاليد تتصل بوضع المرأة لابد من إعادة النظر فيها لتستقيم مع ديننا وأحكامه الصحيحة . . فالمجتمع عندنا ينقسم إلى فريقين كلاهما على خطأ مشين . .

الفريق الأول : يحاول أن ينقل تقاليد الغرب الجنسية ، وجاهليته الذميمة فى إشباع الغرائز من الحرام .

ـ والفريق الآخر : يؤكد أن المرأة قعيدة بيتها ، لا تخرج منه أبدًا إلا إلى الزواج أو إلى القبر!!

ولكن الإسلام غير ذلك ، فالله يعلم أن الإسلام برىء من هذه التقاليد كما هو برىء من المفاسد الجنسية فى أوربا وأمريكا .

ومع ذلك فإن كثيرًا من المنتسبين إلى الإسلام وعلومه يرتضون هذه الأحوال ، ولا يتحمسون لتغييرها .

فرأى الإسلام يقول ـ مثلاً ـ : إن وجه المرأة ليس بعورة . . ولكن . . ولكن . . أكره أن تكون المرأة جسدًا عاريًا يمشى بين الناس ، فالحجاب الإسلامى يحفظ للمرأة شرفها ، ويرد عنها عيون الذئاب أيضًا . . ليس فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله ﷺ أنها تمنع من دخول المسجد . . إن أناسًا غلبهم الهوى الجنسى هم الذين شرعوا هذه التقاليد بعدما تعسفوا فى شرح الآيات بتفاسير مرفوضة ، تفاسير لم يقل بها واحد من الأئمة الأربعة الذين انتشر فقههم فى طول البلاد وعرضها .

ولقد كانت النساء فى العصر الأول تصلى التراويح فى مساجد خاصة بهن حتى جاء أخيرًا من يمنعهن من أداء الفرائض فى بيوت الله . . وكن يبايعن الإمام على نصرة الإسلام ومكارم الأخلاق حتى جاء من يقوم بتجهيلها عمدًا فى قضايا الإسلام الكبرى وغيرها .

فالإسلام لا يؤخذ من أصحاب العقد النفسية أبدًا . . إن الإسلام يؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والمجتمع الذى يصنعه الكتاب والسنة يجعل المرأة تلد ذرارى مشرقة باهرة الأخلاق . . لا دابة تلد حيوانات .

حتى نحصن أنفسنا

هناك ظروف أو بيئات تترك طابعها على العقل العادى ، فالفلاح فى قريته أو العامل فى مصنعه ، ينظر إلى الدنيا ، وإلى المسافات بين أقطارها نظرة ضيقة .

أما سائق السيارة أو قائد الطائرة فإن نظرته إلى المسافات أرحب وجراءته على طيها أسرع ؛ لأنه يألف التنقل والانطلاق .

والثقافة الإسلامية الأولى كانت تصنع عقولاً من الطراز الطيار .

أما هذه الثقافة فى أيامها الأخيرة ، فهى تصنع عقولاً تحسن الاعتكاف والانزواء .

ونشأ عن ذلك أن الاستعمار العالمى لما بدأ زحفه فى آسيا ـ شرقًا وجنوبًا وشمالاً ـ وبدأ زحفه فى إفريقيا من كل ناحية ، كان الإحساس بالألم يمر بكيان سرى فيه انحدار وتفاوت فيه الحس .

ولا يزال ناس من أهل العلم ـ كما يوصفون ـ لا يعلمون شيئًا عن دولة «غطانى فى تايلاند ، مثلاً» ، ولا يعلمون شيئًا عن جماهير كثيفة من المسلمين تعيش فى عشرات الدول الإفريقية ضائعة الهوية كاسفة البال قليلة الرجاء .

لماذا؟ لأن العقلية التى تشرح الأخوة الإسلامية ، أو الولاء الإسلامى ، أو عبادة الله الواحد فى العالم الكبير الذى نعيش فيه ليست عقلية الطيار التى أشرنا إليها . وإنما هى عقلية فلاح مجنون الوعى!

ما كان سلفنا كذلك ، كان الأعرابى الساذج يعترض الرسول وهو على ناقته بطلب منه أن يعلمه الإسلام ، ويمسك بزمام الناقة حتى يسمع . . ويحدث الرسول الملهم بما عنده ، فيصنع منه إنسانًا جديدًا عامر القلب بأمجاد الألوهية وأضواء الوحدانية والرغبة الهائلة فى تطويع الكون كله لمراد الله . فلا ترى هذا الأعرابى بعد ذلك إلا قذيفة تدك عروش المستبدين فى فارس ، أو الرومان ، وتراه هو وإخوانه ينطلقون شرقًا صوب المحيط الهادى وغربًا صوب الأطلسى لهم جؤار بتسبيح الله وتحميده ، وتلاوة الكتاب الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور . . .

إننا بحاجة إلى ثقافة تصنع نفوسنا على هذا النحو ، إنها الثقافة التى صنعت أمتنا أولاً والتى تنفذها أخيرًا!

والفقه الذى يرشح أصحابه لخدمة الوحدة الإسلامية يحتاج إلى إضافات واجتهادات جديدة يستحيل أن تعجز عنها أصول الفقه عندنا .

إننا بلغنا الآن أكثر من ألف مليون نسمة وهذا العالم الإسلامى الرحب الموار تلابسه أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية بالغة التعقيد ، وهو يحتاج إلى فقه إدارى ودستورى ، وذوى حسن التقدير لمعاش المسلمين ومعادهم على سواء . ذكى الصلة بالعوالم غير الإسلامية التى تشاركنا الحياة على ظهر الأرض . .

وقد تحدث العلماء القدامى فى السياسة الشرعية ، والتراتيب الإدارية . بيد أن حديثهم كان قليلاً ، ويبدو أنهم أوجزوا حتى لا يصطدموا بالساسة ، ويتعرضوا للمحن .

ومع إيجازهم فقد وقفوا عند حاجات عصرهم . وقد مضت قرون طويلة ، وهذا الضرب من ثقافتنا الإسلامية لا يعدو حاجات المسلمين حتى القرن السابع الهجرى ، فهل ينشط الفقهاء المسلمون ليجعلوا التشريعات الإدارية والدستورية والدولية مناسبة لمطالع القرن الخامس عشر الذى احتفلنا بمقدمه من بضع سنين؟

إن الألف مليون مسلم يتعرضون لامتحانات عالمية قاسية ، بعضهم يدور فى فلك الكومنولث البريطانى ، وبعضهم يذوب فى فلك الاتحاد السوفيتى ، وبعضهم يلهث ليلتحق بالسوق الأوربية المشتركة ، وبعضهم يؤثر القومية الإفريقية لجعل هذه القومية الإفريقية أعرق وأسمى من الثقافة الإسلامية!! وهذه دول تنقل دستورها من شرق أوربا ، وهذه دول أخرى تنقله من غرب أوربا . .

والفقه الإسلامى واقف طوعًا أو كرهًا فى مكانه العتيق لا يخدم البدائل المطلوبة ، وإذا كان بعض الساسة يعترض هذا النمو الثقافى الحتم ، فهل ننتظر حتى تطوينا ردة العلمانية الحديثة؟

إحياء الولاء لله

الأمة الإسلامية أمة دعوة إلى الله عز وجل ، وهى بهذا تميزت عن سائر الأمم . . قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] غير أن المؤسف حقاً أن قطاعًا عريضًا من الأمة الإسلامية لا يدرك هذه الحقيقة ، ومن ثم يجهل تبعًا لذلك حقيقة أن أمتنا مكلفة بقيادة البشرية إلى الخير والفضيلة ، وتوجيهها إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، من خلال الالتزام الصادق بتعاليم الإسلام وأحكامه التى تحوى أسباب سعادة الناس فى الحياة الدنيا وفى كل منحى من مناحيها . والحقيقة أن المرحلة التى تمر بها الدعوة الإسلامية فى الحاضر مرحلة صعبة للغاية ، ذلك أن الوصول إلى النجاح فى مجال العمل الدعوى ، إنما يتطلب وجود عناصر عديدة ، وتوافر عوامل مساعدة كثيرة . . وأغلب تلك العوامل مفقودة ، وهذا ما يجعلنى أردد دائمًا وعن اقتناع كامل أن الإسلام باقٍ بجوهره ، وأن بقاءه من خوارق العادات . ولولا نقاء جوهر الرسالة الإسلامية ، ولولا وجودُ سر خفى فيها ما بقيت فى ظل هذا الحاضر الأليم الذى تميزه شدة أعداء الدين ، وتخاذل أتباعه وقصور وسائلهم الدعوية ، مما ألحق بهم هزائم شتى فى مواطن لا حصر لها .

إن أفضل ما يمكن للأمة القيام به فى الحاضر هو إحياء الولاء لله والانتماء للأمة فى نفوس المسلمين ، وإيقاظهم من غفوتهم التى طالت ؛ إعلاء لراية الإسلام وجمعًا للكلمة الإسلامية وتوحيدًا للصف ، فهذا كله من شأنه أن ينهض بمسيرة الدعوة الإسلامية .

أرى أن واجب الدعاة المعاصرين أن يقبلوا على تفهم حقيقة الدين الإسلامى الذى يحملون أمانة الدعوة إليه بين البشر من مختلف الألوان والأجناس والألسنة . . وعليهم أن يجتهدوا فى تكوين اتصالهم الفكرى والعاطفى بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وإدراكهما إدراكًا صحيحًا .

ولا يكون داعية ناجحًا من لا يبذل قصارى جهده فى أن يكون طالب علم طوال أيام عمره ، فالغوص فى الثقافة الإسلامية سواء القديمة أو الحديثة أمر لا غنى عنه

(١) آل عمران : ١١٠ .

لأى داعية . . والثقافة الإسلامية القديمة أعنى بها نتاج علمائنا من السلف الذين طوفوا بين مختلف المعارف الدينية وغير الدينية وتركوا لنا تراثًا هو مفخرة الثقافات كلها .

أما الثقافة الإسلامية الحديثة فاجتهادات علماء الإسلام المعاصرين ممن استفادوا بشكل طيب من مختلف التجارب التى خاضها المسلمون فى الماضى ، ومن تاريخ العلوم الدينية والعلوم الإنسانية . . وهذا كله من الضرورات بالنسبة لدعاة هذا العصر حتى يواجهوا بعلومهم تحدياته وقضاياه التى تجد به .

ومن المؤلم أن بعض دعاة الإسلام لا يدرى شيئًا فى كثير من القضايا المعاصرة ، ولذا فهو يتوقف عن أخذ الجديد الذى يصل إليه علماؤنا المخلصون من خلال جهودهم ودراساتهم وبحوثهم ، ومن ثم يقف هذا البعض عند معارفه القديمة التى يرددها دون أن يستخلص منها النافع للأمة فى هذا الوقت الذى تواجهه فيه مناهج اقتصادية واجتماعية وسياسية انتفعت بكل ما وصل إليه البشر من معارف حديثة .

ولا ينبغى ــ والحال على هذه الصورة من تكالب الأعداء على الدين ــ أن يفوت دعاة الإسلام ضرورة دراسة الفرق والتيارات المعادية ، بجوار دراسة الإسلام فى معارفه القديمة والحديثة دراسة واعية وجادة يقفون من خلالها على الأسباب التى جعلت تلك الفرق والتيارات تكسب مساحات من الأرض ، وتستحوذ على آلاف العقول ، ومن ثم يمكن التصدى لها .

ومع دراسة كل تلك الفرق دراسة موضوعية فإنه بإمكاننا أن نعرف كل ما يراد بنا ، وما يبيت لنا ، ومن ثم يسهل على المسلمين دفع المخاطر عن أمتهم .

الدين الحق...!

لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق! ربما عاملنى شخص ما بلطف، ونظر إلىَّ بوجه طلق، وهذا شيء أحمده له..

لكن ماالعمل إذا كان هذا الشخص لا يذكر لله عهدًا، ولا يشكر له نعمة، ولا يدين له بولاء؟ هل أعد هذا الشخص فاضلاً لأنه أحسن معاملتى على حين أساء معاملة ربه؟

أعرف أن الحضارة الحديثة أغفلت الجانب الروحى وأسقطته من كل حساب، لكن هذا المسلك من أوزارها لا من مناقبها..

الإنسان الخير لا ينقسم على نفسه فيكون طيبًا هنا وخبيثًا هناك، بل تسود خلاله صبغة واحدة وجهة ثابتة.

نحن نعد أعداء المجتمع البشرى مجرمين؛لأنهم يعتدون وينحرفون، والقرآن الكريم يثبت الصفة نفسها على من يخاصم الله ويلحد فى دينه: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾[1].

وعندما نسمع نصح لقمان لابنه نراه يمزج بين حسن معاملة الله وحسن معاملة الناس: ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾[2].

إنها سفالة بعيدة القرار أن يكفر امرؤ بالله ويجاهر بحربه، ثم ينتظر من الناس التقدير لأنه ابتسم لهم بعدما تجهم لسيده. ما يقبل ذلك أحد!

ومعنى الإيمان بالله أن أكون أهلاً لمعرفته وجديرًا بالانتماء إليه، ولا يصلح لذلك إلا من هذب نفسه وصان مسلكه، إنك لا ترشح نفسك لصحبة كبيرة إلا إذا أصلحت هيئتك وزكيت سيرتك، فكيف ينتمى إلى الله مسف فى أحواله، مسيء فى أعماله، مريب فى خلاله؟!

الواقع أن بعض المنتسبين إلى الدين ينفرون منه بما يلاحظ عليهم من انحلال وهبوط، والتدين الفاسد عدوان مضاعف على الدين الحق.

---

(١) السجدة: ٢٢.　　(٢) لقمان: ١٧، ١٨.

لابد من جهاد دائم للنفس حتى تبرأ من رذائل الأثرة والهوى والعدوان ، وأى دين يبقى مع بقاء هذه الآفات؟!

يقول الله تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾[1] ولا حرج من دفاع المرء عن مصالحه ، أما أن يخرج من بيته كما يخرج السبع من غابة ، لا هم له إلا أن يفترس ويغتال ، فهذه وحشية ، الحيوان لا يفكر إلا فى نفسه وأولاده ، وبعض الناس ينطلقون فى الشوارع لا تملكهم إلا هذه الفكرة ، فهم ينتقلون من منحدر إلى منحدر . .

وبعض آخر مشغول بهدم الآخرين ، والبحث عن عيوبهم ، والتسلى بآلامهم . . ولا أدرى لماذا يتخيل بعض الناس أنه لا يبنى نفسه إلا إذا هدم غيره؟!!

وهناك باحثون عن اللذة يمدون أعينهم إلى المكشوف والمستور من العورات ، وقد حسبوا أن من حقهم إشباع شهواتهم لأن الكبت لا يجوز ، وحبس الرغبة المحرمة من وصايا الأديان البالية!

إن فقدان التربية السليمة ، والتدين الحق يجعل الدنيا جحيمًا ، والعلاقات البشرية فى الحضيض .

والحل الفذ أن نعود إلى حقيقة الدين ، فنوثق علاقتنا بربنا ، ونحسن الصلاة له والخشوع بين يديه ، ونجعل علاقتنا بالناس محكومة بمعالم التقوى وخشية الله والتأهب للقائه . .

إن الدين فى الغرب نهج لخدمة الجنس الأبيض واستغلال ثروات الأرض ونسيان الدار الآخرة ، وقد لفحتنا ألسنة من هذه النار المندلعة ، فلنعد بالدين إلى حقيقته ، ولنجعله ربانية طاهرة ، وأخوة مواسية ، وصالحات مبرورة : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[2] .

---

(١) النساء : ١٢٨ .
(٢) لقمان : ٢٢ .

القوامة لا تعنى القهر..!

هل قوامة الرجل على بيته تعنى منحه حق الاستبداد والقهر؟ بعض الناس يظن ذلك وهو مخطئ! فإن هناك داخل البيت المسلم ما يسمى «حدود الله» وهى كلمة لاحظت فى تلاوتى للقرآن الكريم أنها تكررت ست مرات فى آيتين اثنتين!!

والآيتان فى دعم البيت المسلم حتى لا يتصدع ، وفى تدارك صدوعه حتى لا ينهار . . وهما قوله تعالى : ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[1] .

ما هذه الحدود التى تكررت ست مرات خلال بضعة سطور؟ إنها الضوابط التى تمنع الفوضى والاستخفاف والاستضعاف ، ضوابط الفطرة والعقل والوحى التى تقيم الموازين القسط بين الناس ، إن البيت ليس وجارًا تسكنه الثعالب ، أو غابًا يضم بين جذوعه الوحوش .

لقد وصف الله مكان المرأة من الرجل ومكان الرجل من المرأة بهذه الجملة الوجيزة : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾[2] إن هذا التمازج بين حياتين يكاد يجعلهما كيانًا واحدًا ، وليست الغريزة هى الجامع المشترك ، فالنزوة العابرة لا تصنع حياة دائمة! وقد عنى المفسرون الكبار بجو البيت المسلم وهم يشرحون حدود الله التى تكررت كثيرًا فيما سقنا من آيات ، وكان أهم ما حذروا منه الظلم! قال صاحب المنار رَحِمَهُ اللهُ : « . . **والظلم آفة العمران ومهلك الأمم ، وإن ظلم الأزواج للأزواج أعرق الإفساد وأعجل فى الإهلاك من ظلم الأمير للرعية ، فإن رابطة الزوجية أمتن الروابط وأحكمها فتلاً فى الفطرة**

(١) البقرة : ٢٢٩ ، ٢٣٠ . (٢) البقرة : ١٨٧ .

الإنسانية! فإذا فسدت الفطرة فسادًا انتكث به هذا الفتل، وانقطع ذلك الحبل فأى رجاء فى الأمة من بعده يمنع عنها غضب الله وسخطه . . إن هذا التجاوز لحدود الله يشقى أصحابه فى الدنيا كما يشقيهم فى الآخرة . . وقد بلغ التراخى والانفصام فى رابطة الزوجية مبلغًا لم يعهد فى عصر من العصور الإسلامية ، لفساد الفطرة فى الزوجين واعتداء على حدود الله من الجانبين» .

والواقع أن داخل البيت يتأثر بخارجه ، وتيارات الميوعة والجهالة والإسراف إذا عصفت فى الخارج تسللت إلى الداخل فلم ينج من بلائها إلا من عصم الله . .!

إننا نريد أن نتفق أولاً على إقامة حدود الله ، كما رسمها الكتاب الكريم . وشرحتها السنة المطهرة وأرى أن ارتفاع المستوى الفقهى والخلقى والسلوكى لكلا الجنسين سيوطد أركان السلام داخل البيت وخارجه ، وسيجعل المرأة تبسط سلطانها فى دائرتها كما تتيح للرجل أن يملك الزمام حيث لا يصلح غيره للعمل فى زمام الحياة وعراكها الموصول .

إذا كان البيت مؤسسة تربوية أو شركة اقتصادية فلابد له من رئيس ، والرياسة لا تلغى البتة الشورى والتفاهم وتبادل الرأى والبحث المخلص عن المصلحة .

إن هذا قانون مطرد فى شئون الحياة كلها ، فلماذا يستثنى منه البيت؟

وقوله تعالى فى صفة المسلمين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[1] نزل فى مكة قبل أن تكون هناك شئون عسكرية أو دستورية! وعموم الآية يتناول الأسرة والمجتمع ، ويقول الأستاذ أحمد موسى سالم : «إن القوامة للرجل لا تزيد على أنه بحكم أعبائه الأساسية ، وبحكم تفرغه للسعى على أسرته والدفاع عنها ومشاركته فى كل ما يصلحها ـ تكون له الكلمة الأخيرة ـ بعد المشورة ـ ما لم يخالف بها شرعًا أو ينكر بها معروفًا أو يجحد بها حقًا أو يجنح إلى سفه أو إسراف ، من حق الزوجة إذا انحرف أن تراجعه وألا تأخذ برأيه ، وأن تحتكم فى اعتراضها عليه بالحق إلى أهلها وأهله أو إلى سلطة المجتمع الذى له وعليه أن يقيم حدود الله» .

وهذا كلام حسن ، وأريد هنا إثبات بعض الملاحظات :

أولاً : أن النفقة معصوبة بجبين الرجل وحده ، وأن إنفاق المرأة فى البيت مسلك مؤقت وتطوع غير ملزم ، وعليها أن تجعل أثمن أوقاتها لتربية أولادها والإشراف العلمى والأدبى عليهم .

(١) الشورى : ٣٨ .

ثانيًا : أن دور الحضانة مأوى موقوت تلجأ إليه ضرورات عابرة وأن الأساس فى الإيواء والتربية هو البيت الأصلى ودفء الأمومة وحنانها!

ثالثًا : حرمات الله حولها فى الإسلام أسوار عالية يجهلها كل سكران أو ديوث ، وتقاليد الغرب التى تتيح لأى امرئ أن يراقص أى امرأة بإذن أو بغير إذن من زوجها يرفضها ديننا كل الرفض ، وليس لرجل أو امرأة أى حرية فى انتهاك حدود الله واعتداء حرماته .

رابعًا : الأسرة مملكة ذات حدود قائمة تشبه حدود الدول فى عصرنا وطبيعة هذه الحدود الحماية والمحافظة ، فليس البيوت مبنية على سطح بحر مائج التيارات ، وليست بابًا مفتوحًا لكل والج وخارج .

ولعقد الزواج أبعاد فقهية واجتماعية وتربوية ينبغى أن تعرف وأن تعرف معها قوامة الرجال . .

وكان من السهل أن يتضح ذلك لو سارعنا إلى إنشاء «**علم اجتماع إسلامى**» تلتقى فيه قضايا الأسرة كلها إلى جانب ضروب التعاون والتلاقى بين طوائف الناس المختلفة . . ولكننا لانزال نحبو فى هذا المجال مكتفين بالترجمة والتقليد ، مع أن العلوم الإنسانية فى برامجها الجديدة تمس كيان الأسرة من زوايا كثيرة ، بل إن علوم التربية والأخلاق والاقتصاد والاجتماع ـ قبل علم القانون ـ تتصل بشئون الأسرة .

وقد غضبت نسوة غيورات لما عرف الفقهاء عقد الزواج بأنه «**عقد يبيح حل المتعة بالمرأة**»! وظاهر أن التعريف قاصر على المعنى الكبير للعلاقة بين الزوجين! إنه تناول الجانب الذى يدخل منه القانون ، ولم يتناول الجوانب التى تدخل منها بقية العلوم الإنسانية ، والزواج أكبر من أن يكون عقد ارتفاق بجسد امرأة . . ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴾[1] .

قالت لى امرأة غاضبة : «**إذا غضب منى زوجى فى حوار ، قد أكون فيه صاحبة حق حرمت رضوان الله ، ولعنتنى الملائكة . . .و . . .و . . .**» فقاطعتها على عجل ، وأفهمتها أن الحديث الوارد فى شأن آخر بعيد بعيد عما تتوهمين . . الحديث ورد فى امرأة تعرض زوجها للفتنة لأنها تمنعه نفسها ، وهو لا يستغنى عنها . . ذاك هو المراد!!

إن الإسلام يقوم على حقائق الفطرة والعقل ؛ لأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها .

(١) النحل : ٧٢ .

لِمَ نتعصب لما نألف...؟!!

طرق بابى رجل مذعور يتحدث حديثًا موتورًا فى أهله وماله ، وأحسست أنه يطلب منى النجدة! قلت له فى هدوء : ما بك؟ قال : فى ساعة غضب فقدت وعيى وقلت لامرأتى أنت علىَّ حرام . . وأفتانى بعض الشيوخ بأنى قد فقدتها فلا تحل لى أبدًا . .

قلت للرجل : أتصلى الخمس؟ قال : نعم ، قلت : وامرأتك؟ فتردد قليلاً ، ثم قال : تصلى أحيانًا! قلت : وأولادك؟ قال : بعضهم يصلى وبعضهم لا يهتم بالصلاة!

فتريثت طويلاً كأنى أبحث له عن حل ثم قلت له ترد زوجتك إليك على شرط! قال : ما هو؟ قلت : تحافظ أنت وزوجتك على الصلوات ، وتراقب علاقة أولادك بالمسجد حتى تطمئن إلى أنهم يؤدون الفرائض الخمس ، وعليك كفارة يمين ، تطعم عشرة مساكين إن كنت غنيًا ، أو تصوم ثلاثة أيام إن كنت فقيرًا . . واستبق زوجتك فى بيتك!

وخرج الرجل ، وبعد أيام جاءنى الذين أفتوه بأن امرأته طلقت طلاقًا بائنًا ، سألونى كيف أفتيت بحل هذه الزوجة؟ إننا هنا مالكية نعد ما وقع بينونة كبرى؟ قلت : مذهبى غير ذلك ، وأنا أرى بأن تحريم الحلال يمين وكفارته كفارة يمين ، وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : إذا حرم الرجل امرأته فهى يمين يكفرها ، وفى رواية أخرى أن رجلاً جاءه وقال له إنى جعلت امرأتى علىَّ حرامًا ، فقال له ابن عباس : كذبت ، ليست عليك بحرام! ثم تلا قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ**﴾[1] . عليك كفارة يمين!! ويبدو أن كلامى لم يقنع سامعيه فقلت لهم لماذا تتحمسون لخراب بيت ، وجعل المرأة أيمًا والأولاد يتامى وأبوهم حى؟ إن المذاهب تختلف فى فروع الفقه ، وفى الأحكام التى تصدرها على أعمال الناس ، وعلينا أن نختار الأرعى لمصلحة الأسرة ومستقبل الأولاد واستقرار المجتمع ، علينا أن نحصن الإسلام من تهم الأعداء وأحقاد المتربصين!!

---

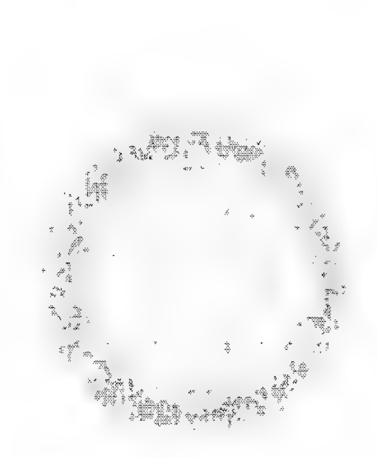
(١) التحريم : ١ ، ٢ .

ومادام هناك رأى إسلامى محترم ، فلا ينبغى أن نتعصب لما نألف! إذا كان ما نجهله خيرًا وأجدى على الناس .

قال لى رجل مريب : كأنك لا تحب مالكًا ومذهبه! قلت : أعوذ بالله من كراهية الصالحين .

لكنى أكره التعصب الأعمى ، وفيما يتعلق بشئون الأسرة وأحوال المجتمع أوثر كل رأى يحقق المنفعة العامة والخاصة ، ويوائم ما تصبو إليه الإنسانية المعاصرة من احترام للفطرة وتقدير لقيمة الإنسان المسلم . .

إننى لست مغرمًا بجر الشبهات إلى سمعة الإسلام .



التعصب للحق

لست أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم ، فإذا الذئب المفترس لايستكثر عليه أن يعقر ويغتال . . . إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنياب الجائعة ومع ذلك فهم مسترسلون فى طيبتهم وتهاونهم!!! إن فى العالم الآن طوفانًا نجسًا من التعصب ضد الإسلام وأمته . . ألا نتعلم التعصب للشرف والعرض والأرض فى هذه الظروف العصيبة؟

التعصب وصف ردىء عندما يكون معناه جمود الفكر ، وانحصار الأفق ، والتشبث بالهوى ، والجنوح إلى الباطل مهما بدا عواره .

ونحن نرفض هذا الوصف ونأباه على أنفسنا وقومنا .

ولكن عندما يكون التعصب أثرًا لاحتدام الحق ، وإكبار أهله ، ودعم جانبهم ، وكره عدوهم ، فإن التعصب هنا يرادف الإيمان والجهاد ، ولايتخلى عنه امرؤ ذو دين!!

وفى العالم اليوم :

* حقائق رخصها الضعف .

* وحقوق هضمها البغى .

* وقوى شرسة استمرأت العدوان .

* ومسلمون طمع فيهم من لايدفع عن نفسه ، حتى كأن البغات بأرضنا يستنسر!

أفلا يوقظنا مرأى هذه الصور الكريهة إلى أن نعرف من نحن؟ وماذا نحمل من رسالات الله؟ وماذا نستطيع أن نسديه لأنفسنا وللعالم أجمع لو غالينا بديننا وتاريخنا ، وشققنا الطريق إلى المستقبل على سناه الهادى؟؟

وعندما أقرأ سورة «الممتحنة» يحيا فى نفسى معنى التعصب للحقيقة ، والدفاع عنها ، والوقوف إلى جانبها على رقة الحال ، وكآبة المنظر فى الأهل والمال!!

إنه ليس من الشرف أن أجامل من يهين الحق ، وليس من صدق اليقين أن أمالئه وأترضاه .

وقد نزلت سورة «الممتحنة» لتلقن المؤمنين هذا الدرس حتى يبقى حيًا فى نفوسهم إلى يوم الدين ، فقال جل شأنه :

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تتَّخذُوا عَدُوِّي وعدُوَّكُمْ أولياء تُلْقُون إليهم بالمودَّة وقد كفرُوا بمَا جاءكُم مِّنَ الْحقِّ.. ﴾[1] .

عيب واضح أن أصادق عدو الله وعدوى ، وأن أبسط يدى ولسانى له بالسلام ، وهو يزدرى ما عندى ، ولا يتوانى!! ومن هنا عللت السورة النهى من المصافات ، فقالت بعد إثبات كفرهم :

﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُول وَإِيَّاكُمْ... ﴾[2] .

لماذا؟ ﴿ ... أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّه رَبِّكُمْ ﴾[3] .

ثم اطرد السياق القرآنى يقول :

﴿ إن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي.. ﴾[4] .

أي فلا تسلكوا هذا المسلك ، وتطووا قلوبكم على حب من طردكم وأهانكم!!

كيف تفعلون هذا؟

﴿ ..تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾[5]؟؟

والتعبير «بأنا» فى هذا الموضع يفرض علينا أن نتوقف قليلا لنتدبره فقوله جل شأنه :

﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾[6] فيه معنى التحذير من الرقيب الخبير .

وهذا المعنى صرحت به سورة أخرى فى مثل هذه القضية قال تعالى :

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ.. ﴾[7]!!

والغريب أن هذا التحذير يتكرر فى الموضع نفسه ، مؤكدًا علم الله بما نخفى وما نعلن ، حتى لا نتورط فى مسالة عدو يبتغى إبادتنا ، أو الوقوف منه موقفًا بعيدًا عن الصرامة والمفاصلة ، فقال جل شأنه :

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) سورة الممتحنة : ١ .

(٦) سورة الممتحنة : ١   (٧) سورة آل عمران : ٢٨ .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ .. ﴾[1]!!

تحذير يتكرر مرتين بعبارة رهيبة هى : ﴿ ... وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ إنها هناك توضيح لقوله هنا :

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[2] .

هكذا بدأت سورة «الممتحنة» تعلمنا ضرورة التعصب للحق ، والتمسك بأهدابه ، وكراهية المعتدين عليه ، والنفور من مودتهم .

وإذا كان هذا المعنى الحاسم قد تصدرها : فإنه قد تمشى فى آياتها على صور متفاوتة ، ثم كان لها الختام المبين فقال جل شأنه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾[3] .

إن الأحياء من الكفار قد قنطوا من عودة إخوانهم الذين ماتوا إلى الحياة مرة أخرى ، أو أن الموتى من الكفار قد يئسوا من الحصول على مكانة عند الله فى الدار الآخرة .

سواء كان هذا المعنى أو ذاك فإن المؤمنين لايليق أن يصادقوا قوما تلك حالتهم!!

ولنلق على السورة من بدئها إلى ختمها نظرة جامعة نتعرف بها أسباب النزول كما ذكرها المفسرون والمؤرخون .

لقد استغرق نزول هذه السورة ـ على وجازتها ـ قريبًا من عامين ، وصدرها نزل فى السنة «الثامنة» عندما قررت الكتائب المؤمنة أن تجهز على الوثنية المتحكمة فى مكة ، وأن تعيد إلى دائرة التوحيد هذا المعقل الأشم .

ووسط السورة نزل فى السنة «السادسة» بعد ماتم «عهد الحديبية» بين المسلمين وأهل مكة ، وبدأ التنفيذ وظهرت بعض المشكلات .

---

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) الممتحنة : ١ .

(٣) الممتحنة : ١٣ .

وآخر السورة نزل بعد الفتح الكبير ، وإقبال أهل مكة رجالاً ونساء على مبايعة الرسول ﷺ والالتزام بتعاليم الإسلام .

ومع الاختلاف الزمنى الملحوظ فى نزول الآيات فإن ترتيبها لم يفقد ذرة من الاتساق والتماسك . بل هو نسق من الإعجاز السارى فى أسلوب القرآن الكريم كله .

وأشعر بأن القرآن فى علم الله القديم كان على هذا الترتيب الذى نحفظه ، وإن الآيات كانت تنزل وفق الأحداث ، ثم يأمر الرسول بوضعها فى مكانها بتوقيف إلهى ، فتعود إلى وضعها الأزلى على النحو الذى يقرأ الآن[1] .

والمحور الذى دارت عليه السورة كلها ، هو الحب والبغض فى الله ، وهو قاسم مشترك بين أجزاء السورة منذ بدأ النزول ، ولذلك فإن وحدة الموضوع ظاهرة شائعة فيها ففى أوائل السورة نقرأ كيف رفض القرآن الكريم ماوقع من «حاطب بن أبى بلتعة» الذى راسل أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للسير نحوهم ، كى يأخذوا أهبتهم!! وهو عمل شنيع ، ولولا أن رسول الله ﷺ عفا عن الرجل تقديرًا لسابقته فى خدمة الإسلام لكان جزاؤه القتل .

وهنا نرى الوحى ـ بعد استنكار التصرف السابق ـ يقول للمؤمنين :

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] .

أى لايجوز أن يخفف شىء ما من حدة الخصام للكفر وشيعته ، ولو كان الحرص على الرقابة والولد والمال فإن جانب الله أولى بالرعاية .

والمثل الأعلى أن يقول المؤمنون لأعدائهم :

﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾[3] .

وهذه مصارحة بالقطيعة فى سبيل الله ، ومعالجته بالحب لله والبغض لله . وليس أمام المؤمنين إلا هذا السلوك .

---

(١) هذا مايدين به جماهير المسلمين من السلف والخلف .

(٢) الممتحنة : ٣ . (٣) الممتحنة : ٤ .

وقد كان إبراهيم والمؤمنون معه على هذا الغرار ، وإذا كان إبراهيم قد لاين أباه يومًا وقال له :

﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] .

فذلك اللين ليس مهادنة للضلال ، ولا ضعفًا فى الإحساس بحق الله «كلا» :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . . ﴾[2] .

وهكذا انقطعت أغلى الصلات إيثارًا لحق الله .

إن حق الله على عبده لا يرجحه شيء فى الأولين ولا فى الآخرين ، والاستهانة به ضلال مبين .

هل هذا التهجم الشديد ضد الضلال والضالين يرجع إلى غلظة طبع أو شراسة خلق! لا . . لا . .

إننا فى شوق ، إلى سيادة السلام ، وامتداد عواطف الحب إلى كل قلب ، والأمر بيننا وبين خصومنا واضح مستقيم ، فمن حاسننا حاسناه ، وكنا أسرع إليه بالود والرحمة .

ولكن كيف نلين مع من استباح كرامتنا؟ ونشد إساءتنا وإهانتنا ، وأخرجنا من ديارنا وأموالنا! إن مصادقة من يفعل ذلك بنا نذالة ، وخسة لايهبط إليها مؤمن!! قال تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[3] .

والظلم هنا الهوان ، قبول الدنية ، والاستكانة إلى الضيم ، والرضا بحياة الفسوق والمروق ، والعيش فى كنف الفاسقين المارقين .

هذا صدر السورة الذى استغرق نصفها ، ونزل فى السنة «الثامنة» .

---

(١) الممتحنة : ٤ . (٢) التوبة : ١١٥ . (٣) الممتحنة : ٩ .

أما وسطها الذى نزل من قبل ، فهو يعود بنا إلى نص فى معاهدة الحديبية يقضى بأن يرد المسلمون عن المدينة من لحق بهم مؤمنًا من أهل مكة ، وإن كان أهل مكة يقبلون من لحق بهم مرتدًا . .!!

ومع أن الأيام أثبتت جدوى هذا النص على المؤمنين إلا أن القرآن الكريم استثنى النساء ابتداء من تطبيقه وأمر المؤمنين أن يمتحنوا المؤمنات الفارات بدينهن فإذا علموا منهن صدق الاعتقاد وشرف الغاية قبلوهن فى المجتمع الإسلامى فورًا .

إن هؤلاء النسوة المهاجرات التاركات لأزواج كافرين يجب أن نرحب بهن وأن نقدم تحية إكبار للعاطفة التى خرجت بهن إلى دار الإيمان . لقد كرهن رجالهن وفارقنهم لله فلا ينبغى أن يعدن لهم قال تعالى :

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[1] .

وإتماما لإقامة المجتمع على احترام الدين ، وإعزاز مشاعر الحب والبغض لله صدر الأمر بتسريح الزوجات الكافرات : **﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾**[2] .

إن قبول هؤلاء النساء المؤمنات ومفارقة الكافرات تشريع متكامل وحكمته واضحة وقد نفذت معاهدة الحديبية بالنسبة إلى الرجال الذين مالبثوا أن نظموا حرب العصابات ضد أهل مكة حتى اضطروهم إلى أن يطلبوا من الرسول قبولهم فى المدينة!!

ونصل إلى آخر السورة لنقرأ بيعة النساء ، كان ذلك بعد فتح مكة واستسلام أهلها لكتائب الرحمن .

إن أولئك الناس طالما آذوا الله ورسوله ، وها هى ذى هند المرأة التى أكلت كبد حمزة قد أعلنت دخولها فى الإسلام ، فماذا نصنع معها!

لاشىء!! ننسى الماضى ، ونغفر الأخطاء ونعلمها وصاحباتها كيف تتأدبن بآداب الإسلام ، ثم يصبحن بعد أخواتنا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

(١ ، ٢) الممتحنة : ١٠ .   (٣) الممتحنة : ١٢ .

نعم . إن الله غفور رحيم ، فلننس الماضى ولنتحاب فى الله .

لقد كان القرآن فى هذه السورة يرقب متاب هؤلاء وعودتهن إلى الصواب وإقلاعهن عن إيلام المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

والمودة المرتقبة إنما تقع من أناس يخف ضغط التعصب على قلوبهم ورءوسهم ، ويجوز أن تنقشع غيوم الغفلة عن آفاقهم وضمائرهم .

فإن المرء قد يخطئ لملابسات معينة أحاطت به ، وربما ظل على خطئه لأن هذه الملابسات بقيت فى مكانها ، لم تجد من يزيلها أو ينتقصها .

لكن ما الموقف إذا تشبث الإنسان بالزلل وهو يدعى إلى الاستقامة؟

أو أصر على الخطأ وهو يرى وجه الحق وضيئًا مشرقًا؟

إن هذا الإنسان أجدر خلق الله بالمقت وأولاهم بالعقاب الآجل والعاجل . . . وإنك لترى الوحى الإلهى طافحًا بالوعيد وهو يتناول أولئك الجاحدين من صرعى التعصب الأعمى .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[2] .

ولنلفت النظر إلي أن الغفلة هنا ليست قصور عقل عن المعرفة الغائبة ، ولكنها بلادة قلب عن استيعاب المعرفة المبذولة ، والنصح القريب!

وهذا هو التعصب الذى يأباه على نفسه كل عاقل أو منصف .

والقرآن فى آيات كثيرة يلمح إلى هذا المعنى وإن لم يذكر التعصب بلفظه ، فإذا قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

فإن المقصود أناس طال نصحهم وطالت لجاجتهم ، طال تعليمهم ، وطال صدودهم . . . وليس المقصود وصف أقوام تعرض عليهم الدعوة لأول مرة .

---

(١) الممتحنة : ٧ . (٢) الأعراف : ١٤٦ . (٣) البقرة : ٦ .

وبديهى أن ينتهى هذا الصدود بما ينتهى به كل جحد وتبجح ، من استمراء للشر واستهانة بالخير واستحلاء للقبيح .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ** ﴾[١] .

وقد صحب التعصب من قديم حيف شديد على أهل الإيمان ، وتطاول على حقوقهم المادية والأدبية ، وتصوير كذوب لأقوالهم وأعمالهم ، وإلحاق للمعايب والمقابح بسيرتهم وتاريخهم وكان نصيب الأمة الإسلامية كبيرًا من هذا التعصب الجائر الآثم .

ولست أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم فإن الذئب المفترس لايستكثر عليه أن يعقر ويغتال .

إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنياب الجائعة ، والطوايا الكنود ، ومع ذلك فهم مسترسلون فى «طيبتهم» وتهاونهم . . فإلى متى؟

إن أرضنا انتقصت من أطرافها شرقًا وغربًا وفق خطة رسمت بأناة وروية . . . ثم بدأت الإغارة علي قلب العالم الإسلامى استكمالاً للإجهاز عليه طولاً وعرضًا ، فهلا عرفنا مايراد بنا؟

إن فى العالم الآن طوفانًا نجسًا من التعصب ضد الإسلام وأمته .

وأمامى وأنا أكتب هذه السطور أنباء الدماء المراقة والأشلاء الممزقة للمسلمين المستضعفين فى الفلبين ، وما قصة الإسلام الذبيح فى الفلبين إلا نموذج مكرر لأقطار أخرى من الأرض أهين فيها الدين واستبيح حماه ، وشرد أهلوه ، وأكلت حقوقهم!!

بل إن المسلمين ـ حيث يكونون كثرة فى بلاد أخرى ـ تجرأ عليهم كل ذى ملة ، وتطلع إلى مالم يكن يحلم به فى يوم من الأيام!!

ألا نتعلم التعصب للشرف والعرض والأرض فى هذه الظروف العصيبة؟

لعلنا . . . لعلنا . . .

فإذا تحقق مانصبو إليه فلله الحمد .

نحن مانسعى إلى قتال ولا نشتاق إلى سفك دم .

لكن إذا فرض علينا القتال فإن الذرة من التهاون فى كراهية المعتدين جريمة . يجب أن ندخل المعركة بكل مالدينا من غضب وقسوة وصرامة .

---

(١) النمل : ٤ ، ٥ .

الموت فاصل خفيف بين الوجودين

من حق كل قوم جاءهم مدَّع للنبوة أن يدرسوا قوله وشخصه ثم يحكموا له أو عليه ؛ ونحن نتساءل ، وماالذى أتى به محمد؟ لقد حدثنا أن الله حق وفصل أدلة وجوده وكماله على نحو لم يسبق إليه ، وأنه واحد ، كل من فى السماوات والأرض مخلوق له مفتقر إليه لا استثناء لملك أو إنس أو جن ، وأن لقاءه حتم لمحاسبة كل مكلف ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝** ﴾[1] .

لماذا أكفر بمحمد؟ لو رأيت أحدًا جاء بأفضل مما جاءنا به لتبعته! وسورة النبأ تقول للمشركين ، هبوا أن دعوة محمد لم تقنعكم أفلا تفكرون فى خلق السماوات والأرض؟ ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾[2] .

نحن الآن فى القرن الخامس عشر الهجرى ونهايات القرن العشرين الميلادى وقد ورثنا رسالات شتى ، ومن حقنا أن نوازن وأن نرجح ، والحق أقول أنى أمام تراث محمد من كتاب وسنة لا أقدم أحدًا ، أو بتعبير أقرب إلى الإنصاف ، أصدقه حين يقول إن رسالته تمثل الوحى القديم والأخير معًا ، وإن ماخلقه هو مزاعم بشر وليس وحيًا سماويًا ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾[3] . أى أننى حين أتبع محمدًا أتبع معه موسى وعيسى ، ونوحًا وإبراهيم . . وهذه السورة تتكون من أربعة فصول متميزة ، **الأول** وصف الكون والناس إلى قوله جل شأنه ، ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا** ﴾[4] . والثانى وصف موجز ليوم الحساب ، ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا** ﴾[5] ، وإكثار القرآن من ذكر القيامة لمقاومة حب العاجلة الذى يغلب على الطباع . والثالث وصف للعقاب الذى ينتظر المجرمين ، ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۝ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴾[6] . والرابع وصف للنعيم الذى ينتظر

---

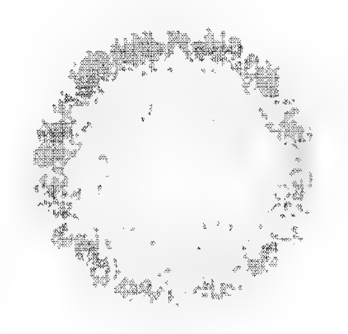
(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ . (٢) النبأ : ٦ ـ ٨ . (٣) فصلت : ٤٣ .
(٤) النبأ : ١٤ ـ ١٦ . (٥) النبأ : ١٧ ـ ١٨ . (٦) النبأ : ٢١ ـ ٢٣ .

المؤمنين الصالحين ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا .. ﴾[١] . إن الجزاء المعنوى حق وستتنضر وجوه المؤمنين وهم مع جماهير الملائكة يسبحون بحمد الله ويهتفون بمجده ، ومن تمام المتعة أن يكون ذلك فى حدائق زاهرة ومع لذات مؤنسات ، وبعد هذا الوصف الشائق يقال لأولى الألباب ، ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾[٢] . فمن تزود بالتقوى أفلح ، ومن عاش مذهولاً هنا وقدم على الله صفر اليدين ندم بعد فوات الأوان ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾[٣] . نقول فى ختام السورة للمتسائلين عن محمد ، ماذا كسب لشخصه من هذا البيان؟ هل عيبه أنه كان حار الأنفاس فى الدعوة إلى الله؟ وأنه كان جلدًا فى مقاومة الفتانين والطغاة؟

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾[٤] الذى أختاره أن الإقسام بالكواكب الدوارة فى الفضاء ، تشق طريقها بغير وقود وتسرع السير بغير توقف وتعرف الطريق بغير جندى مرور ثم يجيئها أجلها مع نهاية العالم فإذا هى تتلاشى! متى؟ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾[٥] فى الزلزال الكبير الذى يفقد كل شىء توازنه وتترادف مزعجاته فإذا القلوب مضطربة والأبصار كسيرة! يقول المشركون عند سماع هذا النذير : ﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾[٦] أراجعون نحن إلى الطريق الذى جئنا منها؟ أعائدون إلى الحياة مرة أخرى؟؟ هكذا يحدثنا الرسول؟ ومتى؟ بعد أن نموت ونبلى ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾[٧] عودة لاخير فيها لأننا ماصدقناها ولا أعددنا لها .. ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾[٨] بساعة الحشر والجزاء ، إن أتباع الفلسفة المادية المعاصرين لايزيدون على مشركى الصحراء الأقدمين عندما يقولون ، إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ومايهلكنا إلا الدهر! فما الموقف إذا رأوا أنفسهم أحياء لم يصبهم

(١) النبأ : ٣١ ـ ٣٣ . (٢) النبأ : ٣٩ . (٣) النبأ : ٤٠ .
(٤) النازعات : ١ ـ ٥ . (٥) النازعات : ٦ ، ٧ . (٦) النازعات : ١٠ .
(٧) النازعات : ١٢ . (٨) النازعات : ١٣ ، ١٤ .

شيء؟ واستتلت الآيات تتحدث عن فرعون وهو من أكابرالمجرمين ، والحق أن الفرعنة مرض عام أساسه بطر الحق وغمط الناس ، وقد يكون فى الحكام والإداريين والفنانين والكناسين . والمرء إذا ذهب بنفسه عاش أنانياً جائرًا لا يحق حقاً ولا يبطل باطلاً ، وجهنم تأخذ حطبها من هؤلاء جميعًا . ويخاطب القرآن البشر : علام الكبر والصد عن سبيل الله ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا** ﴾[(١)] إن الإنسان ـ بالنسبة إلى غيره ـ كائن ضعيف مايجوز له أن يعمى ويطغى ، بل يجب أن يتقى ربه ويتزكى ، وإذا كان قد ملك التصرف فى كائنات أخرى ، فليسخر هذا التفوق فى شكر الله وأداء حقوقه . . وعادت السورة إلى مابدأت به من حديث عن البعث والجزاء ليجعل الإنسان من حياته الأولى مهاداً للحياة الأخرى ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ** ﴾[(٢)] إن الناس يومئذ رجلان : عبد لشهواته يعيش لإشباعها ، وعبد لله يشعر بمقامه ورقابته فلا ينسى حقه ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾[(٣)] ويجمح التطلع والاستخفاف بأصحابها فيتساءلون عن الساعة ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا** ﴾[(٤)] إن علمها عند الله وحده ، وماينفعكم العلم بها إذا لم تستعدوا لها؟ إن الوجود موصول ، والموت فاصل خفيف بين الوجودين الأول والأخير وستعرف قيمة الدنيا يوم اللقاء ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** ﴾[(٥)] .



(١) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ . (٢) النازعات : ٣٤ ـ ٣٦ . (٣) النازعات : ٣٧ ـ ٤١ .
(٤) النازعات : ٤٢ ـ ٤٤ . (٥) النازعات : ٤٦ .

من هم أصحاب الأعراف؟

بدأت سورة الأعراف بحديث مجمل عن قضيتين مهمتين : الأولى : تتصل بالقرآن الكريم ، والثانية : فى المنكرين له والمكذبين جملة بالوحى الإلهى . فى القضية الأولى نزل قوله تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ..** ﴾[١] والحرج المنهى عنه يجىء من سوء استقبال المشركين لمن يريد هدايتهم ، وتزهيدهم فى مواريثهم ، والإنذار إعلام مع تخويف ، والمطلوب من المستمعين عامة أن يتبعوا الكتاب الناصح لهم ، ويهجروا ماعداه من تقاليد لاخير فيها ، مهما كان مصدرها ، فإن الأولياء المتبعين دون الله لن يجيئوا بخير ، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وقد تحدثت السورة بعدئذ عن الكتاب فى جملة مواضع منها قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ..** ﴾[٢] يعنى هل ينتظرون إلا أن يتحقق وعده ووعيده فيظفر المؤمنون بالنصر والثواب ، ويكتوى الكافرون بالهزيمة والعقاب؟ . ومنها قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾[٣] . وهذا على لسان النبى ﷺ ومعناه أن الله يتولى نصره وحفظه حتى يبلغ ما نزل على قلبه ، ويجعل الحياة تستضىء به وتسير بتوجيهه ، ومنها قوله تعالى فى ضرورة تدبر هذا الكتاب والانتفاع بما حوى من علوم ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[٤] فالكتاب ذكرى للمؤمنين وغناء لعقولهم ورحمة تهبط عليهم . .

أما القضية الثانية التى افتتحت بها السورة فهى تدرك من قوله تعالى : ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾[٥] .

---

(١) الأعراف : ٢ ، ٣ . (٢) الأعراف : ٥٢ ، ٥٣ . (٣) الأعراف : ١٩٦ .
(٤) الأعراف : ٢٠٤ . (٥) الأعراف : ٤ ، ٥ .

وهلاك القرى التى تمردت على المرسلين سنة وعاها التاريخ ، وقد فَصَّلت سورة الأعراف ماوقع لعاد وثمود ومدين ، وقوم نوح وقوم لوط .

ويظهر أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء الأولين لعرب الجزيرة شمالاً وجنوبًا . فلما كفر أولئك العرب وآذوا رسلهم دمر الله عليهم وأباد خضراءهم . . ثم آتى موسى الكتاب ليهدى به مصر ، وبنى إسرائيل ، وشرح مواقف الفراعنة واليهود شرحًا واسعًا ، فلما زاغوا عن الصراط ورفضوا هدايات الله أوقع بهم بطشه ثم عاد الوحى الخاتم مرة أخرى إلى وسط الجزيرة .

واستطاع محمد ﷺ بفضل الله أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن يجعل من العرب الذين اهتدوا به أمة وسطًا ، ورثت الوحى إلى قيام الساعة ومازال وحيها مصونًا وكتابها قائمًا ، وسيبقى البشر مابقيت الحياة الدنيا مكلفين بسماع هذا الكتاب والاقتباس منه لأنه وحده الذى يقيهم السيئات .

والمهم أن يقدر العرب رسالتهم ، وأن يعرفوا نسبة الميراث الذى اختصهم الله به عندما قال : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . .** ﴾[1] . وأن يوقنوا بأنهم مساءلون عن موقفهم منه ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** ﴾[2] .

وبين الله سبحانه فى صدر السورة أن الحساب الجامع سوف يبت فى مصير كل إنسان ، ﴿ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾[3] . ولكن هذا البيان الموجز أعقبه بعد قليل تفصيل كاشف عن مصاير الطوائف المختلفة التى اختصمت فى ربها على صعيد الأرض . فهناك أولاً المؤمنون أصحاب الأعراف ثم الكافرون ، وقد جرى حوار بين هؤلاء وأولئك نرى أن نتوقف قليلاً عنده ، إن أهل الجنة يحيون فى عالم من السماحة والحب والسلام ، مشغولون بشىء واحد هو تسبيح الله وتحميده ، وهم يشعرون بما أسدى الله إليهم من نعماء ويقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾[4] .

---

(١) فاطر : ٣٢ - ٣٤ .
(٢) الاعراف : ٦ ، ٧ .
(٣) الأعراف : ٨ ، ٩ .
(٤) الأعراف : ٤٣ .

إنهم ـ بإزاء مارأوا من فضل ـ يجردون أنفسهم من كل استحقاق ، ويشعرون كأن العطاء الأعلى هو الذى سبق بهم وأنالهم تلك المكانة ، وهنا يذكرهم الله بسعيهم القديم وجهدهم المقبول : ﴿ **وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[1] . وعندما يطمئنون إلى أحوالهم يتذكرون خصوم الأمس من الجبابرة والملاحدة فيحبون أن يعرفوا ما لاقوا : ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾[2] .

إن هؤلاء الظلمة كانوا ينكرون البعث والجزاء وكانوا يبطشون بالمستضعفين من المؤمنين وكانوا يشوهون معالم الحق ويغلقون طرقه ، فهاهم أولاء يجدون مصيرهم العدل . . واختصت هذه السورة بذكر أصحاب الأعراف ، ومنهم أخذت اسمها . والشائع بين المفسرين أن هؤلاء قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فانتظروا حتى يبت فى أمرهم! وأرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء الذين بلغوا رسالات الأنبياء وقادوا الأمم إلى الخير فإن الأعراف هى القمم الرفيعة ، ومنها سمى عرف الديك عرفًا . . وهم فى الآخرة يرقبون الجماهير والرؤساء فى ساحة الحساب ، ويلقون بالتحية أهل الجنة وبالشماتة أهل النار ، وحديث القرآن الكريم يرجح هذا الفهم ؛ فهم يتكلمون بثقة ويوبخون المذنبين على مااقترفوا ويستعيذون بالله من مصيرهم . . ومن المستبعد أن يكون ذلك موقف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم لا يدرون أين يذهب بهم؟

وهناك نداء آخر من أهل النار وهم يرسلون صراخ النجدة ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . . .** ﴾[3] وهيهات فلن يجيرهم من الله أحد!! لقد كفروا بالله وجحدوا لقاءه ولم يخطر ببالهم هذا اليوم ولا استعدوا له بشىء فمن أين تأتيهم النجدة؟

وهنا نذكر أن معانى القرآن متداخلة متضافرة تلتقى كلها فى سياق واحد يعمل عملاً فى النفس ، وليست هدايات القرآن فصولاً مقسمة على نحو متميز! وهكذا العالم تراه مصدرًا لأشتات العلوم وهو كيان واحد يستقى منه علماء الأحياء وعلماء طبقات الأرض وعلماء الفلك وعلماء القوى المحركة . . . إلخ .

---

(١) الأعراف : ٤٣ . (٢) الأعراف : ٤٤ . (٣) الأعراف : ٥٠ .

الذى يستحيل أن يعاب

فكرة إله مزدوج أو مثلث لم ينزل بها وحى ، ولم يتمخض عنها فكر ، أنا وأنت وعالمنا كله وليد إرادة عليا واحدة ؛ اتجهت إلى تكويننا ، وقدرة عليا واحدة أبرزتنا من العدم إلى الحياة ، ليست هناك قدرتان ، ولا إرادتان ، ولا ألوهيتان ، إنما الله إله واحد .

وقد يغتفر الله كثيرًا من الأخطاء العقلية والخلقية ولكنه لايغتفر الإساءة إلى ذاته ، بمزاعم التعدد والإشراك . . لقد قرر ربنا أن الملكوت له والجبروت له ، وأن ماعداه عبد له . يستوى فى ذلك كله سكان الأرض والسماء ، وصدر هذا التحدى الإلهى فى الوحى الخاتم مقتحمًا كل زعم بأن هناك إلهًا آخر ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[١] .

فمن الذى تعرض لهذا التحدى بالإنكار والمواجهة؟ لا أحد ، بل قال القرآن مزدريًا الآلهة الأخرى المزعومة : ﴿ . . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[٢] .

فبم ردت هذه الآلهة؟ لم يسمع رد لأنها ليس لها وجود . ومس التحدى شخص عيسى نفسه : ﴿ . . قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا . . ﴾[٣] .

ولم يقع تمرد فى الكون تحركت له لجج الماء أو تيارات الهواء أو موجات الكهرباء غضبًا أو احتجاجًا على هذا القول ، لأن هذه الكائنات- كشخص عيسى نفسه- عبيد تسجد أشخاصها وظلالها للرب الأعلى . . إنه لا إله إلا الله ، وكل ما عدا الله من إنس وجن وملك ، خلقهم الله من الصفر! ما كانوا شيئًا حتى شاء؟ وما استحق أحد منهم ثناء إلا بما أفاض الله عليه من آلاء . وهو وحده يرفع ويضع ، ويعطى ويمنع ، ليس لأمين الوحى جبريل ، ولا لبعوضة فى مستنقع إلا استقبال القضاء الأعلى برهبة العبد الموفق : ﴿ . . حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٤] .

---

(١) مريم : ٩٣- ٩٥ . (٢) الحج : ٧٣ . (٣) المائدة : ١٧ . (٤) سبأ : ٢٣ .

وستتوقف مواكب العمران على ظهر هذه الأرض ، ثم تبدأ رحلة العودة إلى الحسيب الرقيب ، وستدعى الأمم والأفراد للمساءلة عن الشائعات التى صدقتها وتبعتها!

ولعل أوسع شائعة يشتد الحساب عليها ألوهية عيسى التى تألفت حولها شعوب ، وتضخمت خرافات ورسمت كهانات . .

وقد عجل القرآن الكريم بذكر موقف من مشاهد البعث والجزاء لعله يفيد فى ترشيد دنيانا الحائرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١] .

ومن النقائض الجديرة بالتأمل أن النصارى ينتظرون نزول عيسى ليرث الأرض ويجلس على العرش عن يمين أبيه ، وأن المسلمين ينتظرون عيسى ليكذب بنفسه شائعة ألوهيته ، ويكسر الصليب ، ويأبى إلا توحيد الله تبارك اسمه .

فلينتظر المنتظرون! أما أنا وغيرى من أولى الألباب فنرنو ببصائرنا إلى الفرد الصمد الذى يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ويهيمن على جماهير البشر ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا . . ﴾[٢] .

القدوس الذى يستحيل أن يعاب أو يلحقه نقص أو يخرج من بطن أو تمسه محاقر التصورات المادية الهابطة ، الذى خضع كل شىء لمجده ، وعنا لوجهه ، واستكان لأمره ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[٣] .

ونرجع إلى موضوع بحثنا : كيف نميز الصواب والخطأ فى هذا الكتاب الذى استغرق تأليفه ستة عشر قرنًا كما يروى «جوش مكدويل»؟!!

---

(١) المائدة : ١١٦ . (٢) هود : ٥٦ . (٣) الأنعام : ١٦٤ .

للشيخ أحمد ديدات إجابة ننقلها ، ثم نذكر رأينا فيها . . قال : «لا نتردد نحن ــ المسلمين ــ فى التسليم بوجود ثلاثة أنواع من الشواهد فى الكتاب المقدس ، وهى شىء لايحتاج إلى تدريب سابق :

١ ـ تستطيع أن ترى فى الكتاب المقدس مايمكن وصفه بأنه كلام الرب .

٢ ــ كما تستطيع أن تتبين مايمكن وصفه بأنه كلام نبى الرب .

٣ ــ وماهو واضح أكثر ، هو ماتتكون منه معظم محتويات الكتاب المقدس من تقارير لشهود عيان أو غيرهم ممن كتبوا ماكانوا يسمعون عنه ، وهو مانستطيع أن نسميه : كلام المؤرخ .

ولا تتعب نفسك بالبحث عن بعض الأمثلة لهذه الأنواع الثلاثة فى الكتاب المقدس ، فإليك السطور الآتية التى ستوضح لك ماأعنيه بالضبط :

النوع الأول:

(أ) «أقيم لهم نبيّاً . . وألقى كلامى فى فيه . . فيخاطبهم بجميع ماآمره به» (سفر تثنية الاشتراع ١٨/١٨) .

(ب) «أنا أنا الرب ولا مخلص غيرى» (نبوءة أشعيا ٤٣ ، ١١) .

(جـ) «توجهوا إلى فأخلصوا ياجميع أقاصى الأرض فإنى أنا الله وليس آخر» (نبوءة أشعيا ٤٥ ، ٢٢) .

لاحظوا ضمير المتكلم فى الجمل السابقة ، وبدون أى صعوبة ستلاحظون أنها تبدو ككلام الرب .

النوع الثانى:

(أ) « . . صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً : إيلى إيلى لم سبقتنى؟ أى إلهى إلهى لماذا تركتنى؟» (إنجيل متى ٢٧ ، ٤٦) .

(ب) «أجابه يسوع : إن الوصايا كلها ، اسمع ياإسرائيل ، إن الرب إلهنا رب واحد» (مرقس ١٢ ، ٢٩) .

(جـ) «فقال له يسوع : لماذا تدعونى صالحًا ، إنه لاصالح إلا الله وحده» (مرقس ١٠ ، ١٨) .

حتى الطفل يستطيع أن يؤكد هنا أن : «صرخ يسوع» «أجابه يسوع» «فقال له يسوع» ، هى كلمات تنسب إلى صاحبها وهو رسول الرب .

النوع الثالث:

«فنظر عن بعد شجرة تين ذات ورق ، فدنا إليها ، لعله يجد عليها شيئًا من ثمر ، فلما دنا عيسى لم يجد إلا ورقًا . .» (مرقس ١١ ، ١٣) .

ومعظم الكتاب المقدس يتكون من هذا النوع الثالث ، وهى كلمات شخص ثالث ، فإذا لاحظت الضمائر الواضحة تجد أنها ليست من كلام الرب أو نبيه بل كلمات مؤرخ .

وهذا ضابط لابأس به ، ولكنه كما يقول علماء المنطق : ليس جامعًا ولا مانعًا!! فقد رأينا كلامًا يصدر عن الله يستحيل صدوره عنه ، مثل ما أوردناه فى صدر هذا الكتاب أن الله خشى أن يأكل آدم من شجرة الحياة فيخلد معه ، ومن ثم طرده من الجنة!

إن الله لايخشى شيئًا ، والخلود لايجىء من أكل شجرة معينة ، والكلام كله تصوير مختلق لمعنى باطل .

وقد رأيت كيف أجرى يوحنا كلامًا على لسان عيسى أنه والإله من أصل واحد!! مع ماورد فى الأناجيل الأخرى من أن الله واحد ، وهو وحده الصالح ، وما عداه دونه . .

أما تعليقات المؤرخين ، ومايشبهها من حشود فهذا ركام كثيف . .

والضابط الأمثل هو النظر فى الكتاب كله على قاعدة أن مالا يليق بذات الله ولا بأنبيائه مرفوض .

إن الله أهل الكمال كله ، فكل ذرة من نقص تنسب إليه تتدحرج من تلقاء نفسها إلى النفايات المستبعدة ، كما أن أنبياءه يستحيل اختيارهم من بيئة ساقطة المروءة خسيسة المعدن ، ومن ثم فوصمهم بالخنا أو الغدر لا مكان لقبوله . .

وهناك أسفار تنفست فيها الغريزة الجنسية ، لا ندرى كيف وضعت فى كتاب دين!! مثل نشيد الإنشاد لسليمان ، ودعك من الرؤى الهائمة التى لاتوصف إلا بأنها أضغاث أحلام . .!

الأسلوب الأمثل فى العلاقة بين الرجال والنساء

استطاعت آثام ومثالب من أعمال أهل الكتاب الأولين أن تتسلل إلى المجتمع الإسلامى وأن تعكر صفاءه وتلوى مساره! بعضها فى الروابط المقررة بين الرجال والنساء ، بل فى سلوك المرأة نفسها وميلها إلى التبرج! والتبرج شىء غير التجمل ، فالتجمل صون الجسد واستبقاء محاسنه الطبيعية واستبعاد مايشينها أو يشوهها ، وذاك لاحرج فيه بل هو مطلوب .

أما التبرج فهو الإثارة المتعمدة بإضافات مفتعلة للفت الأنظار واستفزاز الرغبات ، وهذا مرفوض ، ويزداد الرفض عندما تكون المرأة خارجة للصلاة فإنها بذلك التبرج تفسد جو العبادة وماينبغى له من طهر وتجرد ، إن المساجد ليست معارض للفتنة ولا ميدان سباق بين الجميلات ، ويجب إعادة المرأة المتبرجة إلى بيتها .

وقد فعلت نساء بنى إسرائيل هذا المحظور قديمًا ، وحذر الإسلام منه حديثًا ، وشدد أن يخرج النساء إلى المساجد تفلات ، أى ليس فى هيأتهم تبرج ولا إثارة .

إن الإسلام حريص على طهر العلاقات بين الرجال والنساء فى الأسواق والمجامع والبيوت والشوارع ، ومن حقه أن يطمئن إلى سلامة النيات وبراءة الملتقيات ، ومن حقه تحصين المعاملات من دسائس الغرائز الجنسية ، حتى لاتجد متنفسها إلا فى بيوت الزوجية .

وبعض الرجال طلعة! يحب أن يتجاوز ما لديه إلى غيره ، وأن يستكشف من فنون الجمال مايزيد رغبته حدة! ومن ثم يلجأ إلى التطلع والتلصص فما يزيده ذلك إلا جماحًا وهبوطًا ، ويعجبنى قول الشاعر :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظر!

رأيت الذى لاكله أنت قادر ... عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر!

إن غض البصر أدب رفيع ، وحصانة من الانزلاق إلى مهاوى الرذيلة ، وعلى المجتمع كله أن يتذكر حدود الله ، وأن يحرسها بذكاء وتلطف ، وأن يضع نصب عينيه تيسير الزواج . فإذا مهد الطريق إليه انتصب ماردًا جبارًا يحمى البيوت ويحفظ الأسر الناشئة ، يوفر لها كل أسباب الازدهار .

والعرب يسمون الزوجة حرمًا ، وهى تسمية تشير إلى أن للعرض قداسة وأن صونه واجب قد تسترخص فيه الدماء .

إلا أن كلمة حريم نقلت إلينا عنوانًا على موضوع آخر ، موضوع رجل مقتدر واسع الجاه ، جمع حوله عددًا قل أو كثر من النساء ، وعاش يتقلب بينهن فى حياة حالمة باسمة ، فإذا حاول أحد الاقتراب من سياج هذا الحريم الغريب فالويل له ، وربما فقد حياته .

وعندى أن بنى إسرائيل أول من رسم صورة هذه المهزلة ، فقد زعموا فى العهد القديم أن سليمان كانت له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة جارية ، أى أنه جمع فى قصوره ألف امرأة .

وهذه القصص وأشباهها من نسيج الخيال ، ألفها وضاعون يغلب عليهم الشبق!

وهنا وقفة نذكر فيها الحق فى شأن النساء المسميات بالجوارى ، إنهن حرائر مختطفات فى أغلب الأحوال .

وفى التاريخ البشرى سنوات طويلة كالحة كانت العصابات المسلحة تغير على المدن والقرى وتقهر الفتيات المستضعفات على الهرب معها ، ثم تبيعهن فى أسواق النخاسة أو تستمتع بهن ، وكان يقع ذلك بين العرب فى الجاهلية ، وربما وقعت فى الأسر أو حبائل القناصين نساءهن فى الذروة من الشرف والكرامة .

أغار عروة بن الورد على قبيلة غفار ـ وعروة من صعاليك العرب الشجعان الأجواد! ـ وأسر فتاة اسمها سلمى ، وتزوجها واستولدها وكانت المرأة تحيا معه شاعرة بالغضاضة والمذلة ، فلما تاحت لها فرصة الفرار عادت إلى قبيلتها ، وعاشت بين أهلها .

ولحق بها عروة الذى أحبها وكرمها يطلب منها أن تعود لأولادها فقالت له هذه العبارات الناضحة بالشرف والإباء وعزة النفس : «ياعروة إنى أقول فيك ـ وإن فارقتك ـ الحق . . والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفًا ، وأقل فحشًا ، وأجود يدًا ، وأحمى لحقيقة . لكن مامر علىَّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك . . طالما سمعت المرأة من قومك تتحدث عنى فتقول : قالت جارية عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر فى وجه إحداهن بعد اليوم ـ من كرهها للعبودية ـ ارجع راشدًا إلى ولدك وأحسن إليهم» .

أهذه أمة من الإماء؟ فما تكون الحرائر الشريفات؟ لكن الحياة قست على رجال شرفاء فبيعوا مماليك ، وقست على نساء كريمات فتداولتهن الأيدى فى الأسواق ثم احتبسن وراء أسوار الحريم .

وفى هذا العصر وجد طور آخر للنزوات والشهوات ، فالرجل السكران الغريزة يستطيع الاتصال بألف امرأة إذا شاء ، لم يجمعن له كما كان يصنع قديمًا ، بل يطير وراءهن فى أماكن البغاء أو فى زوايا الشوارع أو فى ساحات المراقص أو فى أحفال المجون ومباذل الحضارة الميسرة هنا وهناك ، وإنه لمن المحزن أن تتردى البشرية فى هذه الهاوية . .

والأسلوب الأمثل فى العلاقة بين الرجال والنساء هو الزواج الذى يضم سكينة الروح إلى متعة الجسد ، وتجاوب الفكر إلى جيشان العاطفة . . والذى يضم قبل ذلك وبعده المهاد الطهور لما ينشأ من أجيال . وقد تحدث الإسلام طويلاً عن الأسرة ، ولكن الحديث شابه فهم سيئ وتطبيق أسوأ ، ولست أكترث لحديث الأوروبيين التافه عن التعدد ، فالقوم يعددون فى الحرام ما لا يحصر ، ويشغبون على الأديان كلها ، وهى تبيح تعددًا له ملابساته ودواعيه . .

وأحسب أنه عندما يحسن المسلمون تطبيق ما لديهم فإن نموذجًا معجبًا للعلاقات الإنسانية سوف ينال الرضا ويسارع الآخرون إلى تقليده أو الاقتباس منه .

كن مع أهدى الفريقين

من لطائف التعبير أن يُذكر بنو آدم فى أول سورة الأعراف والمقصود أبوهم ، وأن يذكر آدم نفسه فى آخر السورة ويقصد بنوه! فى أول السورة يقول تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ . .** ﴾ وفى آخر السورة يقول الله جل شأنه فى خطأ البشر وشركهم واعوجاج سيرهم : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . .** ﴾ ثم يقول : ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ وظاهر أن الذين اقترفوا جريمة الإشراك هم أبناء آدم الذين اضطربت بهم عقولهم فزاغوا . .!! والنظم القرآنى أولاً وأخيرًا يعنى البشرية جمعاء ، ويذكر رسالة الإنسان التى كلف بها ولم يحسن أداءها . .

والإنسان مع الشيطان ليس مغلوبًا على أمره ، وإنما هو مخدوع كبير أو مستغفل غرير! إن الشيطان يملك جهاز إذاعة طويلة الأمواج أو قصيرتها ، والإنسان يستطيع أن يسمع وألا يسمع ، فمن ضبط جهاز استقباله على محطة إرسال معينة سمع مايريد ، وإلا فهو بمنجاة ، ولا يملك الشيطان إلا قدرة البث ولا يقدر أبدًا على تضليل إنسان بقوته!! والغريب أن الإنسان نسى ما وقع لأبيه عندما طرد من الجنة ، ولا يبالى أن تتكرر المأساة لاسيما والشيطان قد أقسم على إذلال أبناء آدم جميعًا ﴿ **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ أما كان ينبغى أن نحذر هذا الحقد المبين؟؟

والأغرب أن تجىء خدعة آدم من حيلة مكشوفة لا تنطلى على ذكى يقظ! لقد قال إبليس : إنك منعت من الشجرة حتى لاتكون ملكًا!! وكان آدم قادرًا على أن يقول له : إن الملائكة سجدت لى فكيف أهبط عن مكانتى؟ إن ما أنا فيه أفضل!! وأطمع إبليس آدم فى الخلود إذا أكل من الشجرة!! ومن قال : إن آدم وبنيه ليسوا من الخالدين؟ حتى لو ماتوا ، فالموت نقلة إلى حياة أقوى وأكبر!! إن الشيطان

أفاك خداع ، واللوم لا يوجه إليه ، وإنما يوجه إلى من يخدع به . . ومن وقع فى مصيدته بهذا الشرك المكشوف . .!!

وفقد آدم ماكان فيه من النعيم ، وهبط هو وزوجته إلى الأرض ليأكلوا بكدّ اليمين وعرق الجبين!! وتعرضت ذراريهم للتجربة الأولى والخدعة القديمة ، ترى هل يعتبرون؟ ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى وقت محدود وعمر معدود ثم ترجعون إلى الخالق الكبير ليسألكم عن حالكم فى هذه الفترة أكنتم عبيدًا له أم عبيدًا للشيطان؟؟

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ .

وبعد هذا السرد لقصة آدم اتجه الحديث إلى أولاده على مر العصور ، فنودوا أربع مرات ليسمعوا نصائح ربهم وينجوا من كيد عدوهم! ونلحظ فى هذه النصائح أنها حداء إلى الإنسانية الرفيعة أو إلى دين الفطرة! والحزن أن عالمنا المعاصر مفتون بإنسانية هابطة أو علمانية تشده إلى التراب وتربطه بنزعاته وقلما ترفعه إلى السماء ، من حيث جاء فلنتدبر هذه النداءات الأربعة : أولها يتصل بالملابس! لقد انفرد الإنسان دون سائر الحيوان بارتداء ثيابه ، وحسنًا فعل فهى تستر عورته وتزين هيئته . . وللناس فى ملابسهم تجاوزات فقد يختالون فيها ويستكبرون ، وقد يزنون أنفسهم بقيمة مايرتدون ، وقد تقصر النساء ثيابها وقد تضيقها وترققها وهذا كله لا يسوغ ، فإن شرف الإنسان ليس فى ثوبه ، وقيمته ليست فيما يرتديه ، هناك ثوب آخر يكسو باطنه ، ويبرز حقيقته هو ماسماه القرآن بلباس التقوى ، وما عناه الشاعر بقوله :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل!

وقال شاعر آخر :

لأن أُزَجّى عند العرى بالخلَق ... وأكتفى من يسير الزاد بالعُلق
خير وأكرم لى من أن أرى مننا ... معقودة للئام الناس فى عنقى

يعنى أفضل لبس خلقات بالية وأكل لقيمات تافهة على أن أمد يدى إلى أحد لألبس الغالى وآكل الجيد ، العفة أشرف ، ولباسها يعصمنى من الهوان والتصاغر . وذلك كله معنى الآية ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ونحن فى تفسيرنا نربط بين هذا التذكر ، وبين قول الله أول السورة : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ وقوله بعد ذلك ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ ما أكثر أسباب التذكر ولكن الإنسان ينسى! ما أكثر أسباب الذكر ولكن الإنسان ينسى! ويتكرر النداء : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ** ﴾ لا ينبغى أن يقع للأبناء ما وقع للأب من قبل! لقد نجح الشيطان فى إخراج آدم من الجنة فهل ينجح فى حرمان بنيه منها؟ وتعريتهم كما عراه! إنه عدو حاقد ، ويستطيع أن يراكم وأنتم لاترونه ، فهو عليكم أقدر! لكنه لايقدر على غواية مؤمن لأن الإيمان حرز حريز ، وشباكه لايقع فيها إلا فاقدو الإيمان . .

ومن الأعذار المرفوضة تقليد الآباء الجهلة واختلاق أسباب كاذبة للسلوك المعوج . كان الذين يطوفون بالكعبة عرايا يقولون لانطوف فى ملابس عصينا الله فيها!! وأغلب المتدينين المنحرفين . . يضمون تحت خيمة الغيبيات أمورًا ما أنزل الله بها من سلطان ، تخالف العقل والنقل ، ثم يزعمون أن الله أمرهم بها والله أعلى وأجل من أن يأمر بفاحشة مضادة للذوق والفكر والفطرة ﴿ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ** ﴾ إن العدالة طريق مأنوس للبشر كلهم فما الحرج فى سلوكه؟ ولماذا لانسلم كياننا كله لمن خلقنا وإليه نعود؟ ﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ** ﴾ فكن مع أهدى الفريقين وأولاهما بالنجاة والكرامة .

حقائق القرآن تزداد قوة

في وسط سورة «فصلت» حديث عن عوالم أخرى تتصل بالإنسان وهو يهم بالخير أو بالشر . إنه حديث عن الجن ووساوسها ، والملائكة وإلهاماتها . والماديون ينكرون ذلك كله وليس لديهم دليل إلا وقوفهم عند الحس ، ونحن نحترم المادة وما وراءها ونعترف بعالم الجن والملائكة والبشر جميعًا ، من الجن مؤمنون أخيار ومنهم شياطين تلازم المرء وتنتهز غفلاته لتغريه بمعصية الله والتهاون بحقوقه ، وقد فعل إبليس ــ كبير الشياطين ــ ذلك مع آدم وأزه على الأكل من الشجرة المحرمة وحلف له كاذبًا أنه ناصح أمين! وأكل آدم وطرد من الجنة ، والسبب الأول نسيانه والسبب الثاني تربص الشيطان به وانتهازه الفرصة لخديعته ، وكذلك فعل الشيطان مع خصوم الإسلام في صدر الدعوة قال تعالى : ﴿ **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ إن الكافرين رفضوا القرآن وكرهوا سماعه ، وأغراهم الشيطان أن يحدثوا ضجيجًا في مجلسه حتى لايخلص إلى القلوب وهذا منتهى الفشل في مواجهة الحق والعجز عن مجادلته ، وكل صاد عن الحق يغريه الشيطان بمثل هذه الأفعال ، ويوم الحساب يندمون على هذا الهوس ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ** ﴾ أما أولو الألباب الذين شرحوا بالحق صدرًا واتجهوا إلى نصرته فإن الملائكة تحفهم وتؤنس وحشتهم وتعينهم على تخطي العقبات ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ ويرى أغلب المفسرين أن هذه الآية تتنزل على المحتضرين وهم في آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة لتطمئنهم على ما تركوا من أحبة ولتشرح صدورهم بما سيلقون من رضوان!! ولا بأس بهذا القول وهو لاينفي مايدل عليه السياق

---

(١) فصلت : ٢٥ ، ٢٦ .

من أن الملائكة تهبط على المؤمنين فى أثناء جهادهم فتلهمهم الرشد وتعينهم على الحق وقد صح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لرجل أحسن الثناء على الله : «**أعانك عليها ملك كريم**» وقال لحسان بن ثابت وهو ينافح عن رسول الله : «**روح القدس يؤيدك**» إن الملائكة تعين على الحق كما تعين الشياطين على الباطل ، والأساس فى الثواب والعقاب هو اتجاه الإنسان ، وكسبه واكتسابه .

والشيطان ماهر فى جر الإنسان بعيدًا عن الله ، وفى تعمية الصراط المستقيم أمامه ، فكانت الدعوة إلى الله عملاً يذكر الناس وينشط الكسول ، والمفروض أن جهاز الدعوة يحرس الحقائق ويرد الشياطين ويطارد الأوهام والأهواء ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[1] والرسل أئمة الدعاة على امتداد الزمن ونشاطهم ركن فى دعم الإيمان وانتصار الخير ، وأول مايتجهون إليه تعريف الناس بربهم وتحبيبهم فيه ، وقد جاءت آيات فى السورة لتحقيق هذا المعنى ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ . .** ﴾[2] ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . .** ﴾[3] ﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ . .** ﴾[4] والحزن أن أجهزة الدعوة الإسلامية معطوبة ، وقد تكون فى بعض الأعصار والأمصار معدومة ، وتفريط العرب فى خدمة الدعوة لايمكن الدفاع عنه ، وانشغالهم بأهوائهم وعصبياتهم أسقط دولتهم وأضاع رسالتهم ويمكن أن تساق فيهم الآيات ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا . .** ﴾[5] ، ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ . .** ﴾[6] إن حمل العرب لرسالة محمد ﷺ هو حمل لرسالات الأنبياء قاطبة ، فهم فى الدنيا يمثلون الوحى من الأزل حتى النهاية ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾[7] أما أهل الكتاب فقد أضاعوا ما لديهم ونسوا قواعده ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ . .** ﴾[8] ومن الغريب أن

---

(١) فصلت : ٣٣ .　(٢) فصلت : ٣٧ .　(٣) فصلت : ٣٩ .　(٤) فصلت : ٤٧ .
(٥) فصلت : ٤٠ .　(٦) فصلت : ٤١ .　(٧) فصلت : ٤٣ .　(٨) فصلت : ٤٥ .

القوم أنشط من المسلمين المعاصرين فى خدمة مواريثهم . . ولهم مطارات لتنقل الدعاة بين الشرق والغرب!! وقد ختمت السورة بآيات تعنى العرب المحدثين والعرب القدامى جميعًا ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[1] ثم يقول تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2] إن كل يوم يجىء يزيد أشعة القرآن وهجًا وحقائقه قوة ، ويزيد نبوة محمد ﷺ رسوخًا وصدقًا ، لقد دعا إلى التوحيد الخالص . فهل اكتشف إله جديد غير مرسل الأنبياء المعروفين؟ ولقد وضع نظمًا للفرد والمجتمع والدولة ، فهل وجدت فى هذه النظم ثغرة؟ إنه مايعيبها إلا التعطيل والإهمال ﴿ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾[3] .

(١) فصلت : ٥٢ . (٢) فصلت : ٥٣ . (٣) فصلت : ٥٤ .

لنستبعد الواهيات والمتروكات

طلب جماعة من المسلمين المقيمين بإنجلترا أن تسمح لهم السلطات بإنشاء مدارس إسلامية خاصة وهذا طلب عادى ، وقد ألفنا فى أرجاء العالم الإسلامى أن يقيم المهاجرون فى بلادنا مدارس خاصة يتلقون فيها تعاليم دينهم ويتقنون لغتهم إلى جانب المعارف المدنية العامة ، إلا أن نفرًا من الإنجليز عارضوا الطلب وضاقوا بإنشاء هذه المدارس قائلين إنها ستقوم على تفرقة عنصرية بين البنين والبنات واتهموا الإسلام بأنه متحيز ضد النساء ومُسقط لحقوق المرأة .

غير أن حزب العمال البريطانى ساند الطلب وقال المتحدث الرسمى لشئون التعليم بالحزب «مستر جاك سترو» ، كما ذكرت صحيفة التايمز : إن الذين يعترضون على إقامة هذه المدارس مخطئون وربما غلبتهم نزعات عنصرية ، واتهمهم بأنهم لايعرفون الإسلام .

وفى مؤتمر عقد فى لندن حول مستقبل التعليم الإسلامى فى إنجلترا قال مستر جاك سترو : إن معاملة المجتمع الإسلامى للمرأة يجب أن تدرس دراسة عميقة وأن ينظر فيها إلى الأصول . لقد سمعت مزاعم كثيرة بأن الإسلام ضد المرأة ، ويعتمد أصحاب هذه المزاعم على عدم وجود نساء يشتغلن بالدعوة الدينية أو يلقين دروسًا بالمساجد وأن الرجال يحتكرون السيادة أو القيادة فى هذا الميدان كما يحتكرونها فى المجال السياسى .

وقال : هناك جهل تام بدور المرأة فى «اللاهوت» الإسلامى وفى تاريخ الإسلام نفسه!! وعند التأمل نرى وضع المرأة المسلمة أهم من وضع المرأة اليهودية أو النصرانية فى الأيام الماضية .

ثم إن الإسلام أعطى النساء حق الإرث فى كل الممتلكات قبل أن تفعل ذلك الحكومة البريطانية بثلاثة عشر قرنًا .

الحق أنى شكرت ممثل حزب العمال على دفاعه الحسن ، وإن كانت الإذاعة البريطانية قد ردت ذلك إلى التنافس الانتخابى وكسب الأصوات من حزب المحافظين!

وأعود أنا إلى الموضوع نفسه لأتحدث فيه على عجل ، فقد تناولته بشىء من التفصيل فى كتاب آخر ، هو «مستقبل الإسلام خارج أرض الإسلام» .

الإسلام متهم بإهانة المرأة واستضعافها . .! فهل فى كتاب الله وفى سنة رسوله مايبعث على التهمة؟ القرآن الكريم بين أيدينا لم يتغير منه حرف ، وهو قاطع بأن الإنسانية تطير بجناحين ، الرجل والمرأة معًا ، وأن انكسار أحد الجناحين يعنى التوقف والهبوط .

فلننظر إلى السنة ، ولنستبعد ما التصق بها من الواهيات والمتروكات .

إن مصاب الإسلام فى المتحدثين عنه لا فى الأحاديث نفسها . نبينا ﷺ يوصى بأن تذهب النساء إلى المساجد «تَفِلات» أى غير متعطرات ولا متبرجات ، ولكن «القسطلانى» فى شرحه للبخارى يرى أن تذهب النساء إلى المساجد بثياب المطبخ ، وفيها روائح البقول والأطعمة!! وغيره يرى ألا تذهب أبدًا ، فأى الفريقين شر من صاحبه على الإسلام . .؟

وفى البخارى أن النبى ﷺ أجاز أن يسلم الرجال على النساء وجاء فيه أن الرسول الكريم قال لعائشة : هذا جبريل يقرأ عليك السلام ـ وكان فى صورة رجل ـ فجاء من يقول : ذاك عند أمن الفتنة! أو ذاك مع النسوة المحارم أو العجائز أو الدميمات . ومع ورود سنن بسلام الرجال على النساء أو النساء على الرجال ، فقد كان جهد الشراح وقف العمل بها على أى صورة ، وكلما امتد الزمان زادت هذه الشروح قوة حتى ألغت الأصل المتبع ، وأحلت مكانه التفسير المتشائم المغشوش! وفى كل عصر توجد نسوة نوابغ متقدمات قارئات فقيهات ، يستطعن جعل بيوتهن مساجد عامرة بالخير ، منهم «أم ورقة» التى قال الصنعانى عنها فى الحديث رقم ٣٩٢ : «أمرها النبى عليه الصلاة والسلام أن تؤم أهل دارها» .

وبعد أن حط عنها الغزو ـ وكانت تريد القتال فى بدر ـ جعل لها مؤذنًا يدعو للصلاة . قال الصنعانى : والظاهر أنها كانت تؤمه ، وغلامها وجاريتها .

لماذا أنسى ربى؟
يجب أن أنعطف إليه وألوذ به

الشهادة منزلة رفيعة من الرضوان الأعلى ، يصطفى الله لها من يشاء من عباده ، ولذلك قال : ﴿ **وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ** . . ﴾[1] والملحوظ أن المختارين لهذه المكانة مؤمنون همهم الأكبر إعلاء كلمة الله ، والإصباح والإمساء فى دعم الإسلام وحماية بيضته ورد العدوان عنه ، وقتلى أُحُد نماذج فريدة لهذا الخلق الواثق الواضح ، تدبر سيرة مصعب بن عمير أنعم فتيان مكة ، الذى اعتنق الإسلام فحرم ثروته وعضه الفقر بنابه ، فإذا هو يلبس ثوبًا من جلد الضأن بعد أن كان يخب فى الحرير .

ثم هاجر قبل المهاجرين مكلفًا من رسول الله بنشر الإسلام فى المدينة فلم يدع بيتًا ذا شأن حتى أدخله فيه ، وها هو ذا يقتل فى أحد غريبًا ، عليه ثوب لا يكمل كفنًا لجثمانه الطاهر ، فتغطى قدماه بالإذخر!!

وتدبر سيرة عبدالله بن حرام ، وكان أبًا لست بنات وغلام واحد ـ هو جابر بن عبدالله ـ فقال لابنه : لا تترك الفتيات الست دون رجل معهن ، ولا تطيب نفسى بأن يخرج الرسول للقتال وأنا جالس فى بيتى ، فابق أنت معهن ، وأنا ذاهب للقتال ، وذهب الرجل ليستشهد فى المعركة! لقد كان وضع المسلمين مكشوفًا بالغ الحرج بعدما ترك الرماة مواقعهم ، ولذلك قتل منهم سبعون بطلاً فى دفاع كئيب شاع فيه أن الرسول نفسه قتل!

لكن قريشًا وجدت أنها تصطدم بحائط من الصلب ، وأنها لن تبلغ أكثر مما بلغت ، فجمعت رجالها وعادت أدراجها إلى مكة .

ونزل فى مصاير الشهداء قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[2] .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

(٢) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .

إن الله أعلم أولئك الشهداء أن إخوانهم وأولادهم على درب الحق ، وأنهم أدَّوا واجبهم فى نصرة الله ورسوله ، وأنهم ـ عن قريب ـ سوف يلحقون بهم فى دار النعيم .

ومن المفيد أن نذكر ما فعل المسلمون بعد الهزيمة العارضة ، فقد جمعوا فلولهم ، وتحاملوا على جراحهم ، وانطلقوا فى طريق مكة يطاردون جيش الكفر الذى كان يمشى متباطئًا يحدث نفسه بعودة لاستكمال ما بدأ ، فلما شعر بالمسلمين قادمين سارع فى العودة من حيث جاء .

وعاد المسلمون كما وصف الوحى : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] .

وينقطع التعليق على غزوة أُحُد مؤقتًا ، ليتصل الحديث مرة أخرى عن اليهود ، ونلاحظ هنا أن السياق صار مزدوجًا إلى آخر السورة ، فهو تارة يتناول اليهود ، وتارة يتناول عبدة الأوثان ، ولاعجب فجهاد الدعوة يتناول الفريقين على سواء كما قال جل شأنه : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾[2] .

ويبلغ اليهود فى كفرهم حدًّا من الإسفاف يحنق الحليم . فالقرآن يطالب المؤمنين بالإنفاق فى سبيل الله ، سواء كان هذا الإنفاق دفاعًا عن الحق أو كان إسعافًا للفقراء والمساكين ، وهو يفرض ذلك فى أسلوب عال يغرى بالبذل فى أشرف صور البيان ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[3] . فماذا يقول اليهود عندما يسمعون ذلك؟ يقولون : إن الله فقير يقترض من العباد!! ويقولون : إنه ينهى عن الربا ويتعامل به!! ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾[4] .

والواقع أن هذا تعليق قوم ليس فى أفئدتهم إيمان ولا تقى ، يعيشون بمواريثهم عيشة خسيسة! ويستقبلون الإيمان الغض بأحقاد بالية وسخائم محقورة .

(١) آل عمران : ١٧٢ .
(٢) آل عمران : ١٨٦ .
(٣) البقرة : ٢٤٥ .
(٤) آل عمران : ١٨١ .



ولايستغرب فى مجتمعهم أن يعبد المال وحده ، وأن تطلب الدنيا وتنسى الآخرة!! وأن يعاملوا غيرهم من البشر وهم صرعى هذه الدنايا . . اليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار! فهل هذا الاختيار تعليم للأم وإحسان إليها؟ أم هو الاستعلاء عليها ثم استغلالها واستنزافها؟ إن التاريخ اليهودى ليس تاريخ عطاء بقدر ما هو تاريخ صلف وغصب!! وليس عرب اليوم هم الذين يقولون ذلك ، بل تقوله شعوب أوروبا وأمريكا التى عانت قديمًا وسوف تعانى مستقبلاً .

وفى هذه السورة تلخيص لسيرة اليهود : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[١] .

وتنقلنا سورة آل عمران إلى جو آخر بعيد عن الماضى وذكرياته ودلالاته . ألا يقودنى هذا إلى الله والتسبيح بحمده ، والإقرار بمجده لأترك جانبًا الخلاف بين الأديان وأتباعها ، ولأعول على عقلى الذى سأحاسب به ، ولأفكر فى مصيرى بعد هذه الدنيا؟ لماذا أنسى ربى وأبتعد عن صراطه المستقيم؟ يجب أن أتعطف إليه وألوذ به!

وها قد ظهر إنسان يصيح بأهل الأرض أن يثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بربهم لماذا الصد عنه؟ ألا يستحق هذا الداعى المتجرد أن أصيخ إليه ، وأتدبر دعوته؟ ﴿ **رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** ﴾[٢] .

إن الله يجيب هذا الدعاء بأنه لايضيع عمل عامل من الإنس أو الجن ، من السود أو البيض ، لايهم العنصر أو النسب ، المهم العمل الصالح .

ماذا يتعاظم الناس من الإيمان بإنسان يدعو إلى الصلاح على ضوء من الخشوع لله والاستعداد للقائه؟ ماذا فى دعوته يؤلب القلوب ضده ، أو يحرض الأحزاب على قتاله؟

لكن العميان من عبدة الأصنام والمتعصبين من أهل الكتاب تألبوا عليه ، وقاتلوه ، واضطروا أتباعه إلى هجرة وطنهم وتحمل أنواع الأذى فى سبيل معتقدهم ، فليكن

---

(١) آل عمران : ١٨٧ ، ١٨٨ .　　(٢) آل عمران : ١٩٣ .

جزاؤهم كما وصف الله : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . .** ﴾[1] .

إن الكفار قد تعلو رايتهم ، وتنتصر جيوشهم ، ليكن ، فذلك إلى حين ﴿ **لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾[2] .

وقد غلب المشركون يوما فى أحد ، فماذا كان؟ توقف سيل الحق قليلاً ، ثم مضى تياره من بعد عاصفًا لا يوقفه شىء ، والعاقبة للتقوى .

وختمت سورة آل عمران بعد هذا العرض المفصل بآيتين أولاهما تتحدث عن أهل الكتاب ، وما ينبغى منهم بإزاء النبى الخاتم ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ . .** ﴾ .

والآية تتضمن إلى آخر الدهر دعاء إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى أن يستمعوا إلى النبى الخاتم ، ويؤمنوا بما جاء به ، أما الآية الأخرى فهى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ هذا توجيه للمسلمين الذين اتبعوا محمدًا أن يصبروا على تعاليم الحق الذى شرفهم الله به ، وأن يكونوا أصبر من غيرهم فى هذا المجال وأن يكونوا فى رباط دائم حول ثغورهم وأراضيهم حتى لاتدخل عليهم من أقطارها كما فعل الاستعمار الأخير!

هذا نداء لنا ، فهل نلبى النداء؟

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .

(٢) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧ .

من أعظم القربات لدى الرحمن

بئس الرجل يعيش لنفسه وحسب! لايهتم إلا بمآربه ، ولايغتم إلا لمتاعبه ، ولا يعرف إلا من يقرب له مصلحة ، ولا يجفو إلا من لاحاجة له عنده!

إن هذا النوع من البشر أدنى إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، ذلك أن الإنسان يفضل الحيوان بأمرين ، أولهما عقله المتحرك الجوّاب فى الأرض والسماء ، والثانى عاطفته الرحبة التى تشغله بأمر نفسه وأمر الآخرين .

إن الدابة لا تحس إلا كيانها وما تهوى وما تخشى! وقد تمتد عاطفتها إلى ذريتها حينًا من الزمن ثم ينسى كلاهما الآخر وينطلق كما يشاء ، وفى الناس من يصبحون ويمسون لا يخرجون من القوقعة التى يحيون داخلها ، وهى أنانيتهم المطلقة المطبقة!

والإسلام شديد الحرص على إيقاظ المسلم إلى غيره ، وتعريفه بحقه ، وإيصائه برعايته ، وأول أولئك ـ بعد الوالدين ـ ذوو الأرحام . . ومن حديث رسول الله ﷺ «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه**» . . «**من أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى إثره ـ يطال فى عمره ـ فليصل رحمه**» .

ومن حكم النبوة ولطائفها ما رواه أبو ذر : «**أوصانى خليلى ﷺ بخصال من الخير . .**

أوصانى ألا أنظر إلى ما هو فوقى ، وأن أنظر إلى من هو دونى .

وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم . وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت .

وأوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم .

وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مرا .

وأوصانى أن أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة» .

والأقارب ليسوا سواء ، ففيهم السيئ الخلق القريب الشر ، وفيهم الودود المقر بالجميل الناشر للمعروف . . «عن أبى هريرة أن رجلا قال : يارسول الله ، إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ ، أحلم عليهم ويجهلون علىّ ، فقال له : «**إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ـ الرماد الحار ـ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك**» وقد كان العربى يفخر بتحمله أذى الأقارب إبقاء على صلة الرحم ولا يحمل الضغينة على قريب .

وإنى لأنسى عند كل حفيظة

إذا قيل : مولاك احتمال الضغائن

إن كان مولى ليس فيما ينوبنى

من الأمر ، بالكافى ، ولا بالمعاون!

يعنى أنه قريب قليل الخير ، ولكنه يعينه ، وإن كان قليل العون ، لايسد ثغره!

ونريد أن ننظر إلى دائرة «الأرحام» كما رسمها الإسلام فإنها أوسع كثيرًا مما يظنها المرء لأول وهلة ، إنها تمتد وتنداح حتى تتجاوز الأعمام والأخوال وأبناء الأعمام والأخوال ، والقرابات من الدرجة الأولى والثانية حتى تشمل الكثيرين!

الأساس ـ فى نظر الإسلام ـ أن الناس جميعًا إخوة لأب وأم ، وأن هذه الصلة المشتركة لايجوز أن تهمل وإن طال الزمان وكثرت الفروع وزاد البنون والبنات ، والإخوة والأخوات ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾[1] .

الناس كلهم ينميهم أب واحد وأم واحدة ، وهم ـ رضوا أم كرهوا ـ إخوة تجرى فى عروقهم دماء مشتركة فعلام التقاطع والتناحر والاستكبار والاحتقار؟

إن النزعات العرقية قسمت البشر قديمًا وحديثًا ، ولاتزال الفروق القومية تجعل أبناء آدم كأنه لارحم بينهم ولا قرابة .

والأوروبيون يسرون ويعلنون أن الجنس الأبيض ، أو سكان الشمال ، هم الأرقى والأذكى ، والمعروف أن القوم لم يبرز لهم تاريخ متفوق إلا من بضعة قرون .

وهناك الاختلافات الدينية ، فهى من قديم أساس عراك دموى ظلوم أرخص الأرواح والأموال وورث الأحقاد والثارات .

وقد أهدر القرآن الكريم كل ما توهمه الناس مبعث انقسام وشجار عندما قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[2] .

---

(١) النساء : ١ .   (٢) الحجرات : ١٣ .

إننى باسم الإسلام أقول لغيرى ممن لا يدينون دينى ، لكم عندى المبرة والعدالة ، ولكم عندى حقوق الرحم الإنسانية الجامعة ، وغاية ما أنشده أن تتركونى وما اقتنعت به ، وأن تتركوا غيرى حرّا فى اتباعى إذا شاء . نحن نؤمن بالله الواحد ، وبجميع الرسل الذين أرسلهم ، وندعو إلى وحدة دينية تحقق الوحدة الإنسانية وتصحح مسيرتها فى هذه الحياة . فمن صدقنا فهو منا ، ومن كذبنا فيتركنا وشأننا ولا يلجئنا إلى مقاتلته دفاعًا عن أنفسنا .

قال عبدالله بن عباس فى شرح قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ . .** ﴾[1] يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل ، يعنى يصل بينهم بالإيمان ولا يفرق بين أحد منهم .

هذا هو الإيمان الجامع للكلمة ، المحقق للوحدة ، الواصل لما بين الأنبياء من رحم وبين أتباعهم من إخاء . و من السهل رؤية الأطماع البشرية وهى تتخفى تحت رداء الوطنية والطائفية قاطعة الأرحام وسافكة الدماء قال تعالى : ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** ﴾[2] .

وهنا مبحث لغوى طريف ثار عند شرح الحديث : «إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم ، قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة! قال نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى! قال : فذاك لك . وهو معنى آية ﴿فهل عسيتم . . .﴾ إلخ قال القاضى عياض : الرحم التى توصل وتقطع وتبر أو تعق إنما هى معنى من المعانى كالعلم ، والعدل ، والرحمة . . وغير ذلك ، إنها ليست جسمًا ، إنما هى قرابة ونسب يجمعه رحم والدة ، فيتصل بعضه ببعض .

والمعانى لا يتأتى منها القيام ولا الكلام ، فكيف يفسر الحديث؟

قال : إنما هو ضرب مثلما جرى على عادة العرب فى المجاز والاستعارة . . والمراد تعظيم شأن الرحم وبيان إثم قاطعها .

وقيل بل المراد قيام ملك من الملائكة بهذا الموقف يتعلق بالعرش ويتكلم بلسان الرحم . وأيّا ما كان الأمر ، فصلة الرحم من أبرز شعب الإيمان ومن أعظم القربات لدى الرحمن .

---

(١) الرعد : ٢٠ .

(٢) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

لاعلاقة للتخصص بموازين العدل الإلهى

بيت عريق أخنت عليه الأيام فزلزلت مكانته فى المجتمع ، وأطمعت من دونه من الناس أن يتقدم خاطبًا لبناته وما كان يجرؤ على ذلك من قبل .

وغضب رب البيت لكرامته التى جرحت ، وتساءل فى أسف : أإذا عرضت له أزمة عابرة تطاول عليه الصغار وجاء من يريد الزواج بابنته وهو ليس لها بكفء؟

لذلك طرد بعنف بالغ الخاطب القادم قائلاً له : تريد أن تكون سيدًا بأخذ سيدة من بيتنا لا ترتفع إلى مستواها؟ اذهب عنا فالبنات كثرن بعد أن منع الإسلام وأد البنات! أما ابنتنا ففى مكانها العالى لن ترخصها أزمة مهما اشتدت!!

وهاك الأبيات التى تفجرت فيها ثورة رب البيت الجريح!!

تبغى ابن كوز والسفاهة كاسمها
ليستاد منا أن شتونا لياليا

ماأكبر الأشياء عند حزازة
بأن أبت مزريا عليك وزاريا

وإنا على غض الزمان الذى بنا
نعالج من كره المخازى الدواميا

فلا تطلبنها يابن كوز فإنه
غذا الناس مذ قام النبى الجواريا

وإن التى حدثتها فى أنوفنا
وأعناقنا من الإباء كما هيا

والذى استوقفنى من هذه القصة أمران : أولهما أن الرجل الذى أخرجه الفقر تماسك وتحمل آلامًا هائلة حتى لا يلم بدنيئة أو يقترف ما لا يليق به ، والثانى أعز ابنته وجعل مكانتها فى أنفه وعنقه فلن تذل أبدًا مادام حيًا! وكلا الأمرين من خلائق السادة الذين يحترمون أنفسهم وأهليهم ، ولا يعنينى غير ذلك من القصة كلها .

والمجتمع العربى قديمًا وحديثًا تحكمه تقاليد صارمة بعضها لا بأس به وبعضها فيه نظر . واهتمام العرب بنسبهم وسمعتهم قد يخالطه غرور وكبر ، ولكن الأستاذ أحمد موسى سالم يقول : إن العرب فى حياتهم الأولى كان يحكمهم قانون «الحمد» الذى جاء به اسم محمد من مشرق طفولته ، تأكيدًا لمراحل الاصطفاء له من بين محامد العرب لا من بين مساوئهم فكان هو المحمد ، بحسب قانونهم وكان كما هو الواقع وكما قال عن نفسه «خيار من خيار من خيار» .

وقد شرحت الخنساء هذا القانون الشريف بقولها :

نعف ونعرف حق القرى

ونتخذ الحمد كنزًا وذخرًا!

وتقول أم حاتم الطائى وكانت فى سباق المكارم تجود لمن يسألها بكل ما تملك :

لعمرى لقد ما عضنى الجوع عضة

فآليت ألا أمنع الدهر جائعًا!

وما إن ترون اليوم إلا طبيعة!

فكيف بتركى يابن أمى الطبائعا!

فهذه امرأة جاعت مرة فأقسمت ألا ترى جائعًا إلا أعطته ما تملك! وكان من حقها أن تفعل ذلك! ولا يستطيع أحد أن يمنعها .

وكانت إحدى حكيمات النساء قبل الإسلام ، وهى جمعة بنت الخس ، تصف الصدق وتجعله فوق كل الفضائل فتقول :

وخير خلال المرء صدق لسانه

وللصدق فضل يستبين ويبرز!

وإنجازك الموعود من سبب الغنى

فكن موفيا للوعد ، تعطى وتنجز!

وقانون الحمد الذى أشار إليه الأديب الكبير جدير بالإقرار مع تعليق محدود ، فالإسلام يريد منا أن نعمل ابتغاء وجه الله وانتظار مثوبته يوم اللقاء الأخير ، فإذا أخلصنا العمل له سبحانه جازانا بالذكر الحميد فى الدنيا والآخرة ، ولا يجوز أن نعمل طلبا لثناء الناس ، كما لايجوز أن نعرض سمعتنا للقيل والقال .

وفى العرب ميل للفخر والظهور والمباهاة وهى رذائل تشوب العمل الصالح وقد تطيح به .

والحق أن المرأة العربية فى الجاهلية الأولى برزت شمائلها الحسان فى ميادين كثيرة أيام الحرب وأيام السلم على سواء ، ولم توضع أمامها العوائق التى وضعت أمام المسلمات فى عصور الانحطاط العام للأمة الإسلامية .

وفى صدر الإسلام استطاعت امرأة من الخوارج أن تقود جيشًا يهزم الحجاج ويحصره فى قصره ويتركه وهو مذعور ، حتى عيره أحد الشعراء على هذا الموقف المخزى بقوله :

أسـد على وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر!

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر!

أما فى العهود الإسلامية الأخيرة فإن المرأة ما كانت تدرى وراء جدران بيتها شيئًا! وعندما غلبتنا حضارة الغرب المنتصر ، كان هم المرأة أن تقلد فى الثوب الرشيق والمنظر الأنيق! أما فى غزو الفضاء واكتشاف الذرة ودراسة النفوس والآفاق فإن الأمر لا يستحق الاكتراث ؛ لأنه ليس من شأنها ولا من رسالتها!!

إن الإسلام لايقيم ـ فى سباق الفضائل ـ وزنًا لصفات الذكورة والأنوثة ، فالكل سواء فى العقائد والعبادات والأخلاق ، الكل سواء فى مجال العلم والعمل والجد والاجتهاد ، فلا خشونة الرجل تهب له فضلاً من تقوى ، ولا نعومة المرأة تنقصها حظًا من إحسان ، وفى القرآن الكريم : ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾[1] .

وفى عالم الرياضة اليوم يفصل بين مباريات الرجال والنساء ، وتوضع مسافات وأرقام لكلا الجنسين على حدة . ربما صح هذا فى دنيا الألعاب لكنه مستحيل فى سباق الصالحات وكسب الآخرة ، ربما تقدمت امرأة فسبقت ذوى اللحى دون حرج ، وربما تأخرت ولو كانت قرينة أحد الأنبياء ، ولذلك قلنا : امرأة فرعون خير منه ، ومريم أشرف من رجال كثيرين ، ونوح ولوط خير من زوجاتهما!!

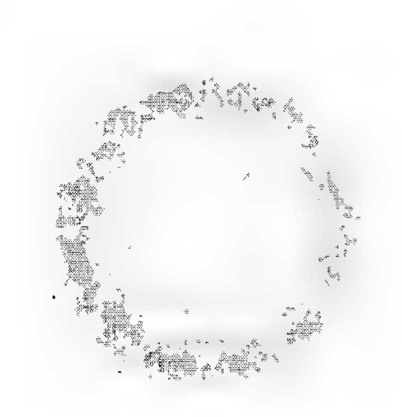
(١) النساء : ١٢٣ ، ١٢٤ .



وأذكر أن أحد الناس قال لى : إن القرآن يرجح الذكورة على الأنوثة ، ويسوق لزعمه قوله تعالى : ﴿ **وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ** ﴾[1] وهو فهم أعوج!

فالجملة القرآنية وردت على لسان امرأة عمران التى كانت حاملاً ، وظنت أنها ستلد رجلاً يكون سادنًا للمسجد الأقصى وقائدًا للعابدين والدارسين فيه ، فلما فوجئت بإخلاف ظنها وأنها ولدت أنثى ، قالت هذه الكلمة لأن المرأة لاتصلح لهذه القيادة بطبيعتها ، وقد قبلت الأمر الواقع لأنه مراد الله! ودعت لابنتها ولذريتها بالصيانة والرعاية فاستجاب الله الدعاء بأن أعلى قدر المولودة فوق ألوف مؤلفة من البشر ، وأعلى قدر ابنها فجعله من الأنبياء أولى العزم .

ولاشك أن هناك وظائف تخص النساء وأخرى تخص الرجال ، ولا علاقة لهذه التخصصات بموازين العدل أو الفضل الإلهى .



(١) آل عمران : ٣٦ .

فكر طفولى جدير بالضحك

لا أستغرب أن تستند إلى كتابك ياصاحبى فى الأخذ والرد ، فأنا أعتمد على القرآن الكريم فى مسيرى وآرائى ، وحتى لا يتشعب بنا الحديث إلى وجهات كثيرة أرى أن نضع عدة مبادئ نتفق عليها ، ثم ننظر بعدئذ فيما لدى كل منا من تراث!

قال : ما هى تلك المبادئ التى تقترحها؟

قلت :

أولاً : نتفق على استبعاد كل كلمة تخدش عظمة الله وجلالته! فأنا وأنت متفقان على أن الله قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأنه لايعجزه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، وأن رحمته وسعت كل شىء ، وأنه ليس متصفًا بالنقائص والعيوب التى تشيع بين البشر . . إلخ .

وثانيًا : نتفق على أن الله يختار رسله من أهل الصدق والأمانة والكياسة ، ويبعد أن يختار سفراءه إلى عباده من اللصوص والقتلة وأشباههم من المجرمين . .

ثالثًا : ما وجدناه متوافقا فى تراثنا نرد إليه ما اختلف عنه ، وبذلك يمكن وضع قاعدة مشتركة بين الأديان .

فنظر إلى مترددًا كأنما يخشى أن يقع فى حفرة!!

فصحت به : ماذا فى هذه المبادئ الثلاثة يشقيك؟ أترتاب فى كمال الله أو فى نزاهة الأنبياء ، أو يضايقك أن يكون فى كتابك ما أصدقه أنا لأنه عندى أيضا؟

قال : عند التطبيق يتضح مرادك! وبداية لا مانع عندى من السماع ، والقاعدة المقترحة حسنة على الإجمال . .

قلت : فى سفر التكوين أن الله كان يمشى فى الجنة ، ففوجئ بآدم مختبئًا بين الشجر ، وشعر بأنه عريان ، فسأله : هل أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها؟ فاعترف بأن امرأته أغرته ، فأكل ، فتعرى!!

أسألك : هل هذا السياق مشعر بأن الله يعلم كل شىء؟ إنه كان جاهلاً حتى أخبره آدم!!

أما دينى فيخبرنى أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه على كل شىء شهيد ، فأى السياقين أولى بالقبول؟

وفى القصة نفسها أن الله بعدما علم أن آدم أكل من الشجرة ، فكر فى مستقبله باهتمام ، لأن الشجرة التى أكل منها هى شجرة المعرفة ، ويخاف أن يأكل من شجرة الحياة فيخلد ولا يفنى ، فأمر بإخراجه من الجنة حتى لايتحول إلى نِدٍّ لله يشاركه البقاء!!

هل هذا السياق مقبول؟ أليس يفيد أن الله استكثر على آدم الأكل من شجرة العلم وأنه يريد له أن يحيا جاهلاً؟ فلما أكل خشى منافسته له عندما يزداد طمعه ، وسيكون خالدًا عندما يأكل من شجرة الحياة ، فأمر بطرده حتى لا ينازعه سلطانه ، ثم أمر بحراسة هذه الشجرة من كل طامع!!

ممن يخاف الله؟ والكون كله إنما نشأ بإيجاد الله ، وبقى بإمداده ، ولو تخلى رب العوالم طرفة عين عن هذه العوالم لزالت ، ولم يبقَ لها أثر!!

هذا فكر طفولى جدير بالضحك!

إن الحديث عن الله فى كتابنا له أوج آخر ، ونسق موغل فى السناء والسمو ، وقد بين القرآن الكريم أن هذا النسق لم يجئ بدعًا على لسان محمد وحده ، بل جرى من قبل على ألسنة إخوانه الأنبياء السابقين واحدًا واحدًا .

تدبر هذا الحوار بين فرعون ، وموسى وهارون : ﴿ **قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ** ﴾[١] .

(١) طه : ٤٦ - ٥٥ .

إن الفارق فى الحديث عن الله بين الكتابين ، كالفارق بين كلام شخص فليسوف قاصر ، وفيلسوف راسخ!!

قال الرجل : لا أسمح لك بهذا التطاول ، وقد بدأ الكتاب المقدس بحديث عن الله الخالق ، علمنا أنه الموجد الأوحد للسماوات والأرض والبر والبحر ، فلا مكان لهذا اللغط!!

قلت : إننا نتحدث عن الحوار الذى دار فى الجنة ، بين الله وآدم ، وبين الله وملائكته ، وأتفق معك على أن الكتب السماوية كلها قالت : إن الله خالق السماوات والأرض ، بل إن عبدة الأصنام يقرون ذلك ولا ينكرونه ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾[1] ومع ذلك يتناقضون مع أنفسهم ويعبدون غيره .

وأنتم مع الحديث عن الله الواحد عند بدء الخلق ، لم تقدروا الله حق قدره فنسبتم إليه ما يخدش جلاله . .

ولذلك أستأذنك فى أن أرجئ الحديث عن المبدأ الثانى مؤقتًا ، لأذكر طرفًا مما اتفق فيه كتابنا وكتابكم ، لعل ذلك يسرك .

عندما سئل عيسى : أى وصية هى أول الكل؟ أجاب : أولى الوصايا كلها هى «اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد ، تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك» .

هذه هى الوصية الأولى ، والثانية مثلها ، تحب قريبك كما تحب نفسك ، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين . فلما جاء عيسى بهذه الكلمات ، قال له الكاتب : جيد يامعلم!! بالحق قلت ، لأن الله واحد وليس آخر سواه ، هذا ما كتبه مرقس فى إنجيله .

نقول : ومع غض البصر عما فى الصياغة من ركاكة ، إلا أن المعنى صحيح ، فأصدق كلمة هى لا إله إلا الله ، وصلة الرحم من أعظم القربات .

وبهذا نطق كتابنا ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . .** ﴾[2] .

---

(١) الزخرف : ٩ .
(٢) النساء : ٣٦ .



إن الاسلام يرى عقيدة التوحيد جذر تعاليمه كلها ، ويرى الشرك فى الإيمان أو السلوك أعظم الكبائر . .

وتلك وصية الله لأنبيائه جميعًا ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[1] .

وفى الحضارة الحديثة نلحظ أن الاستمتاع بالنساء أخذ طرقًا معوجة كثيرة ، ويستحيل وصف هذه الحضارة بأنها عفيفة ، أو مقتصدة فى ملذاتها ، إنها لاتزال تكرع من الآثار حتى تهلك من التخمة ، وكذلك تصنع فى سائر علاقاتها بالدنيا!

أهذه تعاليم الكتاب المقدس؟ إن النهى عن ذلك ورد بأسلوب مثير ، يقول عيسى عليه السلام : «**إن كانت عينك اليمنى تعثرك ـ تجرك إلى الإثم ـ فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم ، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم**» .

هكذا ذكر متى! ونحن نوافقه فى ضرورة غض البصر عن المحرمات ، ونشجب المدنية الأوروبية التى تدعى المسيحية ، ومع ذلك لايروى التاريخ أن مدنية أخرى بلغت مداها فى تزيين المناكر وتوسعة دائرتها وإزلاق الحكام والجماهير إليها . .

الإيمان بالله الواحد ـ كما ترى ـ أساس تعاليم عيسى ، والمواظبة على العمل الصالح هى طوق النجاة ، ونحن ما نختلف عنكم فيما ناقضه ، فهو مرفوض . ألا ترى هذا قاسمًا مشتركا بيننا؟

قال الرجل : إننا موحدون ، ونتواصى بالصالحات ، التثليث لاينافى التوحيد ، وافتداء عيسى لأصحاب الخطايا لا ينفى الدعوة العامة إلى العمل الصالح . .!

قلت : من النماذج الكثيرة التى سوف أسوقها لك ، سترى أن فكرتكم عن التوحيد تحتاج إلى مراجعة ، وحديث الكتاب المقدس عن الله يتنافى مع ما ينبغى له من حمد وتمجيد ، وإذا كان الأنبياء نماذج حسنة للرجال الصالحين ، فحديث الكتاب عن أولئك الأنبياء تقشعر له الأبدان .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .

حـــــوار

جاءنى شخص حسن السمت ، ظننته لأول وهلة طالب علم ، لكنه عرفنى بنفسه فأدركت أنه مسيحى ، يتبع الكنيسة الإنجيلية الإنجليزية ، قال لى : أريد مساءلتك فى بعض القضايا!

فقلت له : أنا أكره الجدل الدينى ، فإن أصحابه سرعان ما يتحولون إلى اللجاجة والمغالبة ، وليس لدى وقت لهذه الأمور!!

قال : بل أنا ناشد حق أعرفه وأدعو إليه .

فأجبته : ما يزعم أحد أنه على باطل ، كل امرئ مستريح إلى ما عنده ، ما يبغى به بديلاً .

ومن ثم فأنا أدع كل امرئ لقدره الغالب ، أو لمواريثه التى انحدرت إليه ، حتى يستبين من تلقاء نفسه ما يغيره ويبدل أحواله .

قال : ما تعنى؟

قلت : أحسب أننا ورثنا الأديان كما ورثنا اللغات ، دون إرادة منا ولا اختيار ، فلما كبرنا شرع كل واحد يفكر فيما عنده تفكيرًا سطحيًا أو عميقًا على قدر ما أوتى من عقل .

ويغلب أن يقتنع المرء بما جاءه ، وأن يتساهل فيما يندُّ عن عقله ، ويقبل على إغماض وتجوز ما قد يراه مأخذًا على دينه ، ثم يجرفه بحر الحياة ، وتشغله معركة الخبز ، فيبقى على وضعه .

وأنا ألتمس العذر لهؤلاء وأمثالهم ، وأعى قول الله سبحانه : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾[1] .

قال الرجل : كأنك تشعر بالقلق من الحديث معى .

فرددت ساخرًا : قلق على ما عندى أو على ما عندك؟ اسمع ياصاح ، إننى رجل أومن بالعقل البشرى الذى جعله الله مناط التكليف ، أحيانًا أرتاب فى وجوده أو فى يقظته عند أغلب الناس ، وذاك سر اليأس من مجادلتهم .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

أنا ورثت الإسلام عن أبوى ، بيد أننى عندما كبرت أخذت أفكر فى هذا الميراث ، وأغوص وراء أسرار الوجود الأعلى والوجود الأدنى ، وأراقب طنين الأفكار والمذاهب المتطاحنة من حولى ، وأوازن وأرجح ، وأستقبل الشبهات بترحاب وأناقشها بتؤدة ، وبعد سياحة طويلة أدركت أن الله حق ، وأنه واحد ، وأنه أرحم بعباده من أن يتركهم دون دليل ، فى صحراء مليئة بالمتاهات ، فأرسل إليهم رسله معلمين ودعاة صادقين .

وعلى ضوء العقل المجرد نظرت إلى الأديان الشائعة بين البشر ، فما كان أكثر تنزيهًا لله ، وإشعارًا بعظمته ، وشرحًا لصفاته العلى ، وأسمائه الحسنى آثرته على غيره .

إننى أحيا فى كون كبير ، فى ملكوت لم يعرف الفلكيون أبعاده ، يتكون من ذرات يحار العقل فى أعمائها ، ولاريب أن رب هذا الملكوت أكبر منه وأعلم وأقدر .

وقد نظرت فى كتب المتحدثين عن الله ، فلم أجد كتابًا شرح أسرار العظمة الإلهية ، واحتدت نبرته وهو يرد ترهات الملاحدة ، ويصور معالم الكمال والجمال والجلال . . لم أجد أصدق من هذا القرآن الكريم فاتبعته .

إن العقل أيها الصديق هو الميزان المصدوق والحاسب المضبوط وأنا أومن به .

وهو من وراء تمسكى بالإسلام وبقائى عليه ، أنا لست مقلدًا أعمى لدين وجدت عليه آبائى ، اعتقادى أن الله سوف يحاسب الناس على حسب مواقفهم من عقولهم ، فمن بحث واجتهد ، وفكر وتعمق ، فهو واصل إلى الحق حتمًا ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)** ﴾[١] .

ولكن هناك مرضًا عقليّاً شائعًا بين الناس ، هو الكسل الفكرى ، المرء يحس الريبة فى أمر ما ، ومع ذلك لا يتحقق منه ، ويبقى على ما هو عليه ، حسبه أنه يأكل ويشرب!!

ومن حق رب الناس أن يغضب على امرئ لا يهتم بمعرفته ، وإنما همته فى تأمين حياته الأرضية وحسب .

فانظر ياصاحبى فى نفسك قبل أن تتحدث معى ، هل أنت عبد التقاليد الموروثة؟ أم أنت رجل حر الفكر ، تحترم العقل الإنسانى الذى هو أعظم هدايا الخالق للناس أجمعين؟

قال الرجل : أنا مثلك أومن بالله ، وبالسيد المسيح له المجد .

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .

قلت : حسنا فأنا أومن بالمسيح وبآبائه وأسلافه ، وبمن جاء بعدهم ، أنا مسلم دائرة إيمانه تشمل موسى وعيسى ومحمد ، أنا أدرك أن الله ـ كما قلت لك ـ أرحم من أن يترك عباده حيارى ، فبعث إليهم ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . .** ﴾[1] .

القرآن الكريم أمرنا أن نؤمن بجميعهم على اختلاف عصورهم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾[2] .

إلى هذا الإسلام السمح الواسع نحن ننتمى ، وإنه ليسرنا أن يعرف البشر أجمعون هذه الحقيقة ، ويتآخوا فى ظلالها الوارفة .

قال : معذرة ، إن إيمانكم ينقصه عنصر أساسى مهم ، إنكم تؤمنون بالمسيح الإنسان ، ولاتؤمنون بالمسيح الإله ، وهذا يجعل إيمانكم لا وزن له .

قلت مبتسمًا : هل ألوهية المسيح تخصه وحده؟ ألا تنال معه إخوته لأمه؟

قال : ما تعنى؟

قلت : لقد ولدت مريم عيسى وهى خطيبة ليوسف النجار لم يتصل بها ، وبعد أن تم نفاسها تم زواجه بها ، وأنجب منها ـ كما بقول «متى» أربعة أبناء آخرين هم يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا ، وهؤلاء هم إخوة الإله لأمه كما جاء فى كتابكم . يبدو أنهم لاهم آلهة ولا هم أنبياء . .

فتملك الرجل ضيق كتمه بقوة . وقال : تلك أخوة الجسد ، ولا صلة لها بالرب يسوع له المجد .

قلت له : هنا نختلف ، ولا أكرهك على ما عندى ، ولا تُكرهنى على ما عندك ، إن عيسى إنسان كريم ونبى عظيم ، وقد جاءت ولادته مخالفة لقوانين السببية ، فإن هذا القانون وإن حكم البشر لا يحكم واضعه الأعلى ، ومن قبل ولد آدم من غير أبوين ، وولدت حواء من غير أم ، فليولد عيسى من غير أب ، وقد عاصرت ولادة عيسى ولادة

(١) النساء : ١٦٥ . (٢) النساء : ١٣٦ .

أخرى ألغى فيها قانون السببية ولادة يحيى من أم عقيم وأب شيخ بلغ من الكبر عتيّاً .

إن الخالق الأعلى إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون .

أما أن تحاول إقناعى بأن رب السماوات والأرضين ، ومسخر النجوم فى السماوات تشرق وتغرب فى فضاء فوق أوهامنا ، هذا الإله احتبس تسعة شهور فى بطن امرأة ولدته وولدت غيره فهذا ما ننكره .

عيسى ، ياصديقى ، رجل رقيق نبيل ، ونحن نوقره ونقدره ، كما نقدر ونوقر إخوانه من الأنبياء الآخرين .

ما أشد بلاء أمتنا بهؤلاء الناس!!

قد يغضب المرء ويشتد غضبه لأنه لايعرف الحقيقة ، فإذا عرفها هدأ ولان كلامه!
إن الجهل يكمن وراء كثير من مساوئ الأخلاق ، وعوج المسالك وانتقاص الآخرين!

وعلاج الخلل هنا سهل ، لأنه لا يتطلب إلا تعريف الجاهل وكشف النقاب أمامه عما لا يراه . . المشكلة المحيرة أن يتمادى المرء فى خطئه بعد أن استبان له الصواب! كأنه لم يستفد شيئًا من العلم الذى آتاه . .!

يظهر أن بعض الناس يعانى من داء دفين فيه ، لا يشفيه العلم مهما كثر ، بل ربما أضر به ، وزاده انطلاقًا إلى ما يهواه ، ولعل هذا يفسر ما نقرأه أحيانًا من إسفاف لقوم ينتمون إلى أوساط علمية كبيرة!

طالعت أخبارًا مستغربة لأناس مرموقين ثبتت عليهم جرائم علمية لا تليق : منها أن أحد هؤلاء وهو طبيب عربى «سطا كالقرصان على سبعة بحوث لغيره ونقلها كلمة كلمة ثم نشرها باسمه فى مجلات علمية مختلفة»! والدكتور حصل على الدكتوراه من جامعة فرجينيا وقد تمكن من نشر ٦٠ بحثًا فى سنة ١٩٧٩ وحدها ، وعندما اكتشف أمر بحوثه السبعة المزورة طرد من جامعة فرجينيا ، وطلب إليه الاستقالة من برنامج كان مشرفًا عليه فى كلية الطب بجامعة بوسطن .

واعترفت أشهر كليتين للطب فى أمريكا ، وهما (جون هوبكنز وهارفارد) بوقوع تزوير لكثير من نتائج الدراسات الطبية التى قام بها أحد العلماء العاملين فيها!!

تمكن أحد الأساتذة المميزين من نشر ٤٠ بحثًا تحت اسمه مع أن جميع هذه البحوث قام بها زملاؤه فى العمل ، لدرجة أنه نشر فى إحدى المرات مقالاً باسمه وحده قبل أن ينشر مؤلفه الأصلى!!

من قديم قرر المحققون أنه لا تلازم بين المعرفة والفضيلة ، وإن كان العجب لاينقضى من تورط العارفين فى خطايا لا تتوقع منهم!

عندما انتقل المسلمون من مكة إلى المدينة انتظروا من بنى إسرائيل شيئًا من البشاشة والسماح ، فهم أهل كتاب ، وإذا ضنوا بمحبتهم فلن يضنوا بمهادنتهم! ولكن اليهود كانوا عند أسوأ الظنون ، وكان كيدهم للمسلمين أشد من كيد المشركين لهم . .

ونزل القرآن الكريم يصحح للمسلمين مشاعرهم الساذجة ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

عندما تتحرك النفس الإنسانية بالحقد وتدور على محور من هواها فلن يحجزها شيء .

كان إبليس يعرف الكثير ، ورأيه فى نفسه أنه أحق بالاختيار أو الاستخلاف من آدم .

كان يرى معدنه أصلب ، وطاقته أوسع ، وأنه فى أى نزال مع آدم وذريته سوف ينتصر بمكره ودهائه .

ولذلك قال الله : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[2] .

وقد ضحك من آدم وأخرجه من الجنة! ولا يزال يستغفل الكثير من أبنائه ويسد عليهم طرق النجاة .

ونسى إبليس الحقيقة الأولى فى علاقة الكائنات كلها برب العزة! نسى أن الله يقدم عبدًا منكسرًا يرنو إليه بأمل ، على عبد شامخ ينظر إلى نفسه بإعجاب!

نسى أن عاصيًا يتوب أحب إلى الله من طائع متكبر . .!!

إن كلمات آدم وزوجته أمام الله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[3] أكسبتهما الرضوان الأعلى . . أما كلمة إبليس ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[4] فقد هوت به إلى أسفل السافلين .

لا قيمة للعلم الواسع إذا لم تصحبه عبودية تامة لله . . أما عبادة الذات فقد تكون شر أنواع الشرك ، ولذلك أجمع علماؤنا على أن معاصى القلوب شر من معاصى الجوارح .

على أن منطق إبليس من أوله إلى آخره ملىء بالإفك والغباء! إن معدنه ليس أشرف من معدن آدم ، فآدم أوتى علما عجزت عنه الملائكة وهو دون ذلك كثيرًا ، وآدم يبنى وينشئ ، أما هو فيهدم ويدمر ، وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم!

---

(١) البقرة : ٧٥ .
(٢) الإسراء : ٦٢ .
(٣) الأعراف : ٢٣ .
(٤) الأعراف : ١٢ . ص : ٧٦ .

ربما مكث الفلاح عدة شهور فى حقله حتى يجعله مهتزاً بسنابل القمح ، وقد يجىء فاتك يشعل النار فى الثمار فيأتى فى بضع دقائق على الأخضر واليابس ، فأى الرجلين أشرف؟

وشىء آخر لابد من تقريره ، من الذى ألهم الذكى ذكاءه ، والعبقرى عبقريته؟ إنه الله! فكيف يقف الآخذ المتلقى متحديًا للمعطى ولى النعمة؟ ﴿ **قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾[1] .

وقد هُدى ابن عطاء الله السكندرى إلى هذا المعنى عندما قال : «**من مدحك فإنما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك**» .

إن ولدًا لآدم عرف الحقيقة التى تاه عنها المتكبر الطائش ، وقد استكبر إبليس على آدم ثم اشتغل بعد قوادًا لبعض ذريته! فما أحقر المصير القريب والبعيد!

ومن عجب أن «عبادة الذات» انتقلت من الشيطان الأكبر إلى بعض المتدينين الذين يدورون حول أنفسهم ، وبدلاً من أن يمكنوا الدين من إصلاح عيوبهم يفسدون هم العبادات بالرياء وإرضاء النفس!

وقد جاء فى السنة أن هؤلاء أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ، ونعوذ بالله من علم لاينفع .

الدين تواضع لله ، ودماثة فى الأخلاق ، واستغفار للفرد والجماعة وافتقار باطن وظاهر إلى رحمة الله ، وهؤلاء بقليل من العلم وكثير من الدعوى قطعوا تسعة أعشار المسافة إلى الجنة ، ثم نظروا للآخرين شزرًا .

إن وجدوا خيرًا تجاوزوه ، وإن وجدوا شرّاً ضاعفوه ، أو هم كما قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحًا

عنى وما سمعوا من صالح دفنوا

هل هم مستكبرون بعلم؟ نظرت فى علمهم فرأيت عقولهم صفرًا من علوم الكون والحياة ، وصفرًا كذلك من جملة العلوم الإنسانية ، أما علوم الدين فربما برعوا فى زاوية

(١) آل عمران : ٧٣ ـ ٧٤ .

ضيقة من زوايا الفروع الفقهية التى لا ترجح كفة يوم الحساب . . وما وراء ذلك خواء تعصف فيه ريح الوحشة .

ما أشد بلاء أمتنا بهؤلاء الناس!

فى هذه الأيام يستغل الغزو الثقافى الأقمار الصناعية لتسميم أفكارنا وتدويخ أمتنا ، ويجب أن تتضافر الجهود لتقوية الدفاع وإحباط الهجوم .

لقد تغير العدو ، وتغير الميدان ، وتغيرت الأساليب ، وأضحت خدمة القرآن والسنة بحاجة إلى فكر معاصر ونظر بعيد!

هيهات فلا وجود لمستحيل؟!

قلت لصاحبى : لقد أريتك سطورًا مطولة من كتابك! لم أجئ بشىء من عندى ولعلك شعرت بمدى ما عندكم من بعد عن الصدق ، وجراءة على الله ورسله ، وأظنك بعد ذلك سوف توافق على النتائج المحتومة لهذا الاستعراض الواسع .

وقال وقد خامرته حيرة ودهشة : إن ما وصفت به كتابى يرتد إلى كتابك كذلك ويرفع الثقة به!! لأنك تقرأ فيه ثناء على التوراة والإنجيل ، فكيف يكونان كما ذكرت مع الثناء عليهما والدعوة إلى التزامهما؟

قلت : ياصاحبى ، لاتخلط بين التوراة النازلة على موسى ، والإنجيل النازل على عيسى ، وبين ما لديكم من دخل ظاهر ، لايمت بصلة إلى وحى فى أكثر ما جاء به .

نحن المسلمين نؤمن بموسى وتوراته ، وعيسى وإنجيله .

ولايوجد مسلم يكفر بتوراة موسى أو بإنجيل عيسى ، لكن أين هما؟ هل التوراة المتحدثة عن رب يجهل ويندم ويعبث فيها هدى ونور؟

هل الإنجيل الذى لا توجد منه نسخة منسوبة إلى عيسى نفسه يمكن الأخذ عنه؟

إن ما لديكم صحف مشحونة بحكايات كثيرة ، تنسب إلى الله ورسله ما لايليق ، وما لايقبله العقل المجرد ، نعم ربما لمعت وسط ترابها بقايا وحى ، أما الركام السائد فهو ـ كما سردت عليك ـ مبتوت الصلة بالسماء .

وقبل أن أتحدث عن أسانيد هذه المرويات ، أنظر إلى المتون نفسها بما آتانى الله من فكر ، فإذا كان المتن مستحيل التصديق فكيف أقبله؟

هب أن يعقوب روى عن أبيه إسحق عن أبيه إبراهيم أن الجزء أكبر من الكل ، أو أن الله تناول الطعام مع إبراهيم ، أو صارع يعقوب فى حلبة ظلت دائرة الرحى طوال الليل . . هل يطلب إلى عاقل أن أصدق هذه الترهات لأن الرواة ثقات؟!!

أى ثقة فى هذه المنقولات المحالة؟ إن الكذبة لايصعب عليهم اختلاق الأسانيد لما يقولون على الله بغير علم!



لكى تعرف الفروق فى الطرق التى وصلت بها الكتب السماوية يجب أن تدرس التاريخ ببصيرة . إن القرآن النازل على محمد ﷺ كان صاحب الرسالة يستمع إليه من أمين الوحى ، ثم يستدعى الكتبة فيكتبون والحفظة فيحفظون . .

كانت له شرائط مسجلة فى الأدمغة ، وسطور حافظة فى الصحف . .

وفى كل يوم ، بل فى كل وقت من الصلوات الخمس صباحًا ومساءً كان القرآن يتلى ، وكان دوى الحفظة لا ينقطع ، وكانت الصحف تنشر فى كل مكان ، وكانت الجموع تجود القرآن تجويدًا ، وكان قوامو الليل يملؤون محاريبهم به . .!!

وتحول القرآن من كتاب شعبى متداول ، إلى دستور للحكم تحكم به دولة حكمت جزيرة العرب أولاً ، ثم حكمت الشرق الوثنى والغرب المسيحى فى القارات المعروفة .

مصحف واحد لا اختلاف فيه ولا خلاف عليه ، على امتداد الزمان والمكان .

وما رزق كتاب من الكتب حفظة تتلوه عن ظهر قلب إلا هذا الكتاب ، من يوم بدأ نزوله حتى هذه الساعة .

فإذا تناول أحد نسخة من المصحف ليطالع ، وجد قرآنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ليست فيه لفظة تشين ذا الجلال والإكرام ، هدير لا ينقطع بعظمة الله ، وعلوه فوق خلقه أجمعين ، واحد تعنو له الوجوه ، وتسبح بحمده الأشياء ؛ وتتقرب إليه الملائكة ويقف المرسلون أمامه خاضعين خاشعين .

فى كتاب محمد ، لا ذكر لمحمد إلا أنه عبد من عباد الله ، إن زاد قدرًا على أحد فبقدر ما يبطن فى ضميره ، ويبدو على سلوكه من خشية لله ، وتزلف إليه ورجاء فيه .

الرسل كلهم ، موسى أو عيسى أو محمد ، وكل من سبقهم عبيد ، لو شاء الجبار إبادتهم ما بقى منهم أحد ، إنما يستبقيهم ويكرمهم بمحض رحمته .

أين من هذا ما ترويه التوراة ، أن موسى زجر الله فازدجر ، وتراجع وندم . .؟!! تعالى الله علوًا كبيرًا ، وهاك النص : (فقال الرب لموسى : اذهب انزل ، لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر ، لموسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم ، فأصيرك شعبًا عظيمًا ، فتضرع موسى أمام الرب إلهه ، وقال : لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض . ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ، اذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل ، عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك ، وقلت لهم : أكثر نسلكم

كنجوم السماء وأعطى نسلكم كل هذه الأرض التى تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد . فندم الرب على الشر الذى قال أنه يفعل بشعبه ، فانصرف موسى ونزل من الجبل) .

إن أحدًا فى الأرض أو السماء لا يعامل الله بهذا الأسلوب النابى ، إن الله أجل شأنًا وأعلى قدرًا من أن يغضب ثم يندم ويتراجع كأنه إنسان ثاب إلى رشده بعدما عزب عنه . .

وهذه المرويات كلها من صنع بشر يريدون إعزاز جنسهم بالأكاذيب ، والاستعلاء على غيرهم بالباطل ، وبنو إسرائيل كبنى إسماعيل كغيرهم من البشر ، لا يرتفع أحدهم إلا بالتقوى والأدب ، إن التوراة النازلة على موسى اختفت مع تقلب الزمان ببنى إسرائيل ، والذى بقى منها هو هذا الميراث المشوب الذى طغى فيه كلام البشر على الوحى الحق ، وكادت تختفى فيه ذرات السكر داخل مسحوق من الصخر والتراب .

أما الإنجيل فنسأل مخلصين : أين هو؟ إن الأناجيل الأربعة الموجودة هى قصص كتبها تلامذة عيسى ، تضمنت ما يقال إنه كان يدعو إليه ويبشر به .

حسنًا ، فلنتنازل عن المطالبة بالإنجيل نفسه! ولنحاول البحث عن بقايا الحق فيما كتبه التلامذة المخلصون .

إن عيسى وصحبه هم من بنى إسرائيل ، كانوا يتكلمون العبرية بلهجة آرامية ، والسؤال : أين ما كتبه هؤلاء الحواريون بلسانهم الأصلى؟ إن الأصل مفقود!!

فما أسماء الذين ترجموا عنهم ، ومدى الثقة فيهم؟

إنهم مجهولون!!

إن أى منصف يحس بأنه أمام مواريث معضلة ، التأمل فى متونها يدعو إلى الرفض .

فإلام نُدعى نحن المسلمين الذين نقبل تسليط الأضواء كلها على كتابنا سندا ومتنًا؟ إلام نُدعى؟ إلى الأوهام!

هاتوا خيرًا مما عندنا ونحن نتبعكم ، وهيهات ، فلا وجود لمستحيل!!

هل نستطيع أداء رسالتنا ونحن صرعى هذه الغفلة؟

حاجة الحروب إلى المال مثل حاجتها إلى الرجال ، ومن خاصم فى حق أو باطل فليتوقع سيلاً من النفقات يقوم به شاء أم أبى ، والمؤمنون والكافرون جميعًا يتوقعون مع اشتعال الحروب سوء المنظر فى الأهل والمال . .

وما الذى يبعث على الحروب؟ فى منطق المظلوم رفض الضيم ، ومقاومة الظلم ، وفى منطق المحقين صون الحقيقة ودحر الفتنة ، وإلى جانب هذا وذاك يوجد من يشنون الحروب كما قال تعالى : ﴿ ..**خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**.. ﴾[1] .

ويقول شوقى مناجيًا الرسول الأعظم :

الحـــرب فـى حـق لـديـك شـــريعـــة
ومـن الســمــوم الـنـاقــعــات دواء

ويوجد من ينساقون إلى القتال وهم فى نشوة من القوة المواتية ، وأمل فى الغنيمة المغرية ، حتى إذا خاضوها ، و بدأت المغارم تتتابع برد الحماس ، وانجلت الغشاوة ، وشعرت الحلوق بالمرارة .

ولذلك يقول الشاعر فى وصف الفتن الدامية ، ومواقف الناس قبلها وخلالها :

الحـــرب أول مـــاتـكـون فـــتـــيـــة
تســعى بزينتــهـــا لـكـل جـــهـــول!
حـــتى إذا اشــتــعـلت وشب ضـــرامـــهـــا
ولـت عـــجـــوزا غـــيـــر ذات حـلـيـل
شـــمـطاء يـنـكـر لـونـهـــا وتـغـــيـــرت
مـكـروهـة لـلـشـم والـتـــقـــبـــيـل . . .!

---

(١) الأنفال : ٤٧ .

ومع أن الحروب شؤم وعقباها وخيمة ، فإن هناك من سعروا الحرب دون مبالاة ، وآثروا أن يهدموا القصور وينشئوا القبور ، ويروا أجيالاً تعلوها الكآبة والأحزان .

وأعتقد أن أشرف الحروب ما قام بها الصحابة والتابعون عندما حرروا الشعوب والأقطار من قيود الفرس والرومان ، وإن أخس الحروب أن يعتدى مسلم على مسلم حتى يضطره ـ فى سبيل الدفاع عن نفسه ـ إلى الاستعانة بالأجانب ، والمضطر يركب الصعب . . .

وظاهر أن الحرب قسمان : حرب فى سبيل الله ، وحرب فى سبيل الطاغوت ، الأولى تنشب لتكون كلمة الله هى العليا ، ولتصون حقوق عباده ضد المعتدين ، والأخرى تنشب لتكون العزة لفرد ما أو شعب ما يريد الاستكبار فى الأرض . .

وقد خاض المسلمون الأولون حروبًا شتى ضد الطغاة ، وتحملوا مغارم ثقيلة لتوطيد الحرية والعدالة ، وإبعاد الفساد والاستبداد وقيل لهم : ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . .** ﴾[1] .

وهددوا بالضياع المادى والأدبى إن هم تراخوا وبخلوا . . .!! قيل لهم : إن تقاعستم ذهب الله بكم وجاء بآخرين أفضل منكم : ﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)** ﴾[2] .

والواقع أن الحروب ـ كما قلنا ـ تتطلب البذل الواسع ، وقد كان ذلك معروفًا يوم كانت الحروب بدائية محدودة الخسائر ، لم يقصر خائضوها فى نفقة ، وعندما ضربت الحروب بين الإسلام والوثنية سخرت قريش قدرتها الاقتصادية فى تمويل القتال ضد الرسول وصحبه ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ . .** ﴾[3] . جاء ذلك فى التعقيب على هزيمتهم ببدر الكبرى .

وواجه المسلمون فى المدينة عدوا آخر هم اليهود ، وكانوا على جانب من الثراء والمنعة يغرى بالتطاول والعناد ، وقد نظرت فى سورة آل عمران التى شرح نصفها الأول العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب ، فرأيت أن اليهود أغراهم غناهم بالتكذيب والكفران ، وظنوا

(١) التوبة : ٤١ . (٢) محمد : ٣٨ . (٣) الأنفال : ٣٦ .

أن كفتهم سترجح فى أى قتال ، فنبههم الله سبحانه إلى أن هذا الغرور لا يجديهم شيئًا . . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ** ﴾[1] . وقال لرسوله ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ . .** ﴾[2] .

ومع أن الآيات فى ظاهرها عامة إلا أن مناسبات النزول ودلالات السياق تجعل اليهود أول من يوصفون بها وتنطبق عليهم .

وإذا كان الكفار يفرغون وسعهم فى مقاتلة المؤمنين ، فهل يجوز أن يبخل المؤمنون بقليل أو كثير؟ إن القتال لاسيما فى هذا العصر يتطلب أمدادًا من الأموال لا يغيض لها نبع ، ولايجوز فيها شح . .

وقد بذل السابقون ما يملكون حتى كسبوا معاركهم ، وهنا أجدنى مسئولاً عن تفهيم العالم الإسلامى ما لديه من إمكانات يستطيع بها أن يكسب معاركه . .

إن عدد المسلمين أربى قليلاً من عدد الصينيين والصينيون يستوطنون شرق آسيا وحده ، وقد يتسللون إلى الجنوب ، وهم أفضل حالاً منا نحن الذين نسكن أكثر آسيا وإفريقيا وتزيد أرضنا أضعافًا على مساحة الصين!

فى قرون طوال كان البحر الأبيض والأسود والأحمر بحيرات إسلامية ، وكان شرق المحيط الهندى بحرًا للعرب ، كما كان غربه مجالاً للأساطيل الإسلامية بين الجزيرة وإندونيسيا والملايو ، ومن وراء ذلك الفلبين .

إن العالم الإسلامى كان ولايزال مالكًا لأحشاء العالم ، وبين أصابعه ثروات طائلة من كل أنواع المال .

إننا قادرون لو شئنا أن نمسك بالزمام ونقود أنفسنا ، فمتى نشاء؟ وهل نستطيع أداء رسالتنا ونحن صرعى هذه الغفلة؟

---

(١) آل عمران : ١٠ .

(٢) آل عمران : ١٧٦ .

يطلبون ملحقًا للامتحان..!

التفسير الموضعى لابد منه قبل الشروع فى التفسير الموضوعى ، فإنه فهم جيد للآية أو لجملة الآيات التى تتناول قضية واحدة!!

ويتعاون التفسير البلاغى والفقهى وغيرهما على توضيح الرؤية وتحديد المعنى ، ويطلق التفسير الموضعى على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز : أولهما تتبع قضية ما فى القرآن كله ، وشرحها على ضوء الوحى النازل خلال ربع قرن تقريبًا . . والآخر النظر المتغلغل فى السورة الواحدة لمعرفة المحور الذى تدور عليه ، والخيوط الخفية التى تجعل أولها تمهيدًا لآخرها ، وآخرها تصديقًا لأولها ، أو بتعبير سريع تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها . .

ولعل أفضل نموذج لهذا التفسير ما قدمه الشيخ محمد عبدالله دراز من تفسير لسورة البقرة فى كتابه النبأ العظيم ، فقد ضم معانى السورة فى باقة واحدة متكاملة تجعلك بنظرة ذكية تدرك أبعادها . وإذا تم ذلك فى أطول سور القرآن الكريم فكيف بغيرها؟

أما التفسير الموضوعى الأول فإن الشيخ محمود شلتوت عرض نماذج له فى كتابات شتى ، والرجل له بصيرة حادة فى التفسير تدل على رسوخ قدمه . وأرى أن التفسير الموضوعى بشقيه جدير بعناية الأمة ، فإن المستقبل له ، ولعله فى عصرنا أقدر على خدمة الإسلام وإبراز أهدافه .

وقد عن لى أن أتتبع معنى واحدًا فى كتاب الله وأرصد مواقعه فى شتى سور القرآن فعدت بحصيلة حسنة .

نحن نشعر بأن الخاطئين يحسون الندم يوم القيامة على ما اقترفوا من آثام ، ويضمون إلى هذا الندم أمنية يستحيل تحقيقها ، هى أن يعودوا مرة أخرى إلى الحياة الأولى كى يحسنوا بدل ما أساءوا .

أى أنهم يطلبون ملحقًا للامتحان الذى سقطوا فيه ، وهيهات!

كم مرة تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم؟ فلننظر فى المصحف الشريف حسب ترتيب السور .



١ ـ فى سورة البقرة يغتاظ الأتباع من تنكر السادة لهم يوم الحساب فيقولون : ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾[1] .

٢ ـ فى سورة الأنعام يتمنى المشركون لو عادوا ليصدقوا بما كانوا به فى الدنيا مكذبين ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

٣ ـ فى سورة الأعراف يبين الله أن القرآن الكريم حوى من النذر ما يبعث على الارعواء ، ويسوق إلى الهدى ، ولكن الناس صدوا عنه ، وعندما يصدمهم الوعيد الذى استخفوا به يطلبون النجاة ﴿ . . يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . . ﴾ ؟[3] .

٤ ـ ويتضح ما يطلبون فى سورة إبراهيم عندما يصيح الظلمة : ﴿ . . رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ؟[4] .

٥ ـ ويجىء هذا المعنى فى خلاصة وجيزة فى صدر سورة الحجر ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ . . ﴾[5] .

أما سورة المؤمنون ففيها تفصيل يظهر فى موضعين :

٦ ـ ضراعة الكافر أن يرجع إلى الحياة ليصلح ما أفسد ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[6] .

٧ ـ والموضع الآخر فى دعاء أهل النار عندما يحيط بهم العذاب ويصرخون من شدة الألم ﴿ . . رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[7] .

---

(١) البقرة : ١٦٧ . (٢) الأنعام : ٢٧ . (٣) الأعراف : ٥٣ . (٤) إبراهيم : ٤٤ .
(٥) الحجر : ٢ ، ٣ . (٦) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ . (٧) المؤمنون : ١٠٦ - ١٠٨ .

٨ ـ أما فى سورة الفرقان فإن الذكرى تبدو فى مسالك متناثرة تخامر الكافر عن الأيام التى خلت فهو يقول آسفًا : ﴿ **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي..** ﴾[1] لقد فات الأوان ولات ساعة مندم .

٩ ـ وفى سورة الشعراء ينظر المشركون إلى آلهتهم وسادتهم فى جهنم يتعذبون معهم ، لقد استوى ﴿ .. **الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[2] . وهيهات لاعودة لاستئناف حياة أرشد . .

١٠ ـ وفى سورة السجدة يصرح المجرمون بأمنيتهم ويسألون الله أن يمنحهم فرصة أخرى ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾[3] ونلحظ أن السكوت هو الجواب فى هذه السورة ، كأنهم أحقر من أن ينتظروا ردًا ، وهذا إيلام أوجع .

١١ ـ أما فى فاطر فقد سمعوا إجابة توجب الحسرة ، وتضاعف العذاب ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾[4] .

١٢ ـ ونلحظ فى سورة الزمر أن الله يحذر عباده من التعرض لهذه المواقف اليائسة ، وكذلك يدعون إلى التسوية قبل أن يصحوا هناك على غد قاتم ، يستحيل معه استدراك ما فات ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[5] .

لماذا شغلت نفسى بهذا الإحصاء؟ لأن المسلمين وقر فى نفسهم نوع من الجبرية التى أفقدتهم الرشد ، فحسبوا أنهم مسيرون لا مخيرون .

---

(١) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ . (٢) الشعراء : ٩٩ - ١٠٢ . (٣) السجدة : ١٢ .
(٤) فاطر : ٣٧ . (٥) الزمر : ٥٦ - ٥٨ .

منساقون لا قادرون أحرار . .

هل يجرؤ أحدهم يوم القيامة على اللجوء إلى هذا الكذب؟

إن أمتنا استنامت فى هذه الحياة لأفكار جعلتها تحيا فى غيبوبة مهلكة ، ولن تصح لها دنيا ولا دين إلا إذا عقلت كتابها وصححت موقفها منه .

ومن الممكن استخراج قضايا كلية وجزئية من القرآن الكريم على النحو السهل الذى سقناه هنا .

ولن يعطيك القرآن بعضه إلا إذا أعطيته كلك .

فيا موت زر.. إن الحياة دميمة

«لوط» هو ابن أخى إبراهيم الخليل ، كان مثل عمه داعيًا إلى الله فى بيئات سيئة ، تفرد فيها بعمق اليقين ، وطهارة الذل ، وشرف السيرة!

وكانت المدينة التى يجاهد فيها سافلة الطباع ، شاع فيها الشذوذ ، واستعلن فى الأندية ، وكأنما أصبح تقليدًا ينساق إليه الغريب والقريب!!

وقال لوط لقومه : ﴿ . .إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، فنجاه الله من القرية الظالمة . وأمر بإهلاك أهلها وجعل عاليها سافلها . .

والسياق التوراتى يشبه السياق القرآنى فى أغلب الحوادث ، إلا فى خبر من أفحش الأخبار ، انفردت به التوراة فزعمت أن لوطًا سكر وانتشى فأنجب من كل بنت من ابنتيه ولدًا كان رأسًا لقبيلة كبيرة!!

وتزعم التوراة أن ذلك تم ولوط تحت وطأة الخمر لا يدرى ما يصنع . والسبب فيما تواطأت عليه البنتان أنهما تريدان نسلاً من أبيهما تحيا به الذرية ، ولا يوجد رجال!

كيف لايوجد رجال على ظهر الأرض؟ هل إذا دمرت القرية الفاجرة خلت الدنيا من القرى الأخرى الطاهرة؟ أما كان المفروض فى أسرة لوط أن ترحل إلى مكان آخر تجد فيه بغيتها؟

إن «التوراة» آثرت أن تختم جهاد لوط بهذا الختام الأسود القبيح والقصة كما روتها «صعد لوط من صوغر ، وسكن فى الجبل ، وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى موغر ، فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقى أبانا خمرًا ونضطجع معه ، فنحيى من أبينا نسلاً» .

وكاتب هذه القصة يريد الإساءة إلى قبيلتين كبيرتين ، يكرههما بنو إسرائيل ويبحثون عن عيوب تلصق بهما تنكس رؤوسهما فافتروا هذا السباب الشنيع على لوط وابنتيه ، كما فعلوا من قبل مع أعدائهم الكنعانيين . .

على أساس أن أولاد الزنا ملعونون لا تكون لهم سيادة ولا يولون سلطة!

(١) الشعراء : ١٦٨ ، ١٦٩ .

ومع معرفتنا بأن هذا الزعم فاسد وأن ولد الزنا لا يؤخذ بجرم أبويه ، فنحن نكذب الخبر كله من ألفه إلى يائه . فما سكر لوط ولا زنى ولا ألحق عارًا بابنتيه ، والويل يوم اللقاء لمسطر هذه الأكاذيب . .

ويدركنا العجب عندما يتحول الكذب إلى خليقة تجر على صاحبها نفسه المعرة ، فإن بنى إسرائيل عندما يكتبون تاريخ أبيهم يعقوب ، لا ينسون أنه من الشطار الذين يختطفون ما تهفو نفوسهم إليه ، ولذلك فقد اختطف النبوة من أخيه الأكبر ، ودخل التاريخ من باب الزور . .!!

إن صور التزوير والادعاء تلقانا كثيرًا فى هذه الحياة . ومن أمد قريب قرأت أن طبيبًا مزيفًا بلغت الجراءة به أن شارك لفيفًا من الأطباء فى إجراء جراحة لأحد المرضى .

وبعض كتبة المحامين يرون أنفسهم أقدر من المحامين على الدفاع والاستدلال .

وقد رأيت من واتته الظروف فسرق مناصب كبيرة وجلس فى سدتها بادى القدرة والأبهة .

إننى أفهم أن تسرق بضاعة من دكان ، أو سيارة من حارة ، أو فكرة من مؤلف ، أو كتاب من واضعه!! ولكننى لا أفهم أبدًا أن تسرق النبوة ، وأن يرشح السارق بعد الاستحواذ عليها لتلقى الوحى وقيادة الناس باسم الله!!

ولكن العهد القديم حكى لنا هذه الواقعة! وقرر أن يعقوب خدع أباه إسحاق ، واستلب النبوة التى هى حق أخيه الأكبر عيصو!!

كان إسحاق قد عمى! وفى اليوم الذى قرر منح بركات النبوة لصاحبها عيصو ، جاء يعقوب على عجل وقلد صوت أخيه ولبس جلد معز ـ لأن عيصو كان أشعر ـ واقترب من أبيه الأعمى ، وهو يتظاهر بأنه عيصو نفسه!

وانخدع إسحاق ، وسرق يعقوب النبوة ، وعرف عيصو ، بعد فوات الأوان ، أن أخاه استولى على حقه ، ولكن الرواية كانت انتهت والجريمة وقعت ، وأضحى يعقوب نبيّاً عن طريق الاحتيال ، ثم نال لقب إسرائيل ، ثم قامت باسمه دولة تؤكد أن الباطل قوة إذا استعان بالمكر والدهاء ، وأن الحق ضعف إذا لزم السذاجة والاسترسال .

كيف تسرق النبوة؟ إن اللص يخدع الناس ، فكيف يتصور لص أنه يخدع الله؟ وهل العبد يعرض نفسه على ربه بهذا الأسلوب ، وهل ينتظر رضاه وهو يخدعه بهذه الطفولة؟

إن تصوير العبودية والربوبية على هذا النحو نوع من الخلل الدينى ، برع فيه اليهود ، وصدقه من ظن الدين غيبيات مبهمة لاصلة لها بعقل ولا عدل . .

إن كتاب العهد القديم مثال صادق لفكرة اليهود عن الأخلاق والقيم ، الناس يتهمون السياسى الإيطالى «ميكيافيللى» بأنه صاحب مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» وهذا خطأ ، فالرجل ينقل كلمته عن أسلوب العهد القديم ، فى تنفيذ الأغراض بأى خطة ، وأقصر طريق . . أما الشرف فشىء فى الكتب لا فى الواقع .

مع هذا السياق الخسيس تقرأ ما افتراه اليهود على داود ، أنه اغتصب امرأة أعجبه جمالها وبعد ما أتم جريمته احتال على قتل زوجها ـ وكان فى ميدان الحرب ـ حتى تخلص له!!

وزين له هذا كله أنه إسرائيلى ، وأن الأسرة التى مزق أحشاءها من الحيثيين ، فلا حقوق لها . .

إن بنى إسرائيل إذا شاؤوا فلا يجوز لجنس أخر أن يعترض مشيئتهم ﴿ . . **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (١) .

إن أحقر حشاش لايقترف الجريمة التى نسبها اليهود إلى داود صاحب المزامير التى يعبدون الله بغنائها وتلحينها! ونحن المسلمين لا نصدق حرفًا من هذا الإفك ، ونصون سيرة الأنبياء عن هذا الدنس كله ، ولكننا نلفت النظر إلى طبيعة المنهج الأخلاقى عند القوم ومن يؤيدهم ، ويشد أزرهم ويحمى ظهرهم ويدعم سياستهم .

وفى العهد القديم تفصيل ما أوجزنا ، وما نسبه الرواة إلى المرسلين من إفك خسيس .

إنهم جميعًا كذبة على الله ورسله ، وما أحسب عيسى عندما ينزل إلا مقاتل هؤلاء جميعًا حتى يطهر الأرض من شركهم وإفكهم .

إنهم يتظاهرون ضد الإسلام يحاولون إزالته! ولو زال الإسلام وخلت الحياة منه ، فماذا يبقى مما يشرف الدين وتزكو به الدنيا؟

ماذا يبقى بعد زوال العقل والعدل؟

يبقى منهج إسرائيل فى الاختطاف؟ ومنهاج داود فى الإسفاف؟ كما يتوارث الأفاكون!!

فيا موت زر ، إن الحياة دميمة

ويا نفس جدى إن دهرك هازل!!

---

(١) آل عمران : ٧٥ .

المخلوقات.. ليست سيارات انقطعت صلتها بمصنعها

مصنع السيارات في أوروبا يخرج السيارة قوية الآلات أنيقة المظهر ، ثم تنقطع صلته بها بعد بيعها ، فليس يدرى من راكبها ولا كم ميلاً قطعت؟ ولا أين تنطلق أو تتوقف؟ لقد صنعها وغابت عنه وغاب عنها .

هل العالم كله ـ وهو صنع الله الذى أتقن كل شىء ـ يسير على هذا الغرار؟ اكتسب وجوده من خالقه ثم سار وحده مستقلاً بنفسه؟ كلا كلا!!

إن الإشراف الأعلى يكتنف حركاته وسكناته من جميع جهاته ، وقد اتفق المؤمنون على أن الكون يستمد بقاءه ونظامه لحظة فلحظة من رب العالمين .

فالقمر يدور حول الأرض ليست له عيون يبصر بها المسار ، ولا به خزانات وقود يقطع بها الطريق ، وإنما يشرق ويغرب بهداية خالقه .

والأرض ، التى نحيا فوقها ، مهاد جديرة بالدراسة بدءاً من قشرتها اليابسة إلى مركزها الحافل بالمواد المصهورة والسوائل الحارقة ، إن العلم الإلهى يخترق أعماقها ، ويضبط كل ذرة فيها ، لو شاء زلزلها فهلكنا أو ثبتها فبقينا .

وفى القشرة الأرضية ألوف من أنواع النباتات بين أزهار وحشائش وحبوب ، كل نبتة فيها تحت سمع الخالق وبصره ، منذ وضعت البذرة إلى أن تم الحصاد ، وكذلك سائر الأحياء .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم ﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ** ﴾[1] .

إن بيوتنا تضاء من تيار كهرباء يجىء من خارجها ، وقد قرر العلماء أن وجود العالم ليس من ذاته ، وإنما هو مفاض عليه من البديع الأعلى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾[2] .

---

(١) فصلت : ٢٧ . (٢) فاطر : ٤١ .

أعرف أنه ليس فى هذا الكلام جديد وما أحسب مسلمًا يمارى فيه! ولكن بعض الناس تساءل : كيف يدير الله العالم؟ كيف يدبر أمره؟ كيف يضحك ويبكى ويميت ويحيى؟ كيف تتألق صفاته بالمجرات الكبيرة فى الوقت نفسه الذى تتعلق فيه بالذرات التى لا تكاد تبين؟

إنه من الممكن أن أحيا دون الاشتغال بهذه الأسئلة! فأنا أحيا دون أن أعرف سر الروح السارية فى أوصالى، وأحيا دون أن أعرف سر الضوء الذى يغمر الآفاق . هذه الأسئلة يدفع إليها الفضول والتطاول . . والذين اشتغلوا بها وبنوا عليها نتائج مهمة انتهوا إلى متناقضات، فمنهم من دان بوحدة الوجود وظن علاقة الله بالكون كعلاقة الروح بالجسد وهذا جنون وقع فيه بعض المتصوفة . ومنهم من ألقى قانون السببية وظن أن الإيمان لا يصلح أو لا يتم إلا إذا قلت فى كل شىء : الفاعل هو الله!

فإن أفهمته أن هناك شبكة من الأسباب ينتظم بها الوجود قد تكون غطاء للقدرة العليا ولكن القادر الأعلى قد ناط بها الحياة والموت والحركة والسكون . . ظن بك الظنون .

إن القرآن الكريم تحدث عن الأسباب التى تكمن وراء ما نرى وما لا نرى من الموجودات . يقول تعالي ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا** ﴾[1] .

ويقول ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ** ﴾[2] .

وقد تقرر فى تجاربنا أن الماء يروى، وأن النار تحرق وأن السكين يقطع، وأنه أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشى!

وقد نسب القرآن الكريم الأعمال الإلهية إلى الأشياء التى لا تعى ﴿ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا . .** ﴾[3] وقال العلماء : إن هذا على سبيل المجاز والفاعل الحقيقى هو الله سبحانه، والأسباب كثيرة ومعقدة ومتراكبة، ونحن ننسب النتائج إليها من باب الإلف والحس . . فلابد فى الذرية من زواج ولكن ما يصنع الزوجان؟ إنهما عند التأمل لايختلقان شيئًا! وهل التراب والماء حول بذرة القمح يصنعان السكر والنشا والعناصر الأخرى فى حبة القمح؟

إنه فى ذراع من الأرض تنبت شجيرات متجاورة للورد والنعناع والقرنفل والجرجير! ما الذى هدى التراب إلى التفاعل مع كل شجيرة حتى تنضج وفق خصائصها وطعومها وروائحها؟

---

(1) النبأ : 14، 16 .   (2) النحل : 11 .   (3) الكهف : 32 .

الواقع أن غشاء الأسباب قد يرق جداً أمام بعض العيون فلا ترى إلا الصفات الإلهية وقد يغلظ أمام عيون أخرى فلا ترى إلا الأسباب الحسية .

وبعد أن تؤمن بأن الله خالق كل شيء . . عبر عمّا ترى بما تريد فلا حرج . وقد تمهلت كثيرًا فى تصديق ناظم العقائد عندنا :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة ... فذاك كفر عند أهل الملة

ومن يقل بالقوة المودعة ... فذاك بدعى فلا تلتفت

وربما قال بعضهم إن الجاذبية الأرضية بطبيعتها تضم الأشخاص والأشياء إلى هذا الكوكب! وتسترد ما يحاول الإفلات منه وتسقطه!

لاحرج عليك أن تقول هذا مادمت مؤمنًا بقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا** ﴾[1] هذا الكفت هو الجذب والضم من صنع الله وحده وقانون الجاذبية تصوير له ، فإذا نسبت إليه ما يقع فلا حرج . والتعبير مجازى ، وقانون الأجسام الطافية ثابت إنه معرفة لبعض خصائص الماء فى حمل الأوزان والأحجام وهو من دلائل القدرة العليا ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام** ﴾ تستطيع أن تنسب سبح السفن إلى السبب أو إلى خالق السبب متنقلاً بين الحقيقة والمجاز والمهم اليقين بعمل الله ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾[2] .

قال لي أحد التلامذة : لا مجاز فى القرآن . وقلت له : أين الأغلال فى أعناق الكافرين الذين قال القرآن عنهم : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ** ﴾؟ وأين السدود التى تحيط بهم من خلف وأمام فى قوله سبحانه : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾[3]؟

يابنى إن المجاز موجود فى الكتاب والسنة وآداب العرب بل موجود فى ألسنة الناس كلهم من عجم وعرب .

الغريب أن الطالب شرع يقاوم بما لايفهم فانصرفت عنه . حتى لايتهمنى بالكفر وما أيسر ذلك على بعض الناس!

---

(١) المرسلات : ٢٥ . (٢) الأعلى : ٢ ، ٣ . (٣) يس : ٩ .

لذات متشابكة لا انفصام بينها

ما طبيعة الجزاء الأخروى! هل هو روحى أم مادى؟ وهل خلق الإنسان من روح وجسد شىء يعاب؟

كذلك يرى بعض الناس! بل كذلك قال أعداء الأنبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله ، مقترحين أن يكون الرسول ملكًا ﴿ **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا** ﴾[1]!! وكما استنكروا أن يكون المرسلون بشرًا يأكلون ، استنكروا عليهم الزواج ، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الإنسان الكبير ، وعليه ، إذا أراد الكمال ، أن يكبتها . وقد رد القرآن هذه المزاعم ، وبين جل شأنه أن المصطفين الأخيار من عباده كانوا رجالاً ناضجى الغرائز ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ..** ﴾[2] ومع ذلك فإن بقايا من منطق الجاهلية القديمة لاتزال عالقة بأذهان الكثيرين ممن يحسبون السمو البشرى لا يتم إلا بإعلان حرب مجنونة على البدن توهى قواه وتدوخ غرائزه .

بل سرى ذلك الفكر إلى بعض المذاهب الدينية ، وانبنى عليه أن التقوى فى هذه الحياة تعنى الرهبانية ، وأن السمو فى الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك ؛ فلابد أن يكون النعيم الموعود روحانياً محضًا ، وكذلك العذاب المرصد للأشقياء!!

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة ، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة ، فإنه رفض كل هاتيك المقدمة والنتائج وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الإنسان كائنًا متميزًا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية فى شخصيته ، بها جميعًا يسمو أو يهبط وبها جميعًا يثاب أو يعاقب .

أو كما يقول الأستاذ العقاد : «ليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنسانى إلى ما دون طبيعته ، ولكن ما يمكن به ارتفاع الإنسان وهبوطه منوط بالتكليف ، وقوامه الحريه والتبعة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة ، وهو بالتكليف

(١) الفرقان : ٧ . (٢) الرعد : ٣٨ .

قابل للهبوط إلى أسفل السافلين ، وهذه الأمانة هى التى رفعته مقامًا فوق الملائكة أو هبطت به إلى زمرة الشياطين» .

ليس الهبوط أن يشتهى الإنسان طعامًا أو امرأة إنما الهبوط أن يأكل المرء من سحت أو يتصل بمن لا تحل له .

فإذا طعم من حلال أو اتصل بأنثى لتكون زوجة يسكن إليها ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شىء فى ذلك أبدًا .

لقد أخطأ كثير من المنتسبين إلى الدين فى احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامى لا يحصل إلا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الأخروية لا وجود للبدن فيها وأن النعيم أو الجحيم معنويان وحسب!!

وقد سرى هذا الخطأ ـ كلاً أو جزءًا ـ إلى بعض متصوفة المسلمين فاعتنقوه وحسبوه دلالة ارتقاء وتجرد فظلموا بهذا المسلك دينهم ، وأوقعوا خللاً سيئًا فى موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز .

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة فى الجور على الطبيعة البشرية ، وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلبًا لجنته ، أو تدع عصيانه خوفًا من ناره حتى توهم الناس أن الأمل فى الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين!!

وهذا الضرب من التفكير لا يمكن وصفه بأنه تفكير إسلامى . إنه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما يحاكم إلى العقل والنقل على سواء .

ولنبدأ بالنقل . . يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء . فيذكر لنا أن رجلاً مؤمنًا بحث عن صاحب له كان ظاهر الإلحاد والفسوق ، فوجده قد استقر فى سواء الجحيم! فحمد الله أن لم يتأثر به : ﴿ **قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾[1] .

(١) الصافات : ٥٦ ـ ٦١ .

النجـاة من النار أمل ضخم لمثله يعمل العـاملون ، فكيف يجيء أحد من الناس ، رجلاً أو امرأة ليقول ، بل هو أمل تافه؟

ويقول الله جل جلاله : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾[1] .

فالرحيق المختوم يسقاه قوم تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، وفى هذا الجزاء الجزيل ينبغى أن يتنافس المتنافسون! فكيف يجيء إنسان رجلاً كان أو امرأة ليقول : لا أعبد الله طلبًا لشيء من ذلك!! إن هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الأعلى أو العقاب السرمدى .

إن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادى والآخر معنوى ، فالمادى تكريم الإنسان يفيض من التجلى الإلهى يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤية .

وبديهى أن المتاع الثانى أكبر من الأول ، كما قال جل شأنه : ﴿ **..وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[2] .

ولكن هل هناك فواصل- فى هذا الكيان البشرى- بين الإحساسين أم أن الإنسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعًا؟

إن اللذة والألم قوانين إنسانية صارمة ، فلم الطعن فيها؟ ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية ، لكفاها ذلك ، ولاحترمناها من أجل هذه النسبة! ولا يأبى الكرامة إلا لئيم ، فكيف ـ وهى إلى جانب ما وصفناه ـ تلبية لحاجة طبيعية يحسها كل إنسان ، حاجة ذلك البدن الذى يضيره الحرمان ، ويضنيه القل والذل ، حاجة ذلك البدن الذى يكره الجوع و العطش والعرى والهوان .

أمن أجل فكرة خيالية نجيء إلى مئات الآيات الصريحة الواضحة فنحاول صرفها عن ظاهرها والتمحل فى تأويلها وإفساد الآثار التربوية المقترنة بها .

﴿ **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ .

---

(١) المطففين : ١٨ -٢٦ .

(٢) التوبة : ٧٢ .

ماذا يبقى من آيات القرآن منجاة من التأويل والإبطال إذا تمت هذه المحاولة؟ إن الله وجه إلى نبيه هذا الأمر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم ﴿ ..كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1] ووضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب ﴿ ..فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ .

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرئ يزرى بعبادة الرغبة والرهبة ، ويزعم أنه لا يخاف من النار ولا يحب الجنة ، وأنه ـ إن عبد ـ فإنما يعبد ابتغاء وجه الله!!

ماهذا اللغو؟ وهل الوجوه الناضرة بنظرها إلى الله تظفر بذلك فى قعر جهنم ، أم تظفر بذلك فى حدائق الجنة؟

قال لى أحد المتصوفين : إن من الخساسة أن تعبد الله منتظرًا أجرًا . فقلت : من العبودية أن تستبشر بفضل الله وأن توجل من عقوبته ، وأن تعرف قدرك وتلزم حدك! أين تريد أن تضع نفسك؟

إن الله قال عن نبيه إبراهيم : ﴿ ..وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

فهل أنت فوق الأنبياء استغناء عن الأجر الإلهى؟

وقال عن عباده المؤمنين الموفقين : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ .

ووصف عاقبة الصادقين المضحين بأنفسهم فى سبيل ربهم فقال : ﴿ ..وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ..﴾ فهل أنت فى مكانة أخرى غير ما أعد الله للشهداء والصالحين مكانة الزاهد فى أجر أو الرافض له؟ ما هذا الغرور؟

لقد وصف الله أولى الألباب بأنهم ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2] .

فهل يرفض أن يكون من أولى الألباب إلا البله؟

---

(١) الأنبياء : ٩٠ . (٢) آل عمران : ١٩١ .

ولقد أهاب الله بخلقه أن يسارعوا إلى جنة ﴿ **عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ فهل يكره أن ينتظم فى عداد المتقين إلا الحمقى؟

إننى أطلب من إخواننا الذين يكتبون فى التصوف أن يدمنوا النظر فى كتاب الله ، وأن يستوحوا ما يستجيدون من معان وغايات ، وبذلك وحده ينصفون أنفسهم وطريقهم . أما ترويج فكرة لرجل أو امرأة يبتعد عن هذا الضوء الكريم ، فأمر لا يستساغ ، ومن حقنا أن نرفضه .

لقد سمعت أشعارًا تنسب إلى رابعة العدوية بل حكى الرواة عنها ــ والعهدة عليهم ــ أنها لما سمعت التذكير بفواكه الجنة وخيراتها ، قالت : لسنا أطفالاً ، فنغرى بهذه الأشياء . وسواء صح ما نسب إلى هذه السيدة أو بطل ، فنحن كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى فاطمة بنت قيس ــ وهى صحابية أفضل من رابعة ــ «لاندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت» .

إن الجنة وعد الله لعباده فنعما هى ، وشكرًا لمن أعدها للمتقين ، وهنيئًا لمن يصير إليها ، يمر فى بحبوحتها ، ويسعد بربه الذى طالما صلى وصام من أجله!!

إنه فى هذه الجنة يشهد من كان يعبده بالغيب ، ويتلقى فضله فى قلبه وعلى بدنه لذات مادية ومعنوية متشابكة لا انفصام بينها ، ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً** ﴾[1] ﴿ **إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً** ﴾[2] .

ونحن نلفت نظر المفسرين ألا ينخدعوا بما شاع فى الديانات الأولى من أوهام ، بما نسب إليها من أفهام ، فإننا ورثنا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . .

---

(١) الإنسان : ٢٠ .

(٢) الإنسان : ٢٢ .

قصة عفلق مع ابنة غولدا مائير

تكشفت لى أبعاد المؤامرة كلها عندما قرأت أن «ميشيل عفلق» متزوج من ابنة «غولدا مائير» رئيسة حكومة إسرائيل السابقة .

إن هذا اللقاء ليس بين رجل نصرانى وامرأة يهودية ، إنه لقاء بين الصهيونية والصليبية على تمويت دين وإضاعة أمة . .!!

وكنت قديمًا أرتاب فى عروبة «ميشيل» هذا ، حتى عرفت بعد بحث أن أباه كان يونانيّاً يهوديّاً ، وكان نجارًا فى بلده ، ثم ارتأى أن يعلن إيمانه بالمسيح ، وترددت الكنيسة أولاً فى قبوله ، ثم قبلته على إغماض ، ثم هاجروا إلى سوريا وكأن الأسرة مسيحية أصيلة!

ولكن «غولدا مائير» كانت تعرف بواطن الأمور ، فارتضت «ميشيل» زوجًا لابنتها ، ثم اختفت وراءه وهو يقود العروبة بفلسفته الجديدة ، فلسفته التى تنشد قول الشاعر :

لا تسل عن ملتى أو مذهبى

أنا بعثى اشتراكى عربى!

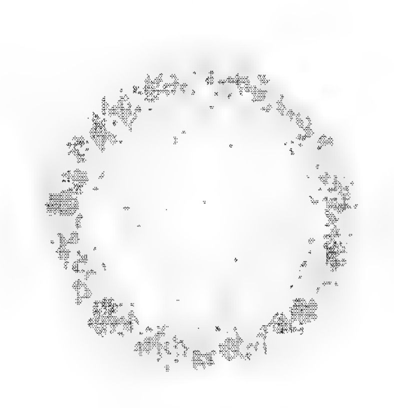
وزوجة قائد العروبة الجديدة ، العروبة المنسلخة عن الإسلام والتراث ، الجانحة إلى الإلحاد والعلمانية ، كانت تعرف الغاية التى تسير إليها ، أو تسير إليها زوجها ، ومن تبعه من جماهير المخدوعين ، ففى أسفار العهد القديم سفر يحمل اسم «استير» وهى امرأة ظهرت أيام الأسر البابلى ، واستغلت جمالها فى تحرير قومها من بنى إسرائيل ، فاشتغلت خليلة للملك الذى منحها حبه كله ، وفنى فى إرضائها ، فلما استوثقت منه حرضته على قتل وزيره المخاصم لليهود فقتله ، وتبع ذلك إطلاق سراح الأسرى ، ووضع معذبيهم فى السجون! إن«استير» الوفية لجنسها قدرت على تغيير أوضاع هائلة وحولت التاريخ الإسرائيلى إلى انتعاش وازدهار! ترى هل زوجة ميشيل عفلق «استير» أخرى لبناء إسرائيل الكبرى؟ إن أمها كانت من أعمدة الدولة فى مراحلها الأولى ، فلتكن هى أساسًا لبناء إسرائيل الكبرى عن طريق الزوج الذى استطاع أن يملك العرب وأن ينشر بينهم مذهبه الباطل حتى تألفت به حكومات! إن كل ما تطلبه إسرائيل لقهر العرب ، وإزالة ملكهم ، واستئصال جذورهم هو فصل العروبة عن الإسلام ، واعتبارها

قومية عامة . وعندما يترك العرب دينهم ، فلن تبقى لهم دنيا ، وسوف يندحرون فى أية معركة ، ويعودون بالخزى من كل ميدان . . وقد تولى «ميشيل عفلق» وزوجته «استير» الجديدة هذه المهمة ، استغفلا شعوبًا بأسرها ، واستمالا حكومات يملكون السيف والنار ، ويستطيعون إذاقة خصومهم النكال . . فلما دارت الحروب بين عرب عراة من الإيمان ويهود يقدسون التوراة ، كانت الهزيمة التى تكررت مثنى وثلاث!

إن ميشيل عفلق وحده حملة صليبية ناجحة ، وهو مع زوجته الماهرة الماكرة قد قادا العرب إلى ميادين الخزى والندم! وما كلفهما هذا؟ قال أنصارهما : إنهما أسلما ، وسموا الابن الأول محمدًا ، والآخر عليّا!!

وما علمت فى التاريخ الطويل للبشرية أمة تستغفل على هذا النحو الأحمق إلا الأمة العربية التى بنت فى هذه الأيام السود ضريحًا فى بغداد لدجال العروبة الأكبر ميشيل عفلق ، لعله يزار وتقرأ له الفواتح .

واليوم تنقسم الأمة الإسلامية فى القارتين إلى موالين لميشيل عفلق ، وإلى جهلة بميشيل عفلق ، ويا فرحة إسرائيل بقادتها من رجال ونساء ، إن الحرب المشتعلة اليوم ما تدور رحاها إلا لمصلحتها .



متى تؤدى المرأة حق زوجها؟

نفقة رب البيت على بيته زكاة.مضاعفة الأجر مباركة المثوبة!! لقد شعرت بغير قليل من الدهشة وأنا أتدبر الأسلوب الذى قرر الإسلام به هذه الحقيقة!

عندما يكون معى مال فأجعله للجهاد فى سبيل الله ، أو أجعله فى تحرير الرقاب ، أو أجعله فى إغاثة مسكين ، أو أسد به حاجات بيتى فأى هذه الأبواب خير؟ أيها أفضل من الآخر؟ لنذكر الأحاديث النبوية الواردة فى القضية .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «**دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك**» .

وعن ثوبان مولى رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : «**أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله! ودينار ينفقه على فرسه ـ المربوط ـ فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله**» **قال الراوى : بدأ بالعيال** .

وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال له : «إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ماتجعل فى فم امرأتك!» .

وعن أبى مسعود البدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ : «**إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة**» .

وعن المقداد بن معديكرب قال رسول الله ﷺ : «**ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة! وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**» والأحاديث كثيرة نكتفى منها بما ذكرنا .

ماذا يعنى هذا كله؟ كنت أرى أن مايصرف فى البيت مال مستهلك ، وأن نفقات الأسرة على الإجمال من الضرورات التى تخرج منها وكل مانرجوه ألا يكون لنا ولا علينا!

أما أن تكون حسنات توضع فى الميزان ، ويزيد بها الثواب ، بل قد تسبق فى مضمار الخير ماينفق فى ميدان الجهاد وتحرير الرقاب ، فذاك مايدعو إلى التأمل .

قلت : لعل ذلك لأن البيت المسلم هو الذى يبنى العقائد وينشئ الفضائل داخل حُجَره الواسعة أو الضيقة؟ إن النبع الذى يسيل بالحياة للبنين والبنات وللأم والأب نبع مباركَ بلا ريب ، إن الإنفاق فى هذا البيت أبرك مشروع استثمارى .

من قديم توارث المسلمون هذه الحقائق الاجتماعية فأمسى شرف الرجل أن يكسب وأن يعود على أهله حتى يكبر الصغير ويستغنى الكبير ، وكان يرى ذلك عبادة لايستكثر فيها وقت ولا جهد ، إنها دين ودنيا معًا . .

ولنتجاوز الآن تقاليد المدنية الحديثة التى ألفت أن يقول الأب لابنه أو ابنته عند البلوغ هيا التمسوا الرزق فى خبايا الأرض! بل لعل الرجل يستكثر إطعام زوجته!

إن تماسك الأسرة وفق تقاليد الوفاء والشرف والبر جعلها مجتمعًا يشد بعضه بعضا ، ويد الله مع الكل!

كذلك كانت أمتنا وكذلك يجب أن تبقى .

ومن حق راعى الأسرة وكاسيها أن يجد من زوجته تقديرًا لكدحه ، وأن يستجم بعد تعب ، وأن يكون لسان الحال والمقال شرحًا لصدره ، وتطبيبًا لنفسه .

أما الكنود والتجاهل فهما طريق الوحشة والقطيعة وفى الحديث :

«**لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لاتشكر لزوجها ، وهى لاتستغنى عنه**» .

وجاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقال لها : أذات زوج أنت؟ قالت : نعم! قال : فأين أنت منه؟ قالت : ما آلوه إلا ماعجزت عنه!!

ـ تعنى أنها تبذل طاقتها فى مرضاته ، أما ماغلب طاقتها فلا قبل لها به ـ فأجابها الرسول الكريم بهذه العبارة الموجزة الجامعة : «**فكيف أنت له فإنه جنتك ، أو نارك!**» وقد شرح ذلك حديث آخر : «**المرأة لاتؤدى حق الله حتى تؤدى حق زوجها**» .

وقرأت حديثًا طريفًا لمعاذ بن جبل فيه وصف لبعض النساء «الفتوات» التى تحل مشكلاتها أحيانا بيدها«!» وتريد أن تبسط إرادتها فى البيت غير مكترثة بشىء ، وقد استمعت إلى نصح النبى الكريم لهذه المرأة ، وأنا أغالب الابتسام!

وهاك الحديث : «**لايحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن ـ لأحد ـ فى بيت زوجها وهو كاره! ولاتخرج وهو كاره! ولا تطيع فيه أحدًا ، ولا تعتزل فراشه ، ولا تضربه!**» قلت فى نفسى كيف تضربه؟ هل استنوق الجمل إلى هذا الحد؟ أم أن المرأة من هواة الملاكمة والمصارعة اليابانية؟

وعـدت إلى الحـديث الشـريف أكـمل قـراءته بعـد نهى الزوجـة عن هذا التطاول والجحود قال : «**فإن كان هو ــ يعنى الزوج ــ أظلم فلتأته حتى ترضيه! فإن قبل منها فبها ونعمت ، وقبل الله عذرها وأفلج حجتها ــ أظهرها ــ ولا إثم عليها ، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها**»!

ويستحيل ألا تمر بالبيوت . . أزمات ، بيد أن الخلق العالى كفيل بتفريج الضوائق وحل المشكلات ، وما أصدق قول الشاعر :

لعـــمـــرك مـــا ضـــاقت بلاد بأهلهـــا

ولكن أخـــلاق الرجـــال تضـــيق

أقول : وأخلاق النساء أيضًا!! وقد رأيت أن فساد ذات البين فى الحياة الزوجية يمتد إلى الأولاد . ويعرضهم لأسوأ الخلال وأوخم العواقب .

ماأجمل أن يكون الحب المتبادل والاحترام المتبادل قوام العلاقة بين الزوجين أو الأبوين! إن أثر ذلك فى الذرية عـميق ، وهو سـياج مـتين لرسالة البيت فى الداخل والخارج .

وهناك حديث نبوى يذكره البعض فى هذا الصدد يحتاج إلى شرح : قدم معاذ بن جبل من الشام ، وذهب إلى النبى عليه الصلاة والسلام يزوره بعد مقدمه ففوجئ الرسول الكريم بمعاذ يسجد له!! فقال له : ماهذا؟ فقال معاذ قدمت إلى الشام فوجدت الناس يسجدون لبطاركتهم وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك!

والواقع أن التحية التى رأيتها أنا كانت انحناء يشبه الركوع ، ولايزال هذا الانحناء الراكع تحية لإمبراطور اليابان ، وكان كذلك تحية لإمبراطور الحبشة ، وربما تحول فى بعض الأحيان إلى سجود تام!

والعرب لاتعرف هذا فى تقدير الكبار وتقديم التحية لهم ، فلما نقل معاذ هذا التقليد إلى المدينة المنورة رفضه الرسول كل الرفض ، وقال ــ كما جاء فى بعض الروايات : «**لاتفعل فلو أمرت شيئًا أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» وتتمة المعنى ولكنى لا آمر أحدًا أن يسجد لآخر ، ولا للمرأة أن تسجد لزوجها والمراد كما جاء فى تتمة الحديث « . . .**والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها**» .

إن الزوج والزوجة إنسانان متكافئان فى الحقوق والواجبات ومع صدق العاطفة يكون الرجل ملكًا مطاعًا نافذ الكلمة ، ووسيلته فى ذلك الوفاء والإخلاص والحب .

أنا حار العاطفة.. لا حاد الطباع

أجرى الحوار: د. عبد الحليم عويس

حوار ومراجعة مع: الشيخ محمد الغزالى

يواجه الشيخ محمد الغزالى محنة الأمة الإسلامية منذ أكثر من نصف قرن بعقل مجتهد وبوعى بتحديات العصر، وبرؤية ثاقبة لأسرار تأخر المسلمين.

إنه يعى التعقيدات الفكرية والتكنولوجية والعقدية التى تشكل التيارات الحضارية المعاصرة.. ويعتصره الألم، وكثيرًا مايستغرقه البكاء العميق الذى يسيطر عليه وعلى الجالسين معه حين يتذكر مأساة المسلمين.. هؤلاء الذين وكأنهم لايدركون حقائق مايدبَّر لهم، ولا يعون مهمة رسالتهم وذاتهم الإسلامية، ويبددون جل طاقاتهم فى معارك جانبية فرعية بينما يبذلون أقل الجهد فى معارك المصير الكبرى..

وفى عصرنا هذا سادت بين بعضنا ـ للأسف الشديد ـ مظاهر مختلفة منها التركيز على نقاط الخلاف، وإهمال مساحة الاتفاق الواسعة ومنها الوقوف عند هذه النقاط وعدم تجاوزها، من أجل الصبغة الإسلامية الغالبة، ومنها الرفض بالجملة لمجرد وجود اختلاف فى الآراء، ومنها الارتفاع بالخلافات الفرعية إلى مستوى الخلافات الأصولية، ومنها تحويل الخطأ الاجتهادى إلى (خطيئة مقصودة)، (جريمة مبيتة) تقتضى الحكم على القلوب، والملاحقة المستمرة بالغيبة والنميمة!!

ومنذ أكثر من ربع قرن ـ أعترف وأنا بكامل قواى العقلية ـ تربطنى بأستاذنا الكبير الشيخ محمد الغزالى علاقة حميمة، وقد كان له فضل ـ بعد الله ـ علىّ وعلى جيلى فى تحصيننا ضد الزحف الأحمر (الشيوعى) والزحف الأحقر (العلمانى) فى سنوات كانت صلاة الجماعة فيها فى المدينة الجامعية فى إحدى الدول تعتبر كافية للاتهام ببعض التهم المؤدية ـ أحيانًا ـ إلى السجون الاشتراكية الثورية..!!

وأعترف ـ كذلك ـ أنى أختلف مع أستاذى الشيخ الغزالى فى بعض القضايا.. بل قد عالجتُ هذه القضايا فى بعض بحوثى وفى بعض المؤتمرات وفق ما أؤمن به.. بل إن صديقنا المشترك الداعية الدكتور يوسف القرضاوى خالف الشيخ الغزالى وردَّ عليه فى بعض كتبه، ومنها كتابه: «كيف نتعامل مع السنة».. لكننا جميعا نعيش فى دائرة الحب، ونتفيَّأ ظلال أستاذية الشيخ الغزالى.

هذا هو الشيخ محمد الغزالى وذاك منهجه . . فلا يهم أن ينتهى بك اجتهادك إلى الاتفاق معه أو الاختلاف ، بل المهم أن يكون الحق رائدك ، وأن تؤثر الأخوة الإسلامية وحقوقها ـ وهى من الأصول ـ وأن تعرف أدب الحوار ، وأن تحسن الظن بأخيك وتدعو له!!

وفى هذا الحديث لا أكتب حديثًا صحافيًا ، وإنما أحاور الشيخ الغزالى محاورة التلميذ للأستاذ لكى نصل إلى أرضية جديدة نرأب بها الصدع ، ونمضى وإخواننا على أرضية الحب المشتركة ، ويكفينا من الهم مايدور فى البوسنة والهرسك ، وما يدبره لنا (النظام الدولى الجديد) . . لكى نصطلح مع الله ، ونتجه إليه بقلب سليم ، ونتراحم حتى نستأهل رحمة الله ، ونتفاعل ـ من ثم ـ مع سنن الله الكونية والاجتماعية المؤدية إلى الإقلاع الحضارى ، والذى يحدد الله فى كتابه الكريم خطوته الأولى فى الآية الكريمة : ﴿ . . **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** . . ﴾[1] .

فى سؤالنا الأول قلنا لأستاذنا الشيخ الغزالى :

*** يلاحظ أن فى بعض كتاباتك ـ ولاسيما الأخيرة ـ شيئًا من الحدة التى لم تعرف فى تاريخك الطويل من قبل ، فكيف تفسرون هذا وأنتم الآن فى سن النضج الكامل؟**

أجاب الداعية الكبير :

ـ ربما كنت حارّ العاطفة لا حادّ الطباع ، فأنا أكره النَّفَسَ البارد فى معاملة الأشخاص والأفكار ، وأحسب أن الإيمان النظرى لايملك القدرة على التحرك فى هذه الحياة إلا إذا كان له قائد من عاطفة حارة تملك الحركة الدائمة واليقظة الصارمة . .

وبين الحدّة والحرارة فروق ، فقد تكون الحدّة قريبة من القسوة وأنا أزعم أنى رقيق ، وقد تكون قريبة من الإصرار ، وأنا لاطاقة لى على البقاء فى خطأ إذا استبان لى الخطأ .

وربما كانت الحدّة المزعومة هى مايتملكنى من أسى للهزائم التى أصيبت بها الثقافة الإسلامية والسياسة الإسلامية على السواء .

ومع أن جميع مقومات النصر بين أيدينا فما الذى أوقع بنا هذه الهزائم . .؟

هذا هو الذى يجعلنى أحيانا أتكلم بشىء من الغيظ وأنا أرمق دعاة مفلسين لايحسنون عرض الإسلام ـ وقد قلت فيهم ذات يوم : إن الإسلام قضية عادلة وقعت فى أيدى محامين فاشلين .

---

(١) الرعد : ١١ .

والمشكلة فى نظرى أن الميدان لايزال يضطرم بآثار المعركة ، وأن الإسلام يواجه قوى خبيثة ولا أقول ذكية ، وهو فى هذه المواجهة يطلب الحماة الأيقاظ الأذكياء فلا يجد . . وقد كنت فى كندا مبعوثًا من رابطة العالم الإسلامى . . فوجدت معركة بين نفر من المسلمين بعضهم يريد قراءة سورة الكهف يوم الجمعة والآخرون يرفضون ، فقلت لهم : نقلتم أسباب هزيمتكم من الشرق إلى الغرب ، هل هذه قضية يقوم فيها نزاع(؟!!) وقد أوصيت فى القاهرة بفتح مسجد الحصرى للممثلات التائبات فجاء من يطلب منهن النقاب بدلاً من الحجاب ويقسو عليهن أشد القسوة عندما أعرضن عنه (ناسيًا أنهن كن ممثلات) ، فهل بهذا السلوك تخدم الدعوة؟ وهل هذا هو فقه الداعية بأسلوب الدعوة؟

ـ إننى أحب الحلم والأناة لأنهما خصلتان يحبهما الله ورسوله ، وأدرب نفسى على هاتيك الخصال ، لكنى أعترف بأننى أفقد زمامى أحيانًا عندما أجد الرويبضة يتكلم فى الشئون العامة ، ويعطى توجيهات لاثمرة لها إلا ضرب الإسلام فى صميمه ، وإدخاله فى معارك إذا انهزم فيها كان الخزى ، وإذا انتصر فيها كان التعب والإجهاد .

وشىء آخر أذكره ولا أدرى إذا كان يصلح عذرًا أو لا ، لكنه أمر واقع . . إن الكلمة التى أكتبها هى التى تذهب دون مراجعة إلى المطبعة ، وقد يقع أحيانًا وأنا أدفع القلم للكتابة به أن أنسى تعقيبًا أو استدراكًا أو أن أصوغ الجملة صياغة كان من الممكن أن تصب فى قالب آخر أهدأ وأرفق ، ولكن عدم المراجعة هو السبب فى أن الكلمات تكون أحيانًا نارية وكان من الممكن أن تكون أقل حدة . .

صيحة تحذير

من الشائع الآن أن بينك وبين بعض علماء السلف منذ سنوات شيئًا من الخلاف ، وقد ظهر هذا فى بعض الكتب والمقالات . فما موقفكم الشخصى من هذا الخلاف؟

أجاب فضيلة الشيخ الغزالى :

الحقيقة أن هناك ظروفًا دفعت إلى شىء من الخلاف ، كان فى أصله خلافًا فرعيًا عابرًا ـ ولازال ـ لكنى كنت أتمنى أن يكون الحب وحسن الظن والرفق نسيج العلاقة بيننا ، وأنا لا أنسى لعلماء السلف دورهم ، ولا أنسى لعلماء المملكة العربية السعودية ـ بخاصة ـ ماقاموا به من نصرة العقيدة الصحيحة ، (وكيف تصح أى عبادة من

قول أو فعل بدونها) ومن مقاومة للخرافات والبدع التى انتشرت فى عهود التخلف فى الأعصار الأخيرة كما لا أنسى غيرتهم على الإسلام ، ولى فيهم أصدقاء وإخوان كثيرون . . وأنا رجل أميل إلى تجاوز مراحل الخلاف بسرعة متأسيًا بالسلف . . ولهذا أدعو الله فى هذا المقام ــ أن نتجاوز جميعًا المراحل الخلافية دون أن يكون ذلك على حسابِ دين الله . . وأقول فى هذه المناسبة أيضًا : إننى أول من يخضع للحق الذى يأتينى مكللاً بأدب الإسلام وأخلاق الإسلام ، لا الذى يتوه ذهبه وسط أكوام من التراب .

وأضيف أيضًا : إن التحديات الكبيرة يجب أن تجمعنا ، فنحن أمام موجة صليبية جديدة كَلُوح تلبس ثوب العلمانية ، وقد تصديت لها من قبل فى عدد من الكتب ، وفى الهجمة الأخيرة تصديت لها فى كتابى «صيحة تحذير من دعاة التنصير»* .

وأنا أدعو إخوانى العلماء والدعاة جميعًا ــ وفى المملكة العربية السعودية ــ بخاصة ــ إلى تطهير قلوبنا والتفرغ للعمل الراشد والتعاون الكريم ، أمام القوى المتكتلة ضدنا والمتربصة بديننا وحضارتنا ووجودنا كله .

وقد كان شعارى دائمًا : لنترك أى رأى إذا كان يوهن الأخوة الإسلامية أو يضعف وشائج القربى بين المسلمين أو يفرق كلمتهم وصفوفهم ، فالمقاصد العليا أقوى وأولى من أى رأى فردى . .!

وأحب أن أؤكد هنا مرة ثانية أنى فى خندق إخوانى العلماء ، وأننى ما قصدت ببعض تعبيراتى جمهرة العلماء ، وإنما قصدت آحادًا من المحسوبين على العلم من ضيقى الصدور والأفق الذين تعتبر نسبتهم إلى العلم موضع شك ، وهم - غالبًا - حديثو السن يحتاجون إلى مزيد من الفقه والوعى . وبالطبع لست مسئولاً عن ذلك الظن الواهى الذى ظنه بعض العلمانيين وأشباههم ، حيث تأولوا كلامى تأويلاً يتفق مع أهوائهم ، فحولوا الرخصة المحدودة المضبوطة بضوابط شرعية إلى قاعدة متاحة الأفق تخدم أهواءهم ، التى لاضوابط لها . وهؤلاء ــ إذا كانوا موضوعيين ــ عليهم أن يأخذوا بكل ماكتبته . وبالضوابط التى أضعها ، ولكنهم أصحاب أهواء .

*** قلنا لأستاذنا الكبير : هناك كتابات منهجية هادئة يجمع المسلمون على الرضا عنها وعلى أنكم من خير من يكتب فيها مثل : (التفسير الموضوعى للقرآن) و(فقه السيرة) و (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) و(صيحة تحذير من دعاة التنصير) ، بينما**

---

* من مطبوعات : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

تكتبون أحيانًا بأسلوب مقاتل ، فكيف تجمعون بين طريقتين مختلفتين فى التأليف؟

قال الشيخ الغزالى : الكتابة الإسلامية عندى غير مزدوجة المجرى ، فنحن نكتب أحيانًا عن حقيقة الدعوة أو لب الثقافة الإسلامية . . وأحيانًا تكون الكتابة عن جهاد الدعوة وسياسة إصلاح جوانب الحياة ومواجهة تحدياتها ، أعنى أنى كتبت (نظرات فى القرآن) وفى الوقت نفسه كتبت (معركة المصحف) . .

وأنا كذلك أتبع منهاج القرآن الكريم عندما يتحدث عن أمجاد الألوهية فى سورة الأنعام بأسلوب هادئ ، وعندما يفضح أعداء الدعوة فى (براءة) مثلاً ، فليست الكتابة الإسلامية لونا واحدًا عند الذين يشعرون بشىء من القلق عندما يكتبون فى سياسة الدعوة .

والحق أن الكتابة فى سياسة الدعوة ثقيلة العبء مرة المذاق لأنها اشتباك مباشر من الأعداء المعوقين ومن ينظرون إلى الإسلام نظرة خامدة الأنفاس .

وقد يرضى الكثيرون عن البحث العلمى فى حقيقة الرسالة الإسلامية وعن عناصر الدعوة ، إنهم يشعرون بالقلق عندما نشتبك مع خصوم الإسلام والكارهين للحق فى هذه الحياة . .

وسيظل جهدنا موزعًا بين الناحيتين . . عرض الدعوة فى مثل : (خلق المسلم) و(عقيدة المسلم) و(ليس من الإسلام) و(كيف نفهم الإسلام) وسياسة الدعوة فى مثل (كفاح دين) و(التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) و«الاستعمار أحقاد وأطماع» و«معركة المصحف» و«صيحة تحذير» .

*** هل يمكن أن نتوقف قليلاً عند «التفسير الموضوعى» للقرآن على أنه نموذج من كتابة النوع الأول ، ولأنه مشروعكم الذى مازال مستمرًا وينتظره محبوكم وقراؤكم ويسألون الله أن يطيل عمركم لتنمّوه؟**

قال أستاذنا الشيخ الغزالى:

إننى أعتقد أن عصرنا الحاضر هو عصر التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ، وليس عصر التفسير الموضعى ، وإن كان الأخير لابد منه على أن يكون خادمًا وممهدًا للأول ، فالعقل الإنسانى ارتقى كثيرًا فى هذه الأيام ، وتفاسير القرآن يجب أن تطرد فى عروضها مع مقتضيات العصر الحاضر ، ولايكفينى أن أشرح القرآن جملة جملة ولا كلمة كلمة ، إننى أريد أن أقول للقارئ خذ عرضًا عامًا لسورة (آل عمران) مثلاً ، وسوف تراها تدور على محورين : فنصفها الأول حوار مع أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، ونصفها الثانى تعليق

على هزيمة معركة أحد ، وفى أواخر السورة حث للمسلم على الصبر على لأواء الجهاد المزدوج . . الفكر والحرب . . لأهل الكتاب والوثنيين .

وعندما أعطى هذا الخط العام للسورة فإننى أعود مرة أخرى فأبرز الخطوط الخفيفة التى تشد أجزاء السورة كما تشد الأعضاء أجزاء الجسم ، فيظهر للقارئ أن الآيات ليست مركومة فى الأوراق كيفما اتفق ، وإنما هى مرتبة ترتيبًا دقيقًا ، تكتمل فيها أجزاء صورة واضحة المعالم رائعة الملامح . . فهذه النظرة الجيدة فى التفسير لم أَسْبِق إليها ، وإنما وجدتها فى نظرات شيوخ لى عكفوا على تلاوة القرآن والدعوة إليه ، أولهم الشهيد حسن البنا ـ رحمة الله عليه ـ الذى كان يلقى نظرات فى القرآن فى المركز العام للشبان المسلمين فى القاهرة .

ومن الصدق أن أقول إن (رشيد رضا) من وراء هذا التفسير ، وإن كان يمزج بين الموضوعى والموضعى بلباقة ، ومن أحسن من كتبوا فى التفسير الموضوعى الشيخ عبدالله دراز فقد كتب كتابه (النبأ العظيم) فجعل سورة البقرة كلها على طولها باقة منسقة الورود والفروع ، وجمع أول السورة وآخرها فى نسق لم يسبق إليه .

وأنا أرجو أن أبدأ وقد بدأت فعلاً الخطوط الأولى فى هذا التفسير ووصلت إلى سورة التوبة!!

*** وفى هذا الإطار التأصيلى ـ يا أستاذنا : نلاحظ أيضا أن قضية تأصيل المعرفة إسلاميًا تحتل من اهتمامكم جانبًا كبيرًا ، فما مدى أهمية هذه القضية للمسلمين فى رؤيتكم؟ استطرد أستاذنا الكبير قائلاً :**

فى أول كتاب ألفته فى حياتى شبهت الوحى الإلهى بماء النيل فى مجراه الأعلى ينزل من السماء صافيًا نقيًا ، ثم يختلط بالأرض فيحمل من ترابها وغثائها وأخلاطها مايجعل الانتفاع به صعبًا حتى يُنقَّى الماء فيعود سماويًا كما كان . . قلت : ما أشبه الدين بماء النيل ، وما أحوجه إلى التنقية من أهواء الناس وشهوات الأغنياء والأقوياء والضعاف . . إن الذى يؤسفنى أن الإسلام هو أليق الأديان بالعصر الحاضر ، وأقدر الأديان على اقتياد الإنسانية فى هذه المرحلة اليقظة من تاريخها . . وفى تعاليمه إشباع حقيقى للعقل والضمير وإمتاع للفكر والعاطفة ، لكن المأساة أن الذين يعملون به يصدون عنه لأنهم يسيئون فهمه ويفرضون عليه صورًا لامصدر لها إلا طباعهم المريضة ، وهم بذلك يجعلوننا ندعو مع الداعين : ﴿ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا** ﴾ . . وهؤلاء الداعون كانوا يطلبون من الله ألاّ تقع بهم هزيمة تجعل أعداءهم

يقولون : لو كانوا على حق ما هزموا فتكون هزيمتهم سببًا فى انصراف الناس عن الحق . ولاينكر أحد من المثقلين بالدعوة الإسلامية أن حالة الأمة الإسلامية يستحيل أن تكون نصيرًا لدينها .

ومن هنا كان حرصى شديدًا على تأصيل المعرفة الإسلامية ، ووددت من أعماق قلبى لو عرض علم الكلام عرضًا جديدًا تصور به عقائدنا من القرآن الكريم والسيرة العطرة تصويرًا يجذب أهل الشرق والغرب إليه . . ووددت لو أن الفقه الإسلامى وجد عارضين جددًا يقدمون قضاياه فى ملفات حية تجعل انجذابهم إليه من أعماقهم . . إن الثقافة الإسلامية حتى الآن لاتزال فى مادتها وفى عرضها وفى رجالها مأساة لابد من معالجتها بحكمة وإلا ضاعت رسالتنا من بين أيدينا .

وفى يقينى أن الله سبحانه وتعالى ربى محمدًا ليربى به العرب ، وربَّى العرب بمحمد ليربى بهم الناس كلهم . . وهذا المعنى تكرر فى موضعين من القرآن الكريم . . أولهما فى قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** . . ﴾[1] وثانيهما فى قوله تعالى : ﴿ . . **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** . . ﴾[2] .

فنحن أمة مكلفة برسالة يجب أن تكون من الناحية العلمية مشرقة متداولة محمية ، أما أن تترك لتعصف بها الأوبئة والحشرات فهذه جريمة أو خيانة عظمى . .

ولو قيل لى : كيف تُعلم العقائد الآن لقلتُ : أجىء بكتاب مثل كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) أو كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) وأضع فصوله العلمية تحت الآيات القرآنية العلمية التى تتحدث عن الكون والتى تربط الأديان بالنظر فى هذا الملكوت . . إنه قريب من منهاج الشيخ نديم الجسر فى (قصة الإيمان) والشيخ وحيد الدين خان فى كتابيه (الإسلام يتحدى) و(الدين فى مواجهة العلم) .

*** يرى بعضهم أنك تميل إلى لون من التصوف ، وتسميه (الجانب العاطفى من الإسلام) ويخشى بعضهم أن يكون الجانب العاطفى منزلقًا إلى الوقوع فى البدع . . فما المعادلة الصحيحة ـ فى رؤيتكم ـ لمعالجة فقه النفس والقلب والوجدان فى الإسلام؟**

---

(١) البقرة : ١٤٣ .　　(٢) الحج : ٧٨ .

قال أستاذنا الداعية الكبير محمد الغزالى:

أنا سميت التصوف أحيانًا علم الإحسان أو علم القلوب أو الجانب العاطفى من الإسلام . وأنا مسبوق فى هذا برجلين من أعمدة العلم السلفى هما ابن تيمية ، وابن القيم ، فلابن تيمية جزءان فى فتاواه الكبرى عن علم القلوب ، ولابن القيم كتاب (مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين) وقد قرأته كله وأنا فى معتقل الطور ، فكنت أشعر والأستاذ البهى الخولى ــ رحمه الله ــ يقرؤه علىّ أنى محمول على السحاب حتى إذا انتهت القراءة استيقظت وأنا على الأرض ، ويخيل إلىّ أن الجفاف المسعور السائد الآن فى حريق المطامع المادية جاء من أن علم القلوب هجره المسلمون ، وأن الجانب العاطفى من الدين أهمل ، وأصبح الدين عند بعض حملة العلم مظاهر وأشكالاً . . فالذى أفترضه فى الدعاة الآن أن يكون لهم زاد من هذا الجانب الروحى والعاطفى فى تراثنا الثقافى وهو محرر تحريرًا حسنًا فى كتابات ابن تيمية وابن القيم .

وقد فشل بعض الدعاة فى عصرنا لتهافتهم على القضايا التافهة وجبنهم على الانسياح فى أرض الله وهما نتيجتان ترجعان إلى هذا الفراغ القلبى وللأزمة التى نهايتها فى علم القلوب .

وقد يقع أحيانًا أن يستهين شديد التوكل بالأسباب أو يتقاعس عن بعض الأنشطة وهذا خطر على الإسلام وعلى من سلك هذه المسالك .

وعمل رجال الدعوة هو تجميع الناس على رب الأسباب ووظيفة الأسباب ، والمعركة لن تكون على العناوين ، فما يعنينا أن يحرق اسم التصوف أو يبقى . . وإنما يعنينى أن كلمة مثل كلمة ابن عطاء الله : (مابسقت أغصان ذل إلا على بذور طمع) يجب أن تكون من أصول التربية التى تقطع أطماع البشر فى غير الله سبحانه وتعالى ، وثقتهم جميعًا فى ساحته وحده ، منه يطلبون وعليه يعتمدون!

*** قلنا لأستاذنا الشيخ الغزالى : دعنا نصل معك إلى بيت القصيد فى حوارنا هذا ، ونسألك عن موقفك الآن ــ فكريًا ونفسيًا ــ من إخواننا السلفيين ، بعد أن شعر الناس بوجود جفوة بينك وبين بعضهم؟**

أجاب الشيخ الغزالى بنبرة حزينة قائلاً :

دعنى أعلن لكل الناس سلفيين وغيرهم أنى سلفى أصيل ، بل قد أكون درويشًا فى محبة الصحابة والتابعين ، وأشعر بأن هذه المعالم الغائرة فى تاريخنا الطويل هى التى تحمل الإسلام من القرن الأول إلى القرن الخامس عشر ، وأعى جيدًا قوله عليه الصلاة والسلام : «خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم» فتصور بعضهم أن هناك فجوة

نفسية أو فكرية بينى وبين سلفنا الأول هو ضرب من الجنون ، فأنا من السلف أحمل دعوتهم وأثنى عليهم . . فهم أصدق الناس فطرة .

ولكن الإسلام طويل المدى ، وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام قال : «**أمتى كالغيث لايدرى أوله خير أو آخره**» .

والأمة التى لاتاريخ لها ليس لها حاضر ولامستقبل . ولذلك فأنا مع حبي العميق للسلف أحتفى بسائر العباقرة من أئمة الفقه والأدب والعقيدة وسائر فنون المعرفة الذين ظهروا فى تاريخنا . . ولماذا تقوم بينى وبينهم خصومة وهم جميعًا يقومون على الكتاب والسنة ويرفعون علم التوحيد ويجندون مواهبهم ومن معهم لخدمة الإسلام وقيمة أمته .

ومن ثم فأنا أحتفى بالخلف كما أحتفى بالسلف ، ولا أرى أن هؤلاء لهم وجه غير أولئك فالهجرة إلى الله عندهم جميعًا والكل يبغى وجهه ، ولذلك عندما سألنى أحد الناس : أتتبع رسول الله أم تتبع أبا حنيفة؟ قلت ساخرًا من السؤال : أتبع كلام رسول الله كما فسره لى أبو حنيفة . وقيمة أبى حنيفة أو ابن حنبل ليست مستمدة من ذاته ، وإنما من العلم الدينى الذى تصدى له ، وللانتساب إلى المنهج النبوى الذى شرف به ، وكذلك سائر أئمتنا إلى يوم الناس هذا .

ـ والحقيقة العلمية عندى تستمد وجاهتها من شاهدين عدلين هما كتاب الله وسنة رسوله ، فليس هناك بديل ولا شريك فى هؤلاء الشهداء .

وعندما أقرأ التفسير أو السنة أو العقائد أو السيرة فالشعور المسيطر على هو أن الحقيقة شائعة فى هذه المعارف وفيمن حملها إلينا من السلف الأول إلى القرن الأخير . . نحن أمة لايجحد صغيرها كبيرها ، ولايتبرم تلميذها بأستاذها ولا تتسول العزة إلا من مصدرها الأصلى ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] ، فهل أقبل بعد هذا الشعور الغامر أن يجىء إنسان يخالفنى فى بعض الفروع أو الاجتهادات فيتهمنى فى عقيدتى وسيرتى ودينى ودنياى؟!

وهذا الذى يرتكب هذه الجريمة هو كما قال ابن الجوزى فى أمثاله : (فى قلبه كبر فرعون) .

إن العملة المتداولة فى ميادين الحياة الآن هى الأخلاق التى يسمونها (إنسانية) ونبينا عليه الصلاة والسلام هو القائل : «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» فأين رصيدنا منها فى العملة المبذولة الآن بين الناس!!

(١) المنافقون : ٨ .

فالعلامة المميزة للعلم الصحيح والثقافة النقية الصادقة هى الشارة المحمدية التى يجب أن تظهر ناصعة على المواريث القديمة والحديثة على السواء . .

الشيخ عبدالعزيز بن باز عالم سلفى نقى مخلص وهو ممن يؤثرون ربهم على دنياهم

لقد كنت أقول دائمًا فى عالم سلفى نقى مخلص مثل الشيخ عبدالعزيز بن باز إنه من طلاب الآخرة ، وممن يؤثرون ربهم على دنياهم ، وقد تكون بيننا خلافات فقهية فما قيمة هذا الخلاف وما أثره؟!

إن الأئمة الكبار اختلفوا ـ بل إن داود وسليمان قد اختلفا فى الحكم ـ وهما من هما فى النبوة والعلم والحكمة!!

لايوجد نظام دولى جديد.. والهدف الصليبى واحد..

* وعن العلاقة بين الدولة والدعاة وموقف المسلمين جميعًا ـ دولة وأمة مما يسمى بالنظام الدولى الجديد قال شيخنا الغزالى :

إننى أؤمن بأنه من الممكن جدا أن تكون بين الدولة والدعاة شعرة معاوية ، فلا يستعجل أحد المعركة أو الخلاف مادامت هناك رغبة فى إيثار السلام وخدمة الإسلام ـ وعندى أن الأمر يحتاج إلى تصحيح النية ، وإلى إظهار الزهد الحقيقى فى الدنيا ومناصبها ـ وأعتقد أن الحاكم الذى يشعر بأن الدعاة لايسألونه شيئًا فى يده ولا يزاحمونه على دنيا عنده ، بل يريدون الخير له وللأمة فإنه يكفّ عن مقاومتهم بالضراوة التى نراها الآن من بعض الحكام المسلمين للأسف الشديد . .

أما النظام الدولى الجديد والقديم فكلاهما يعادى الإسلام ، ولايجوز أن ننخدع بعناوين براقة مثل (حقوق الإنسان) و(كرامة الشعوب) (واحترام الديمقراطية) وغيرها من العناوين التى يراد بها أن تكون بديلاً عن الإسلام . . فإذا كان الإسلام ـ كما ثبت فى عشرات التجارب ـ سيجد التنفس والانتعاش فيها ، فإن النظام الدولى يقتلها معه . .!!

ومادام المسلمون ضعفاء مستهلكين ممزقين فإن أى نظام دولى لن يعطيهم إلا ماينتهى به إلى تحقيق أهدافه منهم . . أهدافه هو لا أهدافهم هم . . وكفانا تعطيلاً للعقول ، وامتهانًا لحقائق الأشياء . . فليس بين الحق والباطل إلا ماذكره القرآن حقيقة ثابتة إلى يوم القيامة : ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . .** ﴾[1] . . ﴿ **. . وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[2] .

(١) البقرة : ١٢٠ .
(٢) يوسف : ٢١ .



الإنسانية فى حاجة إلى البعث الإسلامى

لقاء فكري بالقاهرة ـ بسيونى الحلونى:

أكد الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى أن الإنسانية فى حاجة ماسة إلى البعث الإسلامى ليخرجها من حالة التخبط التى أصابت أنظمتها الحاضرة ولا تجد لها مخرجًا . . وهذا لايتطلب إلا أن ينتفض المسلمون انتفاضة حكيمة يرجعون بها إلى أنفسهم ويعيدون تنظيم مواريثهم ويتعاونون على إقامة نظامهم الفطرى الذى يتعاملون فيه بمقاييس الإيثار لا بمقاييس الأثرة .

ووصف الغزالى أولئك الذين يتجرأون على الدين ويصفونه بأنه فكرة متأخرة وماهو إلا مجرد مخلفات بالية ـ بأنهم سفهاء وضالون يفتحون أبواب الفوضى والخيبة لأممهم .

جاء ذلك خلال اللقاء الفكرى الذى عقد بنادى هيئة قضايا الدولة بالقاهرة .

تحدث الشيخ الغزالى فقال : يظن نفر من الناس فى هذا العصر أن الدين أمسى من المخلفات البالية ، وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده وتعدو حدوده وتسير وحدها دون رعاية لرب خالق أو تهيب لجزاء منتظر . ويتعلق أولئك الواهمون بأن العلم فض مغاليق الكون واكتشف أسراره وأرصد لكل مشكلة علاجًا من عنده لم تبق للدين موضعًا ولا لقضاياه مكانًا وهذا الكلام إفك كله . ومهما نقبت فيه فلن تجد إلا ظلمات الادعاء والغرور ونضح الجهالة والشرود ، واتباع هذا اللغو مفتاح لأبواب من الفوضى والخيبة تلحق العالم آخر الدهر ، بل إن العالم يتعثر الآن فى بوادرها ويوشك أن يسقط فى براثنها مالم يتب إلى الله ويقلع عن هذا الغى .

التجرؤ على دين الله.. سفاهة وضلال

وأكد الغزالى أن الدين كان ولم يزل وسيظل ملتقى العقول السليمة والفطر القويمة ، ما أخطأ منهجه فكر ثاقب ولا ضل صراطه طبع نظيف . وأن العلم مهما اتسعت آماده وامتدت أبعاده وترادفت كشوفه فلن يجىء إلا بما يصدق الوحى ويدعم الإيمان ويمكن لهداية الرحمن ، وإلا بما يزيد الأتقياء بصرًا بجلال الله وقيامًا بحقه وثقة بلقائه الموعود .

ثم إن التهمة التى توجه إلى الدين الآن ليست جديدة ، والقول بأن الإيمان لون من خرافات الأمية سبق أن قاله المشركون من عبدة الأصنام فقال تعالى :﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ

إلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين ١٢ ـ ١٤ . وقال أيضًا : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[١] .

والقول بأن الدين شىء من خرافات الأولين ضرب من الجرأة التى يتسم بها سفهاء كل عصر يرمون بها المرسلين ، كأن الإلحاد فى آيات الله ذكاء وتقدم والاستجابة لهديه جمود وتأخر!! وذلك هو الضلال المبين .

سفاهة قديمة

وأكد الشيخ الغزالى أن اتباع الدين والانقياد لتعاليمه يقتضى تفتحًا ذهنيًا يتجاوب مع آيات الله فى كونه ، كما يقتضى عزيمة قوية لفطام النفس عن المظالم والآثام ، وهذا الجهاد يجعل كفة المؤمنين فى أية موازنة أرجح ، ويجعلهم أحق بالاحترام فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان اتهام الدين بأنه فكرة متأخرة ليس إلا سفاهة قديمة فكذلك ماينضم إلى هذا الاتهام من تبجح أهل الزيغ وتطاولهم كأنهم ورثوا ذلك الكبر بالإلحاد عن فسقة الجاهلية الأولى الذين كانوا يلقون رسول الله ﷺ فيسخرون منه ويستعجلون العقاب المعد للجاحدين ، ويصف الله تبارك وتعالى ذلك بقوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[٢] .

أضاف الشيخ الغزالى : إن القوم هم القوم ، حذو النعل بالنعل ، وإن المرء ليتفرس فى وجوه عشاق الإلحاد فى هذا الزمان فلا يرى فى ملامحهم البدنية والنفسية إلا ملامح المفتونين الصغار الذين تلى نبأهم من أعداء النبيين المكرمين ، الدعوى هى الدعوى ، والسيرة هى السيرة . أما الثرثرة باسم العلم وتقدمه فهى شكل ليس له موضوع فإن العلم دليل على الله وقائد إليه وهيهات ، هيهات ، أن يفد العلم بقضية تنقض الاعتقاد فى وحدانية الله ووجوب طاعته وضرورة الإعداد للقائه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ

(١) الأنعام : ٢٥ .

(٢) الأنبياء : ٣٦ ـ ٣٧ .

الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾[1] .

دين علمى

وأكد أن الإسلام دين يبنى كيانه المادى والأدبى على التعمق فى العلم والتزود من الثقافة وعلى دوام الصلة بعمل القدرة العليا فى مجال العالم الرحب ، وأولو العلم فى هذا المضمار قرناء لملائكة الله فى التصديق بعظمته والشهادة بعدالته وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. ﴾ و المتأمل فى القرآن الكريم يوقن بأن الكون مدرسة الإيمان الحق وأن العلم مدده الموار ونبعه الفوار ، وأن كل خطوة إلى الأمام فى دراسته إنما هى زيادة جديدة فى دلائل التصديق وأسباب اليقين .

إن الإسلام يربو على العلم كما يربو الجسم على الغذاء الجيد . وينمو باستبحار المعرفة كما يغلظ النبات على الشعاع والماء .. فياعجبًا ، كيف يزعم زاعم بأن الإسلام ضد العلم أو أن الإسلام ذهب أوانه لأن العلم قد توطدت أركانه؟؟

ووصف الغزالى هذا القول بأنه انتكاس فى الفهم وانطماس فى البصائر وهذا ما أكده قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

ثم تساءل الغزالى قائلاً : لننظر أى كمال تبلغه الإنسانية بعيدًا عن منطق الإيمان وإيحاء الدين؟! إن دسائس النفس لبلوغ مآربها لاحصر لها وما لم يحكمها ضمير موصول بالله فإنه يستحيل أن تخلص للخير أو أن تتجرد من الشر .

سيظل الإسلام ملتقى العقول السليمة رغم أنف الحاقدين والعلمانيين

جبروت المتفوقين

وأضاف : لقد حصل المستعمرون فى هذا العصر على أنصبة ضخمة من العلم النظرى والتفوق المادى ، فماذا صنعوا به؟ وماذا أفادت الدنيا منه؟ ملكوا القوة فكانت فى يد الفاتح الغالب سلاحًا للنهب والغصب وأداة للجبروت والكبرياء ووسيلة لقهر الأمم وتكبيل عقولها وضمائرها بالأغلال ، إن الحياة التى يستهدفها الإلحاد لسكان هذا الكوكب المرهق

(١) النبأ : ٣٨ - ٣٩ .
(٢) الجاثية : ٢٣ .

حياة لا صواب فيها ولا رحمة ، حياة يصرخ فيها المدل بتفوقه صرخة الزعيم الصهيونى القديم «قارون» عندما قيل له : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ﴾ القصص ٧٧ ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴾[١] .

حياة يقول فيها سراقو الحقوق وموقعو البخس إذا قيل لهم : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ هود ٨٦ . ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[٢] .

إن الإلحاد ليس خرابًا قلبيّاً فقط ، وليس ظلامًا فكريّاً فقط ، بل هو ـ إلى جانب ذلك وهذا ـ دمار اجتماعى يقوض أسس الشرف ويرد منابع العفاف ويطلق ألسنة العاهرين بطاردة أهل الطهر وأولى النهى قائلين ﴿ .. أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٣] .

واستطرد الشيخ الغزالى وصفه لبعض مظاهر الانحلال والضلال التى بدأت تتفشى فى المجتمع الإسلامى قائلاً : إن الحياة بعيدًا عن فضائل الدين وشعائره انطلاق حيوانى محض ، ولا يجوز أن ينخدع العقلاء بمظاهر الارتقاء التى تلوح أحيانًا بين أقوام متحللين من شعب الإيمان وتعاليم الدين ، فإن أزمات العالم التى تتهدده بالويل والعذاب الأليم إنما تنشأ من غرائز السوء التى تمت فى ظلال الإلحاد وانطلقت من عقالها انطلاق السباع من غابها .

وماترجع البركة إلى الأرض إلا إذا عاد الناس إلى ربهم منيبين راشدين .

مهمة الدعاة

وبلسان حال الدعاة يؤكد الشيخ الغزالى المهمة الرئيسية التى تنتظر أن يقوموا بها فقال : إن مهمتنا نحن هي تعريف الإسلام لأهله حتى يعودوا مسلمين ، فمن شأن جمال الإسلام إذا تحلى به أهله حقّاً أن يكون عملهم به وسيرتهم القائمة على أخلاقه وسيلة لمعرفة الآخرين به .

فمن عرف شيئًا صار صديقًا له ومن جهل شيئًا عاداه ، وإن تسعة أعشار عداوة غير المسلمين للإسلام ناشئة فى هذه العصور عن فقدان القدوة ، وعن تقصير المسلمين فى أن تكون معاملاتهم وأخلاقهم وتصرفاتهم ممثلة لإسلامهم فخيل إلى غير المسلمين أن معاملاتنا وأخلاقنا وتصرفاتنا المخالفة للإسلام من الإسلام فكرهوه لذلك .

(١) القصص : ٧٨ . (٢) هود : ٩١ . (٣) الأعراف : ٨٢ .

إن الإسلام الذى تطمره الآن عواصف متتابعة الهبوب وأمته التى انفرد الخصوم بكل جزء منها كما ينفرد قطاع الطريق برجل مليء فى مكان موحش . . هذا الإسلام من حقه أن يحيا ، وهذه الأمة من حقها أن تأمن . لماذا تتألب الدنيا والرزايا عليه وعليها؟

واستطرد الشيخ الغزالى حديثه بقوله : أنا أعتقد من عشرات السنين أن الإنسانية فى حاجة إلى البعث الإسلامى ؛ لأنها تتخبط فى أنظمتها الحاضرة ولا تجد لها مخرجًا من هذا التخبط إلا بأنظمة الفطرة القائمة على أسس الأخلاق ، وأنظمة الفطرة القائمة على أسس الأخلاق لاتحتاج إلى من يخترعها من جديد ؛ ذلك أنها موجودة بالفعل فى نظام الإسلام الذى أهمله المسلمون فصاروا حجابًا بين الإنسانية وبين معرفة هذا النظام ، فاضطر الغرب إلى أن ينزلق فى أنظمة أملى عليه اليهود بعضها ، وأغروه ببعضها أو جعلوه منها أمام أمر واقع ، أو كانت لهم يد فى تعديل البعض الآخر أو توصل غير اليهود إلى بعض المبادئ ، فوجدها اليهود داخلة فى برامجهم فأيدوها وروجوها وفسروها ونشروها حتى صارت من صلب ذلك النظام المعمول به فى الغرب والذى أخذنا نقتبس عنه تقاليد حياتنا منذ نحو مائة سنة .

فغشى دواوين حكمنا وأسواق تجارتنا وساد فى مجامعنا ، وسابق نساؤنا رجالنا إليه فى الأزياء والآداب والمعاشرة حتى آمنا به وكفرنا بما سواه ، وأصبح الرجل المستقيم منا هو الذى يمدحه الناس بأنه ملتزم لذلك النظام الأجنبى وغير مخلٍّ بشىء من أصوله أو فروعه أو آدابه .

ولو أن المسلمين انتفضوا انتفاضة حكيمة يرجعون بها إلى أنفسهم ويعيدون تنظيم مواريثهم ويتعاونون على إقامة نظامهم الفطرى الذى يتعاملون فيه بمقاييس الإيثار لابمقاييس الأثرة فإنهم لايلبثون أن يوجد فيهم من أبنائهم جيل ترى فيه الإنسانية جمال الإسلام ويتبين لها أنه ضالة الإنسانية التى كانت تنشدها فيتجدد بذلك تاريخ الإنسانية جميعًا .

وكشف الشيخ الغزالى عن أن هناك سباقًا قائمًا بين عدة أديان كى يثبت كل منها أنه أولى بالحياة وأجدر بالبقاء ، وقال : الغريب أن بعض المنتمين إلى الإسلام يجهل هذا الواقع ويرتكب حماقات تسىء إلى دينه بل تنفر منه وتصد عنه ، وتساءل متعجبًا : لحساب من يتحدث بعض الناس عن الإسلام ويصورونه بعيدًا عن مقررات الفطرة وأشواق الإنسانية الكاملة؟! ولحساب من يعلو صوت الإسلام فى قضايا هامشية ويخفت خفوتًا منكرًا فى قضايا أساسية؟

جهاز عالمى لدعم الأخلاق والقيم

جاءتنى رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس ، عقدت مؤتمرها الأول فى شيكاغو ، وتستعد لعقد مؤتمرها الثانى بمناسبة مرور ٥٠ عامًا على تأسيس هيئة الأمم المتحدة ، وقيل لى بعد اختيارى عضوًا : إن مؤسستنا عالمية تضم رجالاً من كل دين سماوى أو أرضى ، بل تضم أعضاء لايؤمنون بأى دين . المهم أنهم يدعمون الأخلاق الفاضلة ، ويحترمون المثل العليا التى يجب أن تحكم العالم . . وأنا رجل شرقى ، الأول والأخير أنى أقول وراء محمد ﷺ : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ . .** ﴾ . أنا أشعر حين آكل بأن الله هو الذى وضع اللقمة فى فمى وحين أفكر بأن الله هو الذى أسرج مصباح عقلى . إنه يستحيل أن أفكر أو أسوى بين مؤمن وكافر أو أشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحدها فى عمل ما لرفع مستوى البشر . .!! شعرت بأن أهل الأديان تلاحقهم تهمة خطيرة ، أنهم لايهتمون بتزكية الروح ، وأنهم قد يدفعون المظالم عن أنفسهم ، لكنهم لايدفعونها عن غيرهم! فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها دينى جاء فيها مايلى :

شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمى لدعم الأخلاق والتسامى بالبشر . وقلت : إن الفطرة الإنسانية لاتزال طيبة تعشق الكمال وتسعى إليه ، وتقاوم السعار المادى الذى يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته ، ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره واختصرت أبعاده ، ونشأت فيه ـ لأول مرة من تاريخه المديد ـ هيئة للأمم كلها ، أى أن أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة مايثور من مشكلات ، والتعاون على حلها . لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا فى ظل الاكتمال الخلقى وكبت غرائز الأثرة والكبرياء . فهل نقصر فى توفير الوسائل المنشودة لتحقيق مانصبو إليه؟

مكارم الأخلاق

إن نبى الإسلام يقول : «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» ، ويقول لعلى بن أبى طالب : «**ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك**» .

ويقول لأصحابه : «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا : بلى! قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»!!

إننا نحن المسلمين يسعدنا تأليف هيئة أخلاقية تساند هيئة الأمم ، وتسدد خطاها ، وتحصنها من المحاباة والهوى .

لكننى ــ ولأكن صريحًا ــ شعرت بحرج شديد عندما علمت أن «البرلمان» الأخلاقى فتح الباب للمؤمن والكافر ، للموحد والمشرك ، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت! قد تقول : هذه هى الدنيا وهؤلاء أبناؤها . وقد تكونت الأمم المتحدة من ملل متناقضة ، وتجاورت فى مقاعدها لتدرس قضاياها المختلفة . وماتستطيع هيئة أخلاقية إلا أن تفعل ذلك! ولى على هذه الإجابة تعليق!

إن النظر إلى الإيمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لاصلة لها بالأخلاق أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين ، أو هو أمر يثير الاشمئزاز ، لماذا يخلق الله ويعبد غيره؟ ولماذا يعطى ويشكر غيره؟ هل العقوق رذيلة إلا فى معاملة الله؟!

تقوية الفضائل ومحاربة الرذائل

إننى لو أجزلت العطاء لأحد ثم رأيته يجحدنى لاشتد سخطى عليه واحتقارى له! فكيف أرضى وجود أفراد أو جماعات تطعم من خير الله صباحًا ومساءً ثم تتجرأ عليه وتنكر وجوده وحقوقه ؟! أعتقد أننا لاينبغى أن نعترف بهم ، وإذا اضطررنا إلى مجالستهم فلنرسم لذلك سياسة خاصة توفق بين عقائدنا وحقهم فى الحياة ، من يدرى؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسنّاهم . . ومن دواعى سرورنا نحن المسلمين أن نلتقى بأتباع الديانات السماوية التى سبقتنا فى مؤتمر جامع لتحسين الحسن وتقبيح القبيح وتقوية الفضائل ومحاربة الرذائل . إن لدينا الكثير الذى نود أن نقوله ، والتراث الذى تركه لنا محمد ﷺ لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها ، ولا رغبة فى التسامى إلا ذكاها وشجع عليها . إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم الأخلاق ، ولا أعرف رسولاً سماويًا ولا فيلسوفًا أرضيًا خلف مثل هذه التركة!! ومن أراد الاطلاع أو الترجمة دللناه على المراجع التى يحتاج إليها . . ثم إننا نحن المسلمين نحب أن نتعرف على الناس ، وأن يتعرف علينا الناس ، هكذا علمنا ربنا .

فإن الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ، ولنسفك الدماء ، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[1] .

المعاملة بالمثل

ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها! قرأت أن يهوديًا فى مدينة الخليل استولى على بيت عربى ، ثم قال لرب البيت : «هذا البيت ملكى من بضعة آلاف عام وقد عاد إلى ، ولست أطلب منك أجر سكناه طوال هذه القرون ، لقد تنازلت عنها ، فاذهب إلى أى مكان وأقم به أو اسكن فى العراء إن شئت ولا تعد هنا وإلا . . .» هل تستقيم علاقة إنسانية مع هذا المنطق؟!

والسياسة الاستعمارية التى سيرت العالم فى العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها .

فإن الجريمة التى ارتكبها الإسلام ـ كما يرى البعض ـ أنه دحر الإمبراطورية الرومانية التى كانت تحتل الأناضول وشرق البحر المتوسط ووادى النيل وشمال إفريقية وأقطارًا كثيرة أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين ، الذين اعتنقوا الإسلام بداهة . .!! وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون .

ولاشك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس إنسانية مجردة فتح صفحة جديدة فى تاريخ العالم ، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق ، لكن هل المنتصرون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا من مسورات الحقد القديم وحاربوا التعصب والجشع؟

لعل إنشاء جهاز أخلاقى عالمى يساند الخصائص الإنسانية العليا ، وينشط الجهود المبذولة لدعمها ، ويصل بالهيئة إلى مانريد ويقى العالم شرور الانقسام والخصام .

تحريم الظلم

عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : «**ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» وفى الحديث أيضًا : «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**» والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفًا فى رضاه وفى غضبه ، فلا يستبيح خصمًا ، ولا يجور على ضعيف بل يقف عند الحق ويستريح للعدل و يعلم أن النزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الإنسان .

(١) الملك : ١٥ .

ويؤسفني أن الإنسانية في تاريخها الطويل احتالت على ارتكاب المظالم ، ورأت في اختلاف البشر - قوة وضعفًا . وغنى وفقرًا ، وإيمانًا وكفرًا - ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ماتريد وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شيء ماديًا كان أو أدبيًا ﴿ .. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** .. ﴾[1] .

وفي آية أخرى : ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾[2] .

لقد وهل الناس أن اختلاف الدين يبيح التظالم ويترك المجال رحبًا للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة ، وهذا كذب على رب الدين وباعث المرسلين ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** .. ﴾[3] ، وأذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفرية وتبرئ الإسلام من هذه التهمة .

الحديث الأول : «**دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه**» .

الحديث الثاني : «**دعوة المظلوم ـ وإن كان كافرًا ـ ليس دونها حجاب**» .

الحديث الثالث : «**عن أبي ذر قلت يارسول الله ماكانت صحف إبراهيم؟ قال : كانت أمثالاً كلها : أيها الحاكم المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، و لكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر** ..»!!

ومن دواعي الدهشة أن يموت نبي الإسلام ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله!

ما أثر اختلاف الدين هنا؟

إن اليهودي التائه عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال في عاصمة الإسلام!

هل كانت غربته سببًا في أن يجور عليه أحد؟

---

(1) النساء : ١٣٥ . (2) المائدة : ٨ . (3) النحل : ٩ .

يا أيتها النفس المطمئنة

إن الله لايعطى غنيًا المال كى يقول لغيره : ﴿ . .أَنَا أَكْثَرُ منكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ إنما يعطيه ليشرك غيره فيه ويسارع إلى مواساة المحتاجين وتفريج كربهم ولم يحرم أحدًا المال ليبكى على دنيا فاتته أو يحسد من أوتى شيئًا منه بل ليصبر ويكافح ويتربى على العفاف . ومن بدء الخليقة فاوت الله بين أرزاق الناس لحكم منشودة وامتحان مقصود ولذلك قال ـ بعد وقوع هذا التفاوت : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[1] وقد نشبت معركة الخبز من قديم واجتذبت إليها أنشطة البشر جميعًا ، وضربت الحرب بين الأثرة والإيثار والبخل والعطاء وأقول وأنا محزون إن وصايا الدين انهزمت وغرائز الوحوش غلبت ، ثم ظهرت فلسفة الشيوعية التى تولت عن الله تقسيم الأرزاق لأنها اتهمته بالجور! فماذا حدث؟ قال الإنسان فى ظلها بعدما اكتوى بذلها وبؤسها :

رب يـــوم بكـيــت منــه فلمـــا ... صـرت فى غـيره بكـيت عليــه

وسألت نفسى ماذا قدم المسلمون للجماهير التائهة على ظهر هذه الأرض؟ لا شىء ، فد غطوا وجه الإسلام وشوهوا جوهره ، بل لقد رأيت فى دار الإسلام أحرارًا يلتمسون الكرامة فى أرض أخرى ويبحثون عن العدالة التى عزت مصادرها فى أرضهم! لم يبق إلا انتظار البعث الآخر ، ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾[2] .! هذا صياح الندم يوم لاينفع ندم! أما الصالحون من عباد الله فهذا يوم البشرى وتهلل الوجوه بالفوز . روى الطبرانى عن سعيد بن جبير قرأ رجل عند رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾[3]فقال أبو بكر : ما أحسن هذا!! فقال له النبى ﷺ «أما إن الملك سيقولها لك عند الموت» . أول العدول الراشدين ، ومن أولى

(١) الفجر : ١٧ ـ ٢٠ . (٢) الفجر : ٢١ ـ ٢٤ . (٣) الفجر : ٢٧ ـ ٣٠ .

الناس بها ، ولكن السياق عام فى القرآن الكريم يتناول كل مؤمن أسلم لله وجهه وأصلح له عمله ، فالكلمة الجميلة تنتظره ليدخل الجنة ، ويشارك فى أحفال التسبيح والتحميد التى تملأ رحابها ، جعلنا الله بمنه وفضله من أهلها .

﴿ **لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ يعنى أقسم بمكة ﴿ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ ثاو به تدعو إلى الله على بصيرة ، مع أن البلد حرم يصان فيه الحيوان والنبات فإن محمدًا استبيح واستمرئ العدوان عليه ، ولماذا القسم ببلد يقع فيه هذا التناقض؟ لأن الدعوة إلى التوحيد هنا وبناء جيل جديد يرتبط بالله إجابة لدعاء وقع من وراء القرون يقول فيه إبراهيم وإسماعيل : ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ ولذلك نحن نفسر : ﴿ **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** ﴾ بأن الوالد هو إبراهيم وأن محمدًا من ذرية إسماعيل هو ولده الذى يختم الرسالات ويقيم دولة التوحيد فى الأرض ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ . إن الجنس الإنسانى يحمل أثقال التكاليف ولجام الشريعة يحجزه عن تحقيق شهواته وقد يكفر الإنسان وينكر أنه سيحيا مرة أخرى لماذا؟ أيعجز الله عن إعادته بعد إماتته؟ ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ** ﴾؟ وذلك كقوله فى سورة أخرى : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ** ﴾ ويغتر الإنسان بما أسدى وأنفق من ثروة يقول : ﴿ **أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا** ﴾ كثيرًا ، وتلك طبيعة العرب فى الافتخار بالجاه والثراء والعطاء ويقول عنترة :

وإذا سكرت فإننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يكلم . . .!

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى . . .!

وما قيمة هذا كله إذا لقى المرء ربه عريان لا يكسوه إيمان ولا صلاح ﴿ **أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ** ﴾؟ إن الله سائل كل امرئ عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ ثم يذكر المولى عبده بما أودع عنده من نعم تستدعى الشكر ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ** ﴾ وهديناه النجدين ، فهلا كسر قيود الكفر والتقليد الأعمى واقتحم طريقه إلى الله مؤمنًا به مطيعًا لأمره وماذا يصنع لتحقيق ذلك؟

وسورة البلد بينت أن الأنبياء لم ينجحوا فى هداية أطراف الجزيرة شمالاً وجنوبًا حتى جاء النبى الخاتم فابتعث من وسط الجزيرة رجالاً حملوا المشاعل إلى العالم أجمع .

الأمم لا تقام بالهمهمة والبطالة

القاهرة ـ وكالة الأنباء الإسلامية :

أكد الشيخ محمد الغزالى أن مشرط الطبيب ودواء الصيدلانى وفأس الزارع وقلم الصحفى أدوات لنصرة الله سبحانه وتعالى وإعلاء كلمته . وفى مجال التأمل فى الآية الكريمة ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ** ﴾ قال فضيلة الشيخ الغزالى : إنه من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا . . عجزة فى الحياة . ويضيف فضيلته أن العبادة السماوية لاتستغرق نصف ساعة على مدى يوم وليلة . . تعاليمها تحتل صفحة أو صفحتين ليبقى الزمان بعد ذلك واسعًا والمجال رحبًا لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها وتسخيرها «كلاً وجزءًا» لخدمة الدين ، وضرب مثلاً فقال إن نفرًا من العابدين رأوا أن يحصروا عبادتهم فى الصلوات والأذكار يبدأون ويعيدون ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة . فمن ينصر الله ورسله إذا كان أولئك جهالاً بالحديد وأفرانه ومصانعه . . والله يقول فى كتابه العزيز : ﴿ . .**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[1] .

إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط والانتفاع بمشتقاته لا نعرف عنها شيئًا فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبغى أن ينبنى عليها بهذا العجز المهين؟

ويتعجب فضيلته ممن يزعمون الإيمان والجهاد قائلاً : إن الله لا يقبل تدينا يشينه هذا الشلل المستغرب . مشيرًا إلى أننا نعانى من الطفولة التى تجعل غيرنا يطعمنا ويداوينا ويمدنا بالسلاح إذا شاء . وينصح الشباب الذين يظنون أن التقوى هى بذل وقت أكبر فى القراءات الدينية والأخذ بقدر يسير من شئون الدنيا وعلوم الحياة فيقول : «الإسلام لايكسب خيرًا من هذا المسلك ولا تنتصر عقائده إذا كان أهله فى بلاهة الهنود الحمر وكان أعداؤه يملكون مكوك الفضاء» .

ويقول للشباب : املكوا ناصية الحياة بعلم واقتدار لتقدروا على نصرة الحق الذى نعتنق ، أما قبل ذلك فهيهات .

---

(١) الحديد : ٢٥ .

نرفض الشذوذ والإباحية

الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى لاينكر بعض المكاسب التى تحققت للمسلمين من وراء انعقاد هذا المؤتمر بالقاهرة ، لكنه يرفض أن تفرض الدول الغربية أفكارها ومبادئها بما فيها من شذوذ وإباحة على المسلمين ، ويقول : إن أوروبا رأت أن الأمة الإسلامية لاتزال متمسكة بالأخلاق الإسلامية فقررت ضربها عن طريق إلزامها بقوانين وقرارات تتنافى مع قيمها و لاتتفق مع عاداتها وتقاليدها الإسلامية الموروثة .

ويوضح الشيخ الغزالى أن هجوم العلماء على المؤتمر قبل انعقاده لم يأت من فراغ ولم يكن الهجوم لمجرد إبراز العضلات أو تعطيل عمل جيد لمصر وللمسلمين ، ولكنه كان نتيجة طبيعية لما تتضمنه الوثيقة التى كانت ستمر وسيتم التصديق عليها ، لولا رأى العلماء وحملتهم . . فالمشروع المقترح من أخطر ماعرض على العالم الإسلامى بل هو حلقة خطيرة ضد الأديان كلها لأنه يتجاهل بوقاحة قيم الدين . . ويقول : لقد قرأت مشروع الوثيقة وضاقت نفسى وشعرت بأنه حلقة فى سلسلة طويلة وحقيرة لضرب الإسلام . . ولكن أثبتت المناقشات فى المؤتمر أن الأمة الإسلامية لن تموت وستظل تدافع عن مبادئها وشرائعها رغم محاولات التمويت الثقافى والأخلاقى والحضارى التى تتعرض لها الأمة .

وأشار الشيخ الغزالى إلى أن المشكلة أن المسلمين الآن فقدوا الثقة فى المنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة بعد مواقفها السلبية بل والمخزية من قضايا ومشكلات المسلمين فى العالم ، ولذلك فهم يتخوفون من كل تصرفات الأمم المتحدة . . ونحن لاننكر أن الأمم المتحدة تستشعر خطر زيادة السكان المسلمين فى العالم بعد أن أصبحوا يمثلون خمس سكان العالم ، ولذلك تحاول دول الغرب تطويق هذه الزيادة فى القرن القادم .

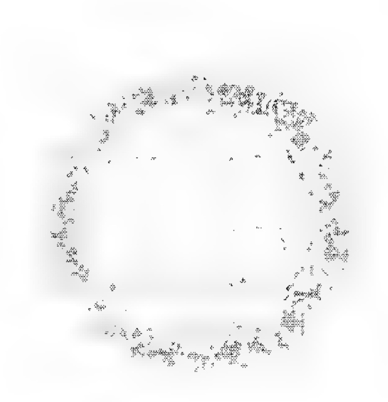
وبصوت ملىء بالحزن والأسى يقول الشيخ الغزالى : إن هناك جهوداً شيطانية لإبقاء أمتنا أمة فقيرة . . ولايخفى على أحد من المخلصين أن الغرب هم صناع فقر الأمة حيث استطاعوا بتفكير جهنمى غريب أن يقنعونا بأن خيرات وموارد العالم تقل مع زيادة النسل ؛ لذلك يلزم ضرورة الحد من النسل بأى وسيلة من الوسائل دون الرجوع

فى ذلك إلى دين أو عقيدة . وهذه أفكار لا أساس لها من الصحة ، ولايقبلها دين أو عقل سليم ، فهؤلاء ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ ونسوا قول الله تعالى : ﴿ .. **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** .. ﴾[1] فالله سبحانه وتعالى قدر لكل مخلوق قوته ورزقه إلى يوم القيامة . . وجاء فى الحديث القدسى مامعناه : « . . . **لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم سألونى فى وقت وأعطيت كلاً منهم مسألته مانقص ذلك من ملكى شيئًا** » . . وقال سبحانه فى كتابه العزيز : ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ** .. ﴾ . . ولكن للأسف انساقت الأمة وراء ضلالات الحضارة المادية الحديثة التى تتزعمها دول الغرب .

فقر أخلاق

وأكد الشيخ الغزالى أن الأمة الإسلامية لاتعانى الفقر كما يدعى أعداؤها ، وإنما فقر العالم الإسلامى فقر أخلاق لا فقر أرزاق وموارد ، فالأمة تعانى فقرًا فى أخلاقها ومواهبها وعقائدها ، والسبب فى ذلك سوء التربية فيها وبعدها عن خالقها ورازقها ، ولذلك لا أمل فى أى إصلاح إلا بالعودة الحقيقية للإسلام .

* * *



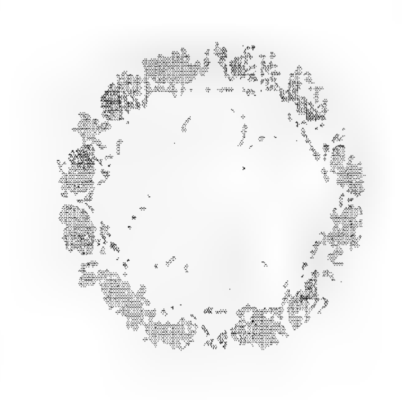
(١) فصلت : ١٠ .

الإسلام دين ودولة

الإسلام دين ودولة ، ولا يمكن البتة جعله علاقة فردية خاصة ، والدولة فى ديننا تخدم على سواء أمرين مهمين : الرسالة التى تمثلها ، والأمة التى تحملها ، وهى خدمة منزهة عن الأثرة والاستعلاء تساندها شورى صحيحة لامزورة ، وضمانات لحقوق الإنسان تحميه من كل ضروب الظلم ، والولاء للإسلام لا للجنس! والأخوة الإسلامية هى الرباط الأول وإن تباعدت الأمكنة والأزمنة . ولغير المسلمين جميع الحقوق التى للمسلمين وعليهم جميع الواجبات ماداموا فى ذمتنا . وفى الخلافة الراشدة نموذج للحكم الإسلامى النزيه . ويمكن التوسع فى التطبيق ، وابتداع الوسائل التى تحقق المقررات الإسلامية! وليس الحكم الدينى عندنا تنفيسًا عن شهوات فرد ، ولا ستارًا للاستبداد المطلق ، بل أساسه بيعة حرة ، وشورى ملزمة ، ومثل دينية واضحة . وليست الدولة لخدمة الفرد أو الفرد فى خدمة الدولة ، بل الكل لإعلاء كلمة الله ، وتنفيذ وصاياه بين الناس ، وهى وصايا تصون الدماء والأموال والأعراض ، وتحقق الخير والمعروف وتأمر بهما . . وقد ألفت كتب كثيرة عن نظام الحكم فى الإسلام ، عن حقوق الإنسان وعن الخلافة والشورى ، وأرى فى كتاب «الشورى» للدكتور عبدالحميد الأنصارى مايؤكد المعانى التى أومأنا إليها آنفًا .

والمشخصات الأدبية والمادية لأمتنا تتعرض من قرون طوال لحرب شعواء ، وظاهر أن استئصال الإسلام وأمته هدف حقيق لملل شتى! فإذا لم يتيسر الإفناء الحسى ، فلتقم حرب المفتريات بتشويه معالمه وتنفير العالمين منه . . وهذا الموقف يفرض علينا جهدًا مضاعفًا للحفاظ على أنفسنا وتاريخنا ومقوماتنا كلها ، ولايسوغ أن نكون عونا لعدونا فى إهالة التراب على حقائقنا وآثارنا ، ويتقاضانا ذلك إعادة النظر فى تاريخنا العلمى والحضارى والسياسى ، وجعل دراسته ركنا ثقافيًا لا نافلة عارضة . هناك مؤلفات عربية للعقاد ، وكرد على ، ومحمد منتصر ، وعادل مظهر ، تحدثت عن الحضارة الإسلامية بإفاضة . ينبغى أن تدرس بعناية

فى جامعاتنا كلها . . وهناك إخفاء لا أدرى عن غباء أو تعمد لدور الصليبية العالمية فى مهاجمتنا على امتداد تاريخنا كله بدءاً من مؤتة وتبوك ، إلى أن انهارت الخلافة التركية فى القرن الرابع عشر إلى الآن ، لماذا لاتبرز هذه العداوات فى أثناء تدريس التاريخ؟ ولحساب من يتم إخفاؤها؟ وصاحب الغزو العسكرى الحديث نشاط تبشيرى واستشراقى هائل ، مايجوز إهماله ولاالغض من خطره ، وقد ألف عمر فروخ وغيره كتبًا قيمة فى هذا المجال يجب توزيعها على نطاق واسع حتى نحصن الثغرات الكثيرة فى هذا المجال التى تسلل منها الغزو الثقافى .



إصلاح النفس البشرية

فى تدبرى للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة رأيت الإسلام يبنى الشخصية الإنسانية على سلامة الفطرة وأصالة الفكر ، فمن فسدت فطرته وغامت فكرته هبطت عبادته ، فما تساوى عند الله شيئًا ﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [1] .

وعلى هذا الأساس يقوم الإصلاح الحقيقى للنفس البشرية .

أنا لا أنتمى إلى فرقة من الفرق ولا أتعصب لمذهب من المذاهب ، وإنما أنظر بأدب وتواضع إلى المذاهب الإسلامية كلها ، مدارس المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين والفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة . . وأبحث عن الحق بتجرد .

وفى مجال إصلاح النفس انتفعت برجلين من مشارب مختلفة ، أولهما ابن قيم الجوزية ، والآخر ابن عطاء الله السكندرى ، وما ألزم أحدًا برأيى ، فإن الجامع الأول والأخير بين المسلمين أجمعين هو كتاب الله تعالى . . ثم من استبطن هذا القرآن خلقًا له ، وبلغ الأوج فى هداية الناس به وتربيتهم بحكمته . . المثل الكامل لسائر البشر محمد بن عبدالله ﷺ .

وعصرنا الحاضر أحوج العصور إلى الحكمة القرآنية والسيرة النبوية فى التهذيب وجهاد النفس والهجرة إلى الله من عالم الشهوات الجلية والخفية .

ألا فلنعلم أن من عمى عن وجه الله ، واستيقظ من نومه ليتحرك حول نفسه وأهوائه ليس للآخرة فى وعيه حساب فهو هالك ، ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [2] .

وذكر الله أكبر من أن يكون حركة شفتين ، إنه يقظة قلب ورؤية آيات ، ونصح خالص وهضم للنفس وإعظام لله وحده .

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .
(٢) يونس : ٧ - ٨ .

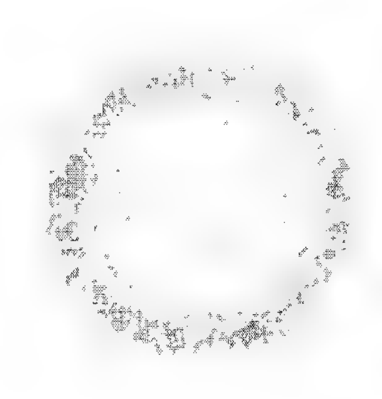
إن الإسلام يتشعب شعبتين : إحداهما تمس القلب لتنشئ فيه مشاعر الرغبة والرهبة ، والصبر والشكر ، والتوكل والحب ، إلى آخر ما أفاض المتصوفة فى شرحه ، وامتلأت كتبهم به ، وفى طليعتها كتابات ابن عطاء الله وابن القيم وغيرهما من السابقين واللاحقين .

والشعبة الأخرى تتصل بالعقل لتغرس فيه عقائد وأحكامًا شتى ، وقد غصت كتب الفقهاء والمتكلمين بهذا النوع من المعارف المهمة . . وماتغنى شعبة عن أخرى .

بيد أنى لاحظت أن العوام لهم اهتمامات مثيرة ، فهم يكترثون لوضع اليد فى الصلاة ، أتكون تحت العنق أم فوق الصدر أم على السرة! أكثر مما يكترثون لفريضة الخشوع ، أو لضرورة تدبر مايتلى من القرآن .

إن المراسم الظاهرة تعنيهم ، وقد يتطاولون على الأئمة لاختلافهم فى هذه الهيئات وهذا داء قديم حاول ابن تيمية علاجه فى كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» كما حاول أبو حامد الغزالى ذلك فى كتابه : «فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة» .

إن التدين الصورى وراءه إمداد دافق من القصور العقلى والغرور الأعمى ، وقد يدفع إلى ارتكاب رذائل منكرة .



إنصاف الإسلام للمرأة

فى عصرنا الحديث افتن الذين يتبعون الشهوات فى عرض مفاتن النساء وإقحامهن فى كل ميدان ، دونما حاجة إلى هذا الإقحام .

عند عرض راديو جديد قالوا : صوته صوت سيدة! وعند عرض شراب بارد ، جاءوا بامرأة تضع عنق الزجاجة فى فمها! وعند عرض ثوب للعمل أو للراحة جاءوا بامرأة ترتديه فى أوضاع شتى ، وعندما شاءوا خدمة ركاب الطائرات جاءوا بفتاة تحسن التلطف فى تقديم الطعام ، وعندما أرادوا مزيدًا من الإقبال على شراء السلع جاءوا بامرأة تجلس إلى الخزينة وتقبض النقود ، وعندما يريد مدير عظيم أن يبرز سطوته وأناقته يجىء بامرأة تكون (سكرتيرة) لمكتبه . . . الخ .

وقال لى بعض من يعرفون أوربا : إن هناك دورًا للبغاء توضع النساء فيها وراء زجاج (الفتارين) ، لكى تنظر الذئاب الجائعة ، ثم تختار مايعجبها .

وقد قلت يومًا : إننى لا أظن البشرية عرفت عصرًا أمكن فيه السطو على المرأة ، واستباحتها ظاهرًا وباطنًا ، كهذا العصر الذى نحيا فيه! فهل هذا هو تحرير المرأة؟؟

إن المسافة شاسعة بين ابتذال المرأة كما يريد البعض ، وبين ضمان حقوقها الإنسانية التى كفلها الوحى ، وضنَّ بها البعض .

إن مايقع الآن فى الغرب ـ ونقلده فى الشرق ـ هو فيضان مشاعر مسعورة وأهواء جامحة ، تريد تطويع المرأة لمباذل سيئة ، وليس من وراء هذا احترام لدين أو رغبة فى إنصاف النساء ، وصون إنسانيتهن . .

والذى يدعو إلى الأسى أن البعض عندنا لايفهم من تحرير المرأة إلا هذه الصورة التى ننكرها ونلعن أصحابها ، وقد تكون رد فعل لحبسها الطويل فى الظلام ، وعجزها عن الأخذ لنفسها ، وقدرة بعض الرجال الأشرار على دفعها إلى الهاوية ، وفى هذا يقول الأستاذ أنيس منصور : (مازالت المرأة تكشف عن مفاتنها ، وتتعرى ، حتى بلغت أقصى درجات الفساد والانحلال . . وإذا تعرت المرأة فلأن الرجل أراد ، وإذا انحرفت فلأن الرجل دفعها إلى ذلك ، ولابد أن الرجل قد تردى إلى ماهو أحط وأحقر حتى بلغ هذا الدرك الأسفل) .

إن الإسلام نسق آخر فى الفكر والسلوك بعيد عن هذا الشطط ، أساسه أن النساء شقائق الرجال ، وأن بينهن وبين الرجال حقوقًا متبادلة ، وكرامات متساوية ، قال تعالى :

﴿ . . .لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾(١) .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

وعلى هذا الأساس طار المجتمع الإنسانى إلى أهدافه العليا بجناحين من الذكورة والأنوثة ، ووسع المسجد الجنسين معًا يطلبان العبادة والمعرفة .

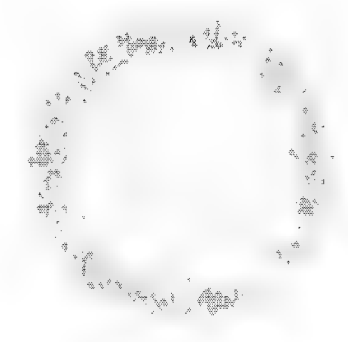
المصيبة أن البعض الآخر دون مستوى الفهم لطبيعة المجتمع الإنسانى ، ولوظيفة المجتمع الإسلامى ، وقد رفع عقيرته فى الأيام الأخيرة من يقول : لاعمل للمرأة إلا أن تضع الأولاد .

وعندما تكون المرأة بقرة للإنجاب فقط فلابد أن يكون رجلها ثورًا ، ولابد أن تنحدر الأمة كلها إلى أن تكون حديقة حيوانات . .

هل الإسلام يقدم رسالته إلى العالمين بمجتمع من هذا النوع الهابط؟

إننا نرفض المجتمع المنحل ونرفض كذلك المجتمع المختل ، نرفض أن تكون المرأة دابة للنسل ، وتنتهى رسالتها فى الدنيا إلى هذه الغاية .

المرأة تتعلم وتجاهد ، ولها الحق فى أن تدرس ، وتطبب وتقوم بأعمال شتى تتناسب بداهة مع طبيعتها الأنثوية ، وعملها الأول والأهم هو أن تكون ربة بيت وحاضنة أسرة . وهذا العمل يتطلب ثروة من الأدب والعلم لاحصر لها ، وإلا فإن المرأة لن تنشئ إلا ذرية أسوأ .



(١) آل عمران : ١٩٥ .
(٢) النحل : ٩٧ .

للفضائل دعائم اقتصادية

أجدنى بحاجة إلى أن أؤكد مرة أخرى قيمة الفطرة الإنسانية ، ومبلغ الكمال الذى تستطيع معنوياتها أن تصل إليه ، مهما أحيطت بالعوامل المضادة لها .

فقد تحتفظ الجذوة بحرارتها واشتعالها أمدًا طويلاً بين أكوام التراب البارد!! وقد تنمو فى جوف الصحراء ، أشجار تختزن فى أوراقها الماء والخضرة والرى!

وإقرار هذه الحقائق لاينكر حقائق أخرى ، تعلن أن الفضائل الإنسانية والقومية تفتقر فى نموها إلى موارد دافقة ، من أمواج الحياة الغنية الكريمة العزيزة ، وأن هذه الفضائل قد تذوى وتنتهى إذا لم تجد هذه الأمداد المتتابعة التى تمدها بالغذاء والنماء .

ومما هو جدير بالذكر أن النبى صلوات الله عليه وسلامه كان يستعيذ بالله كثيرًا من الديون وشرورها ، وقد سمع ذلك منه مرارًا حتى سئل فى ذلك فأجاب بأن المدين قد تلجئه قلة الوفاء إلى الكذب .

فإذا كانت بعض أحوال الدنيا توحى بالكذب والبخل ، فبعضها الآخر يوحى بالصدق والكرم ــ لا مراء ــ ونريد نحن أن ننظر إلى بيئتنا لنرى ، أتوحى بالفضائل وتنشئ النفوس عليها ، أم أن لها إيحاء آخر؟؟

وفقدان العدالة الاجتماعية فى أنحاء العالم الإسلامى جعل الناس يخرجون من ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة ، لاعمل لهم إلا ماتوارثوه من بذر الحب وانتظار الثمار من الرب كما يقولون .

فإذا طلعت الشمس عليهم طلعت على قوم ، لم يجعل الفقر لهم من دونها سترًا بل طلعت على قوم لايكادون يفقهون قولاً .

وكان لزامًا- فى هذه الحياة الراكدة الجامدة- أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلى هبط بقواهم الأدبية ، هبوطه بقواهم المادية . ومن المفيد أن نعلم أن عقل الإنسان كجسمه ، يحتاج إلى غذاء دسم منظم ، لكى يستمر نماؤه ويتم كماله ، ذلك أنه -كثيرًا- مانجد الرجل فى سن الخمسين ، وعقله دون هذه السن بكثير ، فنجد له تفكير الأطفال ، وقصور فهمهم لشئون الحياة العامة .



السر فى ذلك بَيِّن . ففى حين وَجَد هذا الرجل حاجاته الضرورية لجسمه من طعام وشراب ، فقد حاجاته الضرورية لعقله ، من علوم وثقافات وآداب .

وقد يكون المعدن العقلى لهذا الرجل نفيسًا ، ولكنه كالأرض الطيبة التربة ، لم تجد ماء ولا بذرًا فلم تجد فيها حياة ولا ازدهارًا .

ومن المحزن أن ننظر إلى كثيرين من أبناء أمتنا ، فنراهم قد أصيبوا بهذا الشلل العقلى ، والعقم الفكرى ، والهوان الأليم فى إنسانيتهم ، لأنهم حرموا فى طفولتهم ، وفى رجولتهم هذا الغذاء العقلى ، الذى لابد منه .

والنقص الأدبى لا يحس به صاحبه إحساسه بالنقص المادى .

بل ربما أحاطت به أحوال تشعره بالكمال والعظمة ، وتهون فى ناظريه القيم المعنوية .

ولو أن كل محروم من وسائل المعرفة والفضيلة ، يتألم لذلك ألم الجوعان لفقدان ما يرحم معدته من وقود ، لاستراح الناس واسترحنا من لوثات الأغبياء والأدعياء!!

لكن المجتمع العام - بعكس الفرد - شديد التأثر والإحساس بمدى الكمال المعنوى لمن ينتمون إليه ويعيشون فيه .

فمن الناحية الدينية ، يحتاج الإيمان إلى الكمال العقلى . والله عز وجل يقول : ﴿ **وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾[1] .

ومن الناحية الدنيوية ، تقل الفوارق كثيرًا بين الإنسان والحيوان ، كلما قل عقله ، فيهبط السلوك الإنسانى إلى الحضيض بهبوط التفكير .

ونحن أمة أحوج ما تكون إلى العلم الواسع ، لتنتفع به فى دينها ودنياها . وكيف الطريق إلى ذلك إذا لم تتلاش فوارق الطبقات ، ولم يتلاش معها التظالم الاجتماعى . ثم يبنى المجتمع على أسس من احترام الإنسان ، وتقرير حقوقه . وتنمية ملكاته وتدعيم فضائله؟ .

ذلك من الناحية الإنسانية .

أما من الناحية القومية ، فإنَّ فضائل الشعوب الحية ينقصنا - مع الأسف - الكثير منها .

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

إذ لابد للشعب الحر من توافر الحمية والأنفة والشجاعة والتضحية ، فأنى ذلك؟ وللأمية الغالبة على بلادنا أثر بالغ السوء فى تبلد المشاعر وضعف الفهم لقضايا الوطن ، وقلة الحماسة العامة لها . وعدم انعقاد الإجماع على نصرتها ورواج النفاق السياسى بين المحترفين القدامى من الساسة والشيوخ ، الذين تصدروا الصفوف- لأن الغاصبين أرادوا لهم أن يتقدموها ، وبين الهواة الجدد ممن أغرتهم المنافع ، وظنوا أن فى الاشتغال بالسياسة كسبًا لأشخاصهم ، وليس واجبًا يفرضه عليهم هذا الوطن المغلوب على أمره!

ولقد كانت الحوادث الأخيرة عبرة ، لمن يرقبون أطوار اليقظة القومية فى بلادنا .

فقد دلت على أن هناك بقايا كثيرة من التخدير الذى أمات الإحساس الصحيح فى جسم الأمة ، فهى تحاول النهوض ، فيطاوعها بعض أطرافها ، ويستعصى البعض الآخر!! .

وهى تنظر بعين فيها بوادر الغضب ، وفيها فتور النوم !

وهى تفتح فمها فلا تدرى : ألتقول الكلمة الفاصلة؟ أم لتتثاءب ، أم لتخلط بين الأمرين! .

ذلك كله . . لأن الوعى الاجتماعى ضعيف عندنا ، والفضائل القومية- تبعًا لذلك- فاترة مريضة .

ولكيما تقوى وتصبح ، يجب أن نبحث لها عن الدواء ، ولن نعرف الدواء إلا إذا عرفنا أن للفضائل العامة والخاصة دعائم اقتصادية ، يجب تعريفها وتقريبها .



سورة النور ودورها فى بناء الأسرة المسلمة

سورة النور . . سورة تميزت بالحفاظ الشديد على كرامة الأسرة ، وقيمة العرض ودعمت جانب الشرف ، وفصَّلت ماينبغى أن يلزمه المجتمع كى يحافظ على حرمات الله وحقوق الناس ، ورسمت للتقاليد الجنسية والاجتماعية صورًا دقيقة ألزمت المؤمنين بها ووقفتهم عند حدود الله فيها . .

ومع أن سور القرآن كلها منزلة من عند الله ، ومعروف أنها سور إلا أن هذه السورة وحدها دون سور القرآن كلها تميزت بهذا البدء : ﴿ **سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[1] . والسبب فى ذلك : أن السورة تدور حول مشكلات الغريزة الجنسية وهى من أعتى الغرائز وأقواها ولما كان ضبط هذه الغريزة فى مسارها وانطلاقها لابد منه لضمان نفس شريفة ، وخُلق مستقيم ، وعِفة شاملة مستوعبة ، ومجتمع نقى طهور فإذا السورة بدأت هكذا . . . ولابد أن نعلم ابتداء أن الإسلام دين الفطرة ـ أى دين الطبيعة السوية المستقيمة . . يرفض التكلف والافتعال . . وماأنزل الله من تعاليم فى هذا الدين القيم هو لضبط الفطرة وضمان أن تسير سيرًا حسنًا . . لهذا كان للغريزة الجنسية تعاليم واضحة فى هذا الدين . . وكان لانحرافاتها عقوبات محددة فى هذا الدين .

الغريزة والزواج

وسورة النور تتحدث عن احترام الغريزة وضبطها حتى لا تنحرف يمنة أو يسرة ، ثم التخويف لمن يدع حدود الله أو يترك العقوبات التى قُررت تقريرًا حاسمًا فى هذه السورة المباركة . . القرآن الكريم لم يعتبر الغريزة الجنسية رجسًا من عمل الشيطان . . اعترف بها وجعل المتنفس الوحيد لها الزواج : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾[2] واعتبر الزواج عبادة بل جاء فى السنة أنه نصف الدين :

(١) النور : ١ .　　(٢) المؤمنون : ٣ ـ ٧ .

«**إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه فليتق الله فى النصف الباقى**»[١] إذًا الزواج فريضة اجتماعية لابد أن تتواصى الأمة الإسلامية بتيسيرها . . لكن ذلك متروك للوعى العام وللضمير المؤمن . . وقد جاءت آيات فى هذه السورة تتحدث إلى أولياء الفتيات ، وجاءت أيضًا تتحدث إلى من يريد الزواج أو من يقدر عليه ويطلبه . . فى الآيات الأولى نقرأ قوله تعالى : ﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٢] ويشرح النبى ﷺ هذا التوجيه فيقول : «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض**»[٣] ووكل ذلك ــ بداهة ــ إلى تقدير ولى الفتاة وإلى تصور الأسرة للنفقة ومايتصل بها . . والواقع أن هذا التقدير لايمكن أن يَبُتَّ فيه قانون ، إنما الذى يَبُتُّ فيه مجتمع مؤمن ، والذى يَبُتُّ فيه رجال يتقون الله ويريدون أن يشيعوا العفة والقناعة فى المجتمع . . وإلى أن يتزوج طالب الزواج ، وإلى أن يستكمل دينه ماذا يصنع؟ يقول الله : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾[٤] فلابد أن يستعفف . . وعبارة الاستعفاف تعنى أن المرء يتكلف أو يعانى أو يتعب نفسه ، ولابد من ذلك فى كبح الهوى وضبط الغريزة . . فإن الغريزة العاتية تحتاج إلى إرادة حديدية . . وهنا نجد أن الإسلام حارب الانحراف والجنس بمحاربة بوادره الأولى أو المقدمات التى تُغرى به . . وكان فى هذا دينًا عمليًا . .

لا لاقتحام البيوت

فى هذه السورة نقرأ قوله تعالى وهو يمنع الانحراف الجنسى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[٥] وكما قال أحد السلف إذا سمعت الآية تقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ فأعرها سمعك فإما خير تؤمر به أو شر تُنهى عنه . . هذا النداء يستثير الإيمان . .

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس ﷺ وإسناده حسن كما فى صحيح الجامع للألبانى ١/١٣٦ـ ١٣٧ .

(٢) النور : ٣٢ .

(٣) رواه الترمذى فى النكاح . باب ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه . وقال : حسن غريب . . تحفة الأحوذى ٤/٢٠٥ وابن ماجة ١/٦٣٣ والحاكم ٢/١٦٥ .

(٤) النور : ٣٣ .

(٥) النور : ٢٧ .

لماذا؟ لأن الإيمان هو الذى يخلق الضمير اليقظان الحى الذى يجعل الإنسان إذا قرع بيتًا ولم يجد الرجل فيه يرجع من حيث جاء . . لايجوز بتَّةً اقتحام بيت ليس فيه صاحبه . . لايجوز دينًا ولا مروءة اقتحام البيت وفيه امرأة وحدها فإن البيت حصنها ، وينبغى أن تبقى فى هذا الحصن مصونة . . والإسلام يرفض كل تقليد اجتماعى يتواضع الناس عليه لجعل الخلوة بالمرأة ممكنة . . يرفض الإسلام هذا لأنه بذلك ـ فعلاً ـ يسد أبواب الفتنة .

غض البصر

ثم توجيه آخر لابد منه وهو : غض البصر . . فإن الإنسان إذا أرسل عينه تتلصص على الأعراض من هنا أو من هنا فإنه يفتح أبواب الشر على نفسه . . وقد قال شاعر قديمًا :

والمرء ما دام ذا عين يقلبها

فى أعين الغيد[1] موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته

لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

إن فتح باب الفتنة يكون بالعين المحملقة والبصر الطامح . . والإيمان أساس ـ هنا ـ فى كبح الهوى لأنه من الذى يعلم خائنة الأعين؟ من الذى يعرف كيف ترسل بصرك وما النية الكامنة وراء هذه النظرة؟ إن الإيمان هو الأساس الذى لابد أن يُنبَّت فى القلوب ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾[2] .

المثيرات مرفوضة

توجيه ثالث : وهو منع المثيرات الحسية : ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾[3] . ومعنى هذا أن جسد المرأة عورة ينبغى أن يُوارى أو أن يُدارى وما عدا الوجه والكفين ينبغى ستره . . فلا يجوز أن تلبس ملابس تصف البدن أو تَشِفُّ عن

---

(١) الغيد : النعومة ، وامرأة غيداء وغادة أى ناعمة .	(٢) النور : ٣٠ .	(٣) النور : ٣١ .

مفاتنه أو تغرى العيون الجائعة باستدامة النظر إليه فإن هذا كله فتح لباب الفتنة . . والإسلام عندما يأمر بالعفة وعندما ينهى عن الفحش فهو يسُدُّ الطريق ابتداء أمام المثيرات التى ينزلق بعدها القدم . . لهذا كانت السورة كما قلنا سورة آداب جنسية إلى جانب أنها ضمانات وحصانات للأعراض وللشرف وللقيم . . من ذلك فى أول السورة وآخرها الاستئذان . . ففى أول السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[١] .

آداب منزلية

وفى آخر السورة يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٢] إن الأولاد فى البيت ينبغى أن يُعلموا أدب الدخول فى الغرف . . هذا المعنى . . معنى أن الأسرة التى تسكن شقة وفيها غرف ينبه على الأطفال فى أوقات معينة ألا يدخلوا إلا بعد استئذان واضح . . هذا أدب إسلامى ينبغى أن يعرفه المسلمون وأن يلتزموه . . هذا أدب إسلامى لا ينبغى أن نتجاهله أو نزدريه لأنه من ضوابط العرض وصيانات الشرف التى تُربى عليها الأسرة الإسلامية .

عقوبات

فإذا حدث بعد ذلك أن انحرف أحد فإن العقوبة الإسلامية هى الجلد . . بإجماع المسلمين يجلد الزانى الذى لم يحصن . . أى لم يتزوج . . وجمهرة المسلمين على رجم

(١) النور : ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) النور : ٥٨ ـ ٥٩ .

المحصن . . والآية في هذا واضحة : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

والجلد عقوبة للإنسان إذا هبط إلى دَرْك الحيوان . . وكما أن الحيوان يُضرب بالعصا حتى ينفذ الأمر الذى صدر إليه لأنه لاعقل له كذلك إذا هبط إنسان عن منزلة العقل والضمير وارتكس فى حمأة الشهوة وأصبح منقادًا لغريزته الحيوانية فإنه يتعرض للعقوبة التى يتعرض لها الحيوان . . لأنه أصبح حيوانًا إذ يسطو على عرض كان ينبغى أن يصونه . . إذ ينتهك حرمات لله كان ينبغى أن يحفظها وأن يرعاها .

فإذا هبط إلى مستوى الحيوان فهو مستحق لعقوبة الحيوان . . على أن الرجم الذى جاءت به السنة إنما جاء إحياء لشريعة قديمة . . فالإسلام لم يبتدع عقوبة الرجم للزانى أو الزانية إذا كانا محصنين . . إنما هذه الشريعة شريعة التوراة[2] ولا تزال برغم ما أصاب كتب اليهود من تحريف . . لا تزال هذه الشريعة موجودة إلى الآن تنص على رجم الزانى والزانية مادامـا محصنين[3] ويقول أحد الأدباء تعليلاً طريفًا لهذه الحكم : إن من هدم بيت الزوجيـة بزناه أو من هدمت بيت الزوجيـة بزناها ينبغى أن تنتقم أحجار البيوت كلها من جلده ومن بدنه حتى يتعلم كيف يصون البيت!! ولذلك قال القرآن : ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾[4] .

القذف حرام

وإلى جانب صيانة الأسرة عن طريق منع العمل الردىء ، فإن الأسر يجب أن تصان عن طريق رفض أى اتهام لايليق من هذا القبيل ، والإسلام فى هذا كان حاسمًا . .

---

(١) النور : ٢ .

(٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟» فقالوا : نفضحهم ويُجلدون فقال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد ، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . قال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة» . أخرجه البخارى فى كتاب المناقب ـ باب قول الله تعالى : ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ . ٢٥١/٤ ومسلم فى كتاب الحدود ـ باب رجم أهل الذمة فى الزنى ١٢١/٥ ، ١٢٢ .

(٣) ففى سفر التثنية ـ إصحاح ٢٢ «إذا وُجد رجل مضطجعًا مع امرأة زوجة بعل يُقتل الاثنان» . (٤) النور : ٢

فمن قذف إنسانًا بالزنا أو قذف أصله أو قذف فرعه الذى يتصل به ويمت إليه بسبب وثيق ، فإنه ينبغى أن يعاقب بالجلد ثمانين جلدة : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾(١) وهذا نوع من التأديب لابد منه ، وقد نُفذ هذا العقاب فيمن تطاول على مقام أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . . فإن بعض الناس تسافه ووقع فى شراك أحد المنافقين الذين يكرهون النبى ﷺ ويضيقون بدعوة الحق التى بُعث بها ، وحاولوا فى خبث وخسة أن ينالوا من مكانة البيت النبوى فأشاعوا عن السيدة عائشة رضوان الله عليها كلامًا هى منه بريئة وهى فوقه بمراحل وقد نزلت براءتها من عند ذى العرش جل جلاله ، وبيَّن أنها أعظم من أن تُلِمَّ بهذا وأكبر من أن يُلاك عرضها على هذا النحو ، وقيل للمؤمنين فى هذا كلام ينبغى أن يعرفوه وأن يحفظوه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾(٢) . ثم يؤدب الناس : ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾(٣) . حتى لو رأيت بعينك وأنت واحد فلا يجوز أن تتكلم لأن الله جل شأنه يريد أن يستر . . يريد أن يعطى فرصة للتوبة . . وفى الحديث : «**من ستر على مؤمن عورة فإنما أحيا موءودة**»(٤) إن ناسا قد يخطئون ولكن الله جل شأنه لايعامل الناس بخطأ يرتكبونه . . إنه يفتح لهم باب المتاب وفُرصًا لاحصر لها حتى يثوبوا إلى رشدهم ويستقيموا على الصراط المستقيم : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾(٥) .

تلك الأحكام التى تقررت فيما يتصل بالانحرافات الجنسية وبالتهم التى لاينبغى أن تجرى على لسان مسلم يحافظ على الأعراض . . هذه الأحكام ينبغى أن نرعاها وأن نحافظ عليها .

---

(١) النور : ٤ . (٢) النور : ١١ . (٣) النور : ١٢ ، ١٣ .

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن سلمة بن مخلد رضى الله عنهما ، والضياء عن شهاب ، ضعفه الألبانى . انظر ضعيف الجامع ٥/٢٠٥ . (٥) فاطر : ٤٥ .

هل للرذائل أسباب اقتصادية؟

غاية مايصبو إليه الدين ، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل . فإذا ضمنا هذا الجو الرحب ، فقد أمكن الدين أن يحقق رسالته . وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع للناس فى بطون الكتب ، أو كلامًا تنقله طائفة من الرجال فى حلقات الوعظ ، وخطب المنابر لا يثمر غير التوجيه النظرى .

ويكون الدين حينئذ موجودًا على هامش الحياة فقط .

* **من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية!!**

وقد رأيت بعد تجارب عدة ، أننى لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة ، الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة!! إنه من العسير جدًا أن تملأ قلب إنسان بالهدى ، إذا كانت معدته خالية أو أن تكسوه بلباس التقوى ، إذا كان بدنه عاريًا .

إنه يجب أن يُؤمَّن على ضروراته التى تقيم أوده كإنسان ،ثم يُنتظر بعدئذ ، أن تستمسك فى نفسه مبادئ الإيمان . .

كثيرًا ماوجدتنى أعالج وعظ الناس فى بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل . فكنت أحار . . ماذا أقول لهم؟

هل أُقبِّح لهم الدنيا ، كما يظن أنه مفروض على علماء الدين؟

إن الدنيا لن تكون أقبح مما هى عليه فى أعين هؤلاء التعساء .

فلابد من التمهيد الاقتصادى الواسع ، والإصلاح العمرانى الشامل ، إذا كنا مخلصين حقًا ، فى محاربة الرذائل والمعاصى والجرائم باسم الدين ، أو راغبين حقًا فى هداية الناس لرب العالمين .

أما أن نترك الظروف التى تلد الجريمة حتمًا ، تنمو وتتكاثر ، ثم نكتفى فى خدمة الدين بالنصائح المجردة ، والعواطف المفتعلة ، فهذا فى الحقيقة هو العبث المبين .

ولست ـ هنا ـ أنكر قيمة الوازع الأدبى ، أو أحاول بخس الضمير الإنسانى حقه ، فقد توجد أحوال شديدة تقف الإنسان على شفا جرف هار وتطلق فيه غرائزه الدنيا ، ويتضافر الحرمان والإغراء معًا على سوق المرء إلى الجريمة سوقًا عنيفًا ، ومع ذلك يتراجع عنها ، ويستنكف مفارقتها ، وتنتصر مواهبه العليا آخر النزاع .

غير أن هذه الأحوال لايجوز انتظارها من كافة البشر ، بل لا يجوز انتظارها أبدًا على تطاول الأزمة واختلاف الأحوال من إنسان يضىء الإيمان قلبه ، مهما بلغ فضله ، وربا علمه .

وخير لنا أن نتعرف الأمور من وقائع الدنيا ، وأن نقرر أن النسبة الكبرى من الرذائل تعود إلى واحد من الثالوث المتوطن فى أرجاء أمتنا من زمن بعيد ، ثالوث الفقر والجهل والمرض ، أو إلى اثنين من هذا الثالوث البغيض ، أو إلى أفراده جميعًا . وأن زوال هذه الآفات الإنسانية ، يخفض نسبة الجرائم فى بلادنا ٩٠٪ ، ونحن نعرف أن فى مصر آلافًا من العلماء الذين ينتمون إلى الدين وينبثون فى معاهده ومساجده ، وينطلقون فى المدائن والقرى يبشرون ويخطبون .

فهل وصلنا ـ بعد هذا المجهود المادى والأدبى الواسع ـ إلى درجة من الرقى ، والسلامة الاجتماعية ، كالتى وصلت إليها بعض الدويلات الأوروبية مثل سويسرا مثلا؟ كلا!

ولنضرب مثلاً ببعض الجرائم الشائعة لنرى مصداق ما قلنا .

السرقة

جريمة خلقية واجتماعية كبيرة ، رتّب عليها الدين عقوبة دنيوية ، تتراوح بين قطع اليد ، وقطع العنق ، عندما تكون السرقة فى الخفاء ، أو عندما يكون صاحبها مدمن اختلاس أو عندما تكون السرقة غصبًا بالإكراه كما يعبر القانون الحديث .

وعقاب كهذا ليست به شائبة قسوة مادام القصد من تنفيذه تأمين الحقوق ، وصيانة الجهود ، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال ، لا السطو على كسب غيرهم ، والعيش به من حرام .

ولكن هذه الأغراض كلها تذوب فى مجتمعنا الذى يزخر بأسباب التملك الباطل ، ووسائل الاستغلال المريب . فإذا قامت حول الجريمة شبهات ، تجعل العقاب لايحقق هذه المصالح وجب وقفه ، وامتنعت إقامته .

ومن هنا أمر النبى صلوات الله عليه وسلامه أن ندرأ الحدود بالشبهات .

وأمر عمر رضى الله عنه أن يعطل حد السرقة فى عام المجاعة!

ورأى أئمة الفقه أن دعوى الملك فى المسروق ، تمنع من الحد ـ مادامت شبهة الملك معتبرة .

وقصد الشارع من وراء هذا الاحتياط ألا تقطع إلا اليد الظالمة الآثمة . يد اللص المعتدى على حق غيره يسرقه ، غير قانع بما عنده ، وهو يكفيه ويغنيه .

والمجرمون الذين يُعدُّون من هذا النوع قلائل . . بل إنهم يعدون على الأصابع من بين الآلاف ، التى تقدم إلى المحاكم . .

روى مالك بن أنس فى الموطأ أن رقيقًا لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مُزَيْنَةَ فانتحروها ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فأمر عمر كُثَيِّر بن الصلت بقطع أيديهم . . .!!

ثم قال عمر أراك تجيعهم؟ والله لأغرمنك غُرمًا يشق عليك .

ثم قال للمزنى : كم ثمن ناقتك؟ فقال : قد كنت ـ والله ـ أمنعها من أربعمائة درهم! فقال عمر لحاطب : أعطه ثمانمائة درهم . . .!!

قال ابن وهب : إن عمر ـ بعد أن أمر كُثَيِّر بن الصلت بقطع أيدى الذين سرقوا ـ أرسل وراءه من يأتيه بهم (ليرفع الحد عنهم) .

فلما جىء بهم قال لعبدالرحمن بن حاطب : لولا أنى أظنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى لو وجدوا ماحرمّ الله لأكلوه لقطعتهم .

ولكن والله إذا تركتهم لأغرمنك غرامة توجعك . . .

من هذا الأثر ترى أن عمر فهم تشريع القطع على حقيقته .

فهم أنه عقوبة رادعة لمن يرتكب هذه الجريمة من غير حاجة تلجئه إلى مال الغير .

وحين تبين له أن هؤلاء الغلمان اضطروا إلى السرقة ـ لما نالهم من جوع وحرمان ـ أبعد الحد عنهم .

وإذ أسقط الحد عن هؤلاء المرهقين ضاعف العقوبة على رب المال الذى أساء الامتلاك ، وكان ـ بأثرته ـ علة هذا الاضطراب فى المجتمع . . .!!

عندئذ تقل جرائم السرقة حقًا! ويومئذ يستحق السارقون أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

الزنـــا

جريمة خلقية واجتماعية بالغة الفحش ، ولعل الاختلال الاقتصادى ـ بما يخلقه من بؤس وترف ـ أهم الأسباب المؤدية إلى انتشار هذه الجريمة ، ومواجهة هذه المشكلة لاتكون بالاستنكار السلبى ، فما أسهل هذا الاستنكار على متعودى الخطب الوعظية ، وما أحقر أثره فى تغيير الواقع الأثيم .

إن الشهوة الجنسية لابد أن تتحرك ، فإذا لم تتح لها الحركة الطيبة ، لم يبق أمامها غير الحركة الخبيثة .

والعصمة المؤقتة أو الدائمة عند بعض الرجال الفضلاء ، أو الرجال الهادئين لا يصح الالتفات إليها عند وضع تشريع عام ، يراد به حفظ عفاف الأمة ، وصيانة قوى الشباب المادية والأدبية والعقلية .

فإذا أردنا ـ باسم الدين ـ قمع الحركات الخبيثة للشهوة الجنسية ، فيجب أن نيسر وأن ننظم أسباب الاتصال الجنسى الحلال ، وأن نفرغ من العمل على وضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة المعقدة ، ولن يكون ذلك إلا بإعادة النظر ، فى فهم حقيقة الزواج ، والأساليب العسيرة ، التى يتم بها الآن .

إن إتاحة الزواج للراغبين مسألة لاتقل عن ضمان الأقوات للشعوب ، وعندى أن وزارة التموين لاتمثل إلا نصف المشكلة المادية وأن شئون الزواج والأسرة تحتاج إلى وزارة أخرى .

والطبقات الفقيرة والمتوسطة ، تواجه مع الزواج ثلاث مشكلات ، فالمهر عقبة ، وقد يسهل اجتيازها ، فتبقى مشكلة الدخل الذى يصون البيت الجديد والأسرة الناشئة ، ثم تبقى مشكلة الدخل الواسع ، الذى يكفل حياة أولاد تجب تغذيتهم وتربيتهم على خير وجه .

هذه كلها عوائق اقتصادية ، لا يقوى الدين بالكلام على حلها

وإنما يفرغ الدين منها ، عندما يبنى المجتمع ، الذى لايبقى فيه فقير ولاحقير ، والذى يقدم للفرد الضمانات المعقولة ، لكفالة أسرته ، ورعاية مستقبلها والذى يسخر فيه إنتاج الأمة ، لإسعاد الأمة كلها ، لا لترف بضعة أفراد منها .

فإذا تم ذلك ، تم القضاء على نسبة ضخمة من جرائم الزنا ، وإذا صودرت أسباب الترف لدى المترفين ، تم القضاء كذلك على جزء آخر من مظاهر الفسق والخلاعة والتحلل .

فمن أبى إلا ارتكاب الفاحشة بعد أن مهدنا له طريق الفضيلة ، وجب جلده أو رجمه . بل وجب قتله رميًا بالرصاص!

الفكر الإسلامي بين التقوقع المعجز والانفلات الضال

الإسلام دين معصوم . الكتاب كما قال منزله : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[1] . والسنة في جملتها معصومة فيها الخير كله وفيها السند الذى تحتاجه الإنسانية لتسير فيه .

معنى أن الكتاب معصوم وأن السنة معصومة أن أى مخالفة للكتاب أو جحد لما فيه خروج عن الإسلام ، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[2] .

إذا أمر الله ، خرست لعمر الله   أنفسًا لما تكلم فوقها القدرُ

إذا قال الله فلا كلام لأحد ، متى ثبت للرسول كلام خضعنا له ، هذا هو الإسلام .

أما الفكر الإسلامى ، وهو عمل العقل فى فهم النص ، عمل العقل الإنسانى فى فهم النص الدينى كتابًا كان أو سنة ، فهذا العمل أو هذا الفكر ليس بمعهود ، فقد يخطئ الإنسان عندما يفكر ، وقد يجتهد ويحيد عنه الصواب . والمجتهدون من فقهائنا اختلفت وجهات نظرهم أو بالمصطلح العام : «اختلفت مذاهبهم لأسباب» . فقد يختلفون مثلاً لطبيعة اللغة العربية . خذ مثلاً حرف الجر :

﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ هل الباء للإلصاق كما يقول الأحناف ، فربع الرأس يكفى . . إلصاق اليد ، هل هى للتبعيض فشعرات الرأس تكفى ، هل الباء زائدة كما يقول مالك ، فلابد من مسح الرأس كله؟ . . ليكن . . وجهات نظر . . الخلاف موجود . . الفكر الإسلامى هنا قائم . حقيقة أو مجازًا ﴿ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ هل اللمس حقيقة أو مجازًا عن نوع معين من اللمس؟ . . اختلاف . . الخلاف الذى لفت نظرى وفيه شيء من الطرافة ؛ جمهور الفقهاء كما درسنا مذاهبهم ، يرى أن «الظهار» فيه عتق رقبة أو صيام شهرين أو طعام ستين مسكينًا ، ابن حزم له رأى خالف به

(١) الإسراء : ١٠٥ .   (٢) الأحزاب : ٣٦ .

الفقهاء ، أو الخلاف سببه حرف جر ، يقول الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا** ﴾[1] . إلى أن يقول . . ﴿ **فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا** ﴾ . . إذن فما معنى :

﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا . .** ﴾ كل الأئمة قالوا : «يعودون فيما قالوا» ، لكن ابن حزم رجع فى كلامه وقال : لماذا اللام هنا بمعنى هنا؟؟ لأن الآية التى بعدها فى نفس السياق : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ** ﴾[2] فاللام بمعنى هنا . وبنى على هذا أن الظهار الأول لا كفارة فيه ، والظهار الثانى هو الذى تلحقه الكفارة . . هو رأيه !!

إنما أردت أن أذكر سبب الخلاف من الناحية اللغوية ، قد يكون هناك خلاف بسبب المزاج الفكرى أو المزاج النفسى . وما معنى المزاج الفكرى هذا؟ الحقيقة أن هناك بعض الناس طبيعتهم العقلية «نص» وبتعبيرنا العادى والشائع الآن «حاصى» ، وهناك بعض الناس طبيعتهم العقلية تتبع الفحوى أو المقصد أو يعرف الأسرار من التشريع أو الأمر والنهى ، وهذا ظهر فى أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أصدر الأمر إلى جيشه ، قال : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة**» . . انتهى . . الجيش سمع الكلام . . لكن فى الطريق اختلفوا . . النصيون أو الحرفيون قالوا لا صلاة إلا فى بنى قريظة ولو نصلى العصر إلا بعد المغرب . أما أصحاب الفحوى فقالوا إن هذا غرضه الاستعجال وليس غرضه أن نضيع الوقت ، واختلفوا . . فصلى بعضهم فى الطريق ، وصلى بعضهم فى بنى قريظة . . وابن تيمية يرى أن الذين صلوا فى الطريق كانوا أولى بالحق من غيرهم . على كل حال الأمر واحد ؛ خلاف عادى لا قيمة له ، فهذا مزاج فكرى أو طبيعة فكرية .

هناك طبيعة نفسية ، مثلاً من خطب امرأة فى العدة ، عمر يقول : يفرق بينهما ثم تحرم عليه إلى الأبد . لماذا؟ طبيعة عمر فى الصرامة . . أما غيره فيقول : لا ، يفرق بينهما ، ويعود خاطبًا من الخطاب بعد انتهاء العدة كغيره من الناس ، يعامل كغيره من الناس . إذًا فهذا اختلاف سببه المزاج ، وترى هذا المزاج ـ ليس الهوى ولكن الطبيعة النفسية ـ تمثل فى أسرى بدر حيث قال أصحاب الشدة والصرامة :

(١) المجادلة : ٣ .　　(٢) المجادلة : ٨ .

«يقتل الأسرى» أما أصحاب الحلم والأناة فقالوا : نعتقهم ونأخذ بديلاً ننتفع به فى رفع حالة المسلمين الاقتصادية ، إلى آخره .

فالخلاف موجود فى الفكر الإسلامى منذ بدأ . . الخلاف فيه موجود وأنا لا أتشاءم من الخلاف ولا أقلق منه ، ورب العالمين اعتبر الخلاف من طبيعة الخلق ، لكن يكره أن يكون الخلاف بسبب فوضى خاصة بين الدهماء والعوام ، وإذا كان هناك شئون عسكرية وشئون مدنية يقع فيها خلاف فلا يجوز أن تتبعثر بين الجماهير لتسود الفوضى وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾[1] . أهل الاستنباط ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾[2] . بتعبير العصر الحاضر «الأخصائيون» هذا هو التعبير الدقيق لها ، والذى لا يتعرف عليه له أن يرجع إلى القاموس فى هذا .

الأخصائيون ، هم الذين يُسألون ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ فالذكر هو الفكر ، ومن فضل الله على هذه الأمة أنه وسع دائرة الفكر ، وقبل النتائج ، وفيه ما ليس فى غيره فى دنيا الناس .

هنا رأيان لعلماء الأصول ، رأى يقول «كل مجتهد مأجور ، أخطأ أم أصاب» كلاهما سواء ، لكن جمهور العلماء ، على أن للمخطئ أجرًا واحدًا وللمصيب أجرين . وهذا هو الرأى الشائع عند المسلمين ، أى أن المخطئ لا كفر ولا فسق عن أمر الله ، ولكنه أخطأ . لكن الخطأ يكون بعد حيثياته العلمية مثل خطأ الطبيب الذى يبذل جهده العلمى ثم تجىء النتائج على غير ما توقع ، أما إذا كان الخطأ عن إهمال أو عن تكاسل أو عن قلة اكتراث فهذا شىء آخر يعتبر تقصيرًا ، ويعاقب عليه .

فأنا أبذل جهدى العقلى إما أخطأت أو أصبت ، فهذه مسألة الله أعلم بها . ولكن أنا مأجور على الحالين ، وعلى هذا سار التاريخ الإسلامى حقيقة . وقد لاحظت أن المجتهد أبعد الناس عن الغرور بما وصل إليه .

أبو حنيفة قيل له : رأيك هذا الذى تقول هو الحق الذى لا شك فيه ، قال : لعله الباطل الذى لا شك فيه . ومع أن أبا حنيفة إمام أهل الرأى ورئيس مدرسة الفكر

---

(١) النساء : ٨٣ .

(٢) النحل : ٤٣ .

أو فقه الرأى من الناحية الإسلامية ، نجد على المقابل له الإمام الشافعى ، واضع علم الأصول وأول من تحدث فى حديث الآحاد ورجحه وقواه وسانده ، مع ذلك الخلاف الذى بينه وبين أبى حنيفة ، عندما سئل عنه قال : «الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة» . هذا بالرغم أن بينهما خلاف شديد ، هذه هى عظمة النفس البشرية عندما تتمحص لله ويصقلها الحق وتطلب مصلحة الأمة ، وتبذل الجهد لكى يتضح كتاب الله وسنة رسوله ، ولعامة المسلمين وخاصتهم . ونرجو من الخلف أن يأخذوا هذا وأن يتعرفوا عليه .

لقد دخلت الأزهر ، وأنا لا أعرف شيئًا ، حفظت القرآن ، ودخلت الأزهر لا أدرى شيئًا عن الفقهاء ولا مذاهبهم ، لكن أبى قال لى التحق بالأزهر على مذهب أبى حنيفة ، وهناك أناس من قريتى دخلوا على مذهب الإمام الشافعى وبعضهم على مذهب الإمام مالك ، كان حظى أن أتعرف على الفقه الحنفى ، فلما كبرت ودرست الفقه الحنفى من عدة كتب بدأت أنظر إلى فقه المذاهب الثلاثة الأخرى وأطلع عليها . . لا أقول أطلع عليها اطلاع دارس ، لكن اطلاع متجل ، يعرف ما يعنيه من القضايا التى قد يكلف بدراستها أو يرى لأمته حاجة إليها . ثم وجدت بعد ذلك أنه لا بد من الاطلاع على الفقه الزيدى والفقه الإمامى والفقه الظاهرى والفقه الفلسفى كما قدمه ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزيه ، وفقه الحديث (السنة) كما قدمه الشوكانى والصنعائى ، وفى هذه الأيام ، الألبانى وسيد سابق . . أنا لا أتشاءم من الخلاف وأعرف وجهات النظر لكنى ، وهذا شىء أحب أن أذكره عن نفسى من باب الأمانة ، لست من هواة الدراسات الفقهية ، ولا أميل إليها ولا أميل إلى دراسة القانون ولا أحب الاطلاع عليه . الشىء الذى استهوانى منذ بدأت أفكر هو دراسة العقائد والعلوم الإنسانية والملل والنحل والفلسفات وما إلى ذلك ، وعلى ضوئها تخصصت فى الدعوة الإسلامية ومضيت فى الطريق .

فلما مضيت فى الطريق بضع سنين قليلة ، وجدتنى مكرها على أن أرجع إلى الفقه لكى أدرسه مرة أخرى ، وأنا كما قلت لكم لست من هواة هذه الدراسة ، ضائق بها ، هذه طبيعتى . . ولكن لم اضطررت أن أرجع إلى الفقه مرة أخرى؟ . . السبب هو أننى وجدت عوائق تعترض الدعوة الإسلامية سببها آراء فقهية ، بل كادت هذه العوائق تطيح بالدعوة فى ميادين تصطدم فيها الدعوة بزحف صليبى أو بزحف شيوعى ، قلت : سبحان الله ، الإسلام يضيع بسبب هذه الخلافات ، أى بلاء هذا!!؟ أنا لابد أن

أعود مرة أخرى للدراسات الفقهية لكى أتسلح وأطلع وأقاوم ، وفعلاً عدت . . أنا وجدت فيمن اشتغلوا بالفقه فى عصرنا ، وجدت شيئًا ، عبته ، مثلاً وجدت ناسًا يعيشون فى ماضيهم لا يعرفون كيف أن الحياة سارت؟ سمعت فى إذاعة إسلامية بأذنى والله ، رجل يشرح الفقه ويقول ﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ نعم ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ نعم ﴿ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ نعم ﴿ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ ، فجاء فى «الشجاج» وأنا قرأتها فى مذهبنا الحنفى قراءة عابرة ، ثم قال إذا أصيب أحد بعاهة لا يمكن القصاص فيها فماذا نفعل له . فكانت الفتوى هكذا : نقومه عبدًا ، ونرى كم ثمنه وهو سليم؟ وكم ثمنه بعد العاهة؟ والفرق بينهما يدفعه الذى ضربه . الرجل يعيش فى أسواق النخاسة!! افترض أن هذا الرجل- لا يوجد عبيد الآن- كأنه حمار جرح فإذا كان يساوى ١٠٠ جنيه وهو سليم ، وبعدها جرح أصبح يساوى ٧٠ جنيهًا ، إذن فعلى الضارب أن يدفع ثلاثين جنيهًا !!

هل هذا فقه؟ يعرض فى هذا العصر!! أى فقه هذا؟ شى آخر ، لقد شكا لى شخص من تونس ، وقال لى ، يا أخى ، هناك شخص من الخليج دخل مكتبة مثل مكتبة الكونجرس ، والسواك فى يده يحركه يمينًا ويسارًا فى فمه ، يمينًا ويسارًا والناس تنظر له باشمئزاز!! فقال لى : صحيح أن السواك عندكم سنة أيها المسلمون ؟

فقلت له : يا أخى إن السواك سنة مشروعة للصلاة والوضوء . . لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك فى كل صلاة ، إنما لا يدخل مكتبًا عامًا أو برلمانًا أو كونجرس أو مكتبة ، ويدخل بالسواك وهو فى حنكه ، فهذا غير صحيح . ومع ذلك فالمقصود من السواك ليس «عود الآراك» ولكن المقصود «نظافة الفم» فى أى مكان : أكل ونظف بالفرشاة ، انتهى . فرشة الأسنان مع المعجون تكفى وتنظف أسنانه!! فيقول لى : كلا ، ويمسك السواك ويريد أن يدخل به المدرج عندى بالجامعة!! هل أطرده؟ نعم طردته! قلت له : كلا ، لا أقبل هذا الإسلام ، الدين النظافة ، ولا أحب أن يبصق هنا فى هذا المكان .

الأسوأ من هذا ، أنهم كانوا أهل بادية ، فقال لهم الرسول هى بالماء والحجر أى ثلاثة حجارة تنظف بها نفسك . والآن تريد فى القاهرة أن تحضر حجارة لكى تنظف بها نفسك ، وتضيع الصرف الصحى ، وتسد المجارى وتخرب لنا الدنيا بالحجارة . ما هو هذا الحجر؟ الأفضل أن تستخدم الورق ، فقال لى : مثل النصارى . قلت له ، أى مضارة!!؟ ماذا يحدث لو نظفت نفسك بالورق ؟

فوجدت أن هناك عقولاً ضائعة ، دخلت ميدان الفقه ، وهى متقوقعة فعلاً فى مكان لا تخرج منه وهذا ليس بفقه إطلاقًا! هذا نوع من البلادة الذهنية تسترت بالإسلام ، والإسلام بعيد عن هذا ولا أصل لهذا .

فى الوقت نفسه وجدت أناسًا انفلتوا فعلاً فقال لى شخص : إنا نراك مسرورًا من لجنة العفو الدولية . فقلت : نعم . . سيدنا رسول الله قال : **«لقد شهدت فى دار ابن جدعان حلفًا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت»** . إنهم أناس ينصرون المظلوم ، ويكشفون عن آلام بعض المتعبين .

فقال : حرموا عقوبة الإعدام ، وأنا أرى أن نتبعهم فى هذا ، فأنت زكيتهم ويجب أن نتبعهم فى هذا!! فقلت له : لا نتبعهم فى هذا ، لأن عندنا نص **«فى القصاص حياة»** .

تاتشر عندما كانت فى حزب المحافظين أقروا إلغاء عقوبة الإعدام ، فلما تولت السلطة وشعرت بضراوة المجرمين غيرت رأيها وقالت لابد من تنفيذ العقوبة . ومع هذا فأنا مع النص لأن الله أعرف بمصلحتى منى وبمصلحة الجماهير من الجماهير . عندما يكون النص حاسمًا ، اعلم أن مصلحة البشر فيه : (فى القصاص حياة) .

وربما أن سبب الاشتباك بينى وبين عبد الناصر فى مؤتمر الاتحاد القومى هذه القضية ، حتى وأنت تقوم بعمل روايات تمثيلية فى ضرر الأخذ بالثأر ، فقلت لعبد الناصر عندما يقتل شخص والدى ويدخل السجن ثمانى سنوات ثم يخرج ، فلا بد أن أقتله . أما أن تقول لى رواية تمثيلية من أجل الأخذ بالثأر لا يجوز من الناحية الاجتماعية!! كلا! خطأ كان لا بد أن يقتل! من أين أتيتم بمعنى :

«سبق الإصرار والتربص» هذا كلام من عند الفرنسيين وليس من عندنا!

من قتل عمدًا يقتل ، وانتهى ، إلا إذا عفا ولى الدم انتهى الأمر . يعاقب بطريقة أخرى أو يترك عقابه . هذا كان سبب الخلاف بينى وبين عبد الناصر هناك أمور أخرى .

على كل حال النص يحترم . هناك واحد من الحكام قال إن الصيام يعطل الإنتاج ويلغى الصيام!! قلت له : ما هو الإنتاج الذى لديكم ؟ بضعة معاصر زيت زيتون ، وبضع قفف من العجوى . هذه هى التى سيعطل إنتاجها!! العجوى وزيت الزيتون!! من قال إن الصيام يعطل الإنتاج! هذا غير صحيح . هذا كذب لا أصل له .

إذن هناك انفلات فى بعض الاجتهادات ، وهناك وقوف غريب فى اجتهادات أخرى والأمر يحتاج إلى أن نرد الفقه إلى أهله ، والفكر إلى أصحابه ، وأردد كلمة الأحنف بن قيس :

«من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره» .

بلاء الشعوب الآن خاصة فى العالم الاسلامى ، أن من يبصر الرأى لا سلطان له ، وإن أكثر من لهم سلطان عميان لا يرون إلا ما فى أنفسهم من أهواء! هذا هو بلاء الأمة الإسلامية . فيجب أن يعود الفقه له ورجاله الذين يجتهدون فيه وله أهله الذين يعملون فى ميدانه ، ومعهم الزاد الثقافى الواسع الذى يحتاجون إليه ولا بد منه كى يصدِّروا للأم أحكامًا سليمة تتبعها الشعوب وهى مطمئنة .

وهنا ألفت النظر إلى شىء كتبته فى بعض كتبى وهو أن الإسلام فيه نصوص لها قداستها لا تخترق أبدًا ، وهناك أخلاق أو مبادئ تركت لنا الحرية فى وسائل اختيارها ووسائل تطبيقها ، سوف أختار منها ثلاثة الآن .

العلم والشورى والجهاد

هذه قيم مؤكدة فى الأمة الإسلامية .

العلم لا بد منه ، وكون الأمة فى عصرنا هذا تجعل التعليم مراحل ، ابتدائيًا فإعداديًا فثانويًا فجامعيًا ، لا بأس . تعليمًا مدنيًا وتعليمًا عسكريًا ، لا بأس ، تعليمًا زراعيًا صناعيًا تجاريًا ، لا بأس . ليس لدينا وسائل محددة . والإسلام عندما طلب الصلاة حدد لها وسيلة واحدة هى الوضوء . فإذا فقدت ، فهناك وسيلة أخرى هى التيمم . فهنا الوسائل حددت . وهناك أشياء سكت الإسلام عن وسائلها : وتركها لنا ، فنحن يجب أن نتعلم والعلم يجب أن يشمل الأمة كلها . من الأكاذيب التى شاعت فى التاريخ الإسلامى للأسف ، وكانت من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية الأخيرة أن الأنثى حرمت التعليم ، وكان سبب الحرمان حديثًا مكذوبًا رواه الحاكم فى مُسْتَدْرَكه «لا تعلموا النساء الكتابة» وكتاب الحاكم كله كتاب مُسَوَّدة ، مات ــ غفر الله له ــ قبل أن يصححه ، والأمة منعت من فتح مدرسة بنات بسبب هذا الحديث المكذوب . واتصل بى رجل من سويسرا وقال لى : يا فضيلة الشيخ ،لدى كتاب الآن ولا أذكر اسم المؤلف ، المجلد ٢٦ ، صفحة كذا ، يقول : والأمة أمية وقد نهى عمر عن تعليم النساء الخط ، فقلت له هذا كذب . النهى عن تعليم النساء الخط كذب . أما أن الأمة أمية ،

فالحديث ورد ، ولكن المعنى الموجود خطأ وغير صحيح ، فهو يصف واقعًا : «نحن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب» العرب كانوا هكذا فعلاً ، أما هو ﷺ فما هى رسالته سوى محو هذه الأمية ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ فلقد قلت لبعض طلابى فى الجامعة الذى يضع رسالته فى فقه عائشة : أمنحه رسالة دكتوراه ؛ لأن عائشة لها اعتراضات على أحاديث كثيرة ، وهناك ردود عليها ، والذى يستوعب علم أم المؤمنين ، ويرى كلام الفقهاء ، وكلامها مع الصحابة ، وكلام الصحابة معها يأخذ رسالة دكتوراه .

من قال إن المرأة فى الإسلام تمثال للجهل؟ فالعلم لا بد منه كالطعام والشراب بل أكثر . إننى الآن أشعر بالأسى ، لقد كنت فى الجزائر وعندما كنت فى الجامعة التى أنشأناها ، لأن التعليم الدينى ألغاه حاكم شيوعى هناك . فجاء بعده رجل له دين وشرف وخلق وإسلام فاتفق معنا وأنشأنا الجامعة ، وأعاننا الله ، وفيها طالبات ، البنت تقول لى إن والدنا يقول لنا : ليس لنا تعليم ، ويمنعنا من المجىء . والدولة تمنح الطالبات والطلاب مواصلات وأكلاً . وهذا باسم الإسلام يريد أن يمنع بناته من العلم والتعليم! هذا بلاء! هذا عقل دينى غريب ! أما مراكز الثقافة الفرنسية فإنها تعمل ويمدها كثيرون . وهناك نحل سارت مع القومية العربية ومع البعث العربى . .! فوجدت أن هناك نزعات وجودية وإلحادية ومادية! والله ما تعترف أبدًا بالله ولا برسوله ، سوف تضيع الأمة الإسلامية ، وتريد أن تغرى البنات . لمن أتركهن! أتركهن يضيعون! من أجل رجل أعمى الفقه لايدرى!! كلا!!

الشورى ، لا بد منها فى الإسلام ، ولكن ماذا تكون الشورى؟ الشورى لها صور كثيرة . وطبعًا صورتها المثلى أيام دولة الخلافة الراشدة . ولكنى عندما أنظر للشورى أجد أن الحكم رئاسى فى الولايات المتحدة ، وفيها شورى . والحكم ملكى فى إنجلترا وفى هولندا وفى الدانمارك وفى السويد وفيها شورى عظيمة جدًا . ألكم فى فرنسا شورى؟؟ رئيس الجمهورية يختاره الشعب . رئيس الجمهورية فى إيطاليا يختاره مجلس النواب . صور الشورى مختلفة . الجماهير تختار الصورة ، لكن المهم عندى أن لا يكون هناك استبداد أعمى . الآن الاستبداد الأعمى أكل الشعوب واغتالها . بينما أجد بعض الذين يدرسون الفقه يؤخر الشورى ، وليس على باله إطلاقًا . هذا ليس من الإسلام! وهو لا فقه له .

أما بالنسبة للجهاد فإن وسائله تغيرت فى عصرنا هذا ، فالجهاد له أوضاعه وله تعاليمه ، ولكن الآن تغيرت الدنيا ، الجهاد الآن فى البر والبحر والجو ، وليس بالسيف والرمح ، بالقوس والنبل ، كلا ، لقد أصبح جهادًا علميًا . الآن لكى نقيم أجهزة جهاد ، لابد أن يكون لدينا كليات فى الفيزياء والكيمياء والأحياء ، والجيولوجيا والفلك ، وفى شتى علوم البر والبحر .

والأمة الإسلامية عندما خرجت من الجزيرة ، الإسلام رفع خسيستها ، فقد كانت أمة لا تعرف إلا الجمل! يقول ابن خلدون : لما وجد العرب أنفسهم قد ملكوا جنوبى البحر (أى البحر المتوسط) أى مصر وليبيا والمغرب ، وشرق البحر فهو معهم فقالوا لابد من أساطيل وسفن ، إذن باسم الإسلام العقل الإسلامى تفتح «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» . ولكن هؤلاء أناس فى البر . كلا . يجب أن يتعلموا فكان الأسطول الرومانى فى إيطاليا واليونان وصقلية وسردينيا وكورسيكا يفر منهم ، لماذا؟ لأنه ضرى عليهم كما يضرى الأسد على فريسته !!

إذن لقد علمهم الإسلام ركوب البحر ، ونقرأ فى البخارى ، أن الرسول كان نائمًا عند أم حرام بنت ملحان ، فرأته أفاق ثم ابتسم واستيقظ . فقالت له : م تضحك يا رسول الله؟ فقال : أناس من أمتى ملوك على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة ، يركبون هذا البحر غزاة فى سبيل الله ، فقالت له : ادع الله أن يجعلنى منهم ، ثم نام مرة أخرى واستيقظ يردد نفس الكلمات : أناس من أمتى يركبون سبج هذا البحر كأنهم ملوك على الأسرة غزاة فى سبيل الله ، أنت من الأولين . فماتت وهى فى الأسطول الذى أعده معاوية لكى يحاصر به القسطنطينية من الجنوب كى يمتلكها جنده من الشمال . ولم تفلح الخطة ، وماتت المرأة فى قبرص ويعرف قبرها «بقبر المرأة الصالحة» وأنا متأكد أنه لو أن هذه المرأة فى عصرنا هذا قالت للقائد ادع الله أن يجعلنى منهم ، فكان سيقول لها : أنت امرأة ماذا يخصك من هذا (أو باللهجة المصرية : أنت يا امرأة دخلك إيه!!) كيف تذهبين إلى الغزو فى البحر!! أنت اجلسى فى بيتك وليس لك إلا البيت !!

الفكر الإسلامى تغير كثيرًا ، وكان فكرًا مفتوحًا أيام الرسالة الأولى وكان منفتحًا على ثقافات العالم كلها ، وكان أصحابه يمسكون بالقلم الأحمر بعدما نقلتهم الدعوة الإسلامية نقلة حضارية رحبة .

وبعد ذلك أجد الدكتور محمد يوسف موسى ، أخذ رسالة الدكتوراة من جامعة السربون فى موضوع عن ابن رشد ، يقول لى يا غزالى ، يرى الأوروبيون أن عدد قواعد الفلسفة الإغريقية ثمانى عشرة ، فهذا أبو حامد الغزالى تلميذ من تلامذة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل ما عنده فقه عميق فى الإسلام ، بل بلغ من سطوته العقلية أن يقول : يقول أرسطو كذا وله أن يقول كذا! أى يأتى بأدلة لأرسطو ثم يقر بالحجة المضادة على ما قال أرسطو وعلى ما افترضه هو ، ويهدم هذا كله!! بالعقل الإسلامى! كان عقلاً مفتوحًا . الفقه كان فقهًا مفتوحًا ، وهذا الفقه المفتوح ، رواه الأوائل فى ميدان الفقه العبادى والمعاملات ومعنى المعاملات أى الدماء والأموال والأعراض أى الفقه الضرائبى والفقه الدستورى ، هذا ما اشتغل به أئمتنا .

أبو حنيفة كان له تلميذان أو ثلاثة ، أبو يوسف مؤلف الخراج أى الضرائب (مؤلف فى الضرائب) . وكتاب محمد بن الحسن الشيبانى : «فى السر الكبير» وهذا فى العلاقات الدولية ، وله مدرسة أوروبية تسمى مدرسة الشيبانى فى الفقه الدولى .

فعندما أنظر إلى الفقه الإسلامى قديمًا وكيف أن تلامذة الفقهاء تجاوبوا مع الدولة ومهدوا لها كيف تتعامل مع الآخرين وكيف تفرض الضرائب فى الداخل فإنهم بالإسلام اشتغلوا أما الآن فليس لدينا شىء . الفقه دخل دورة المياه ولم يخرج . فقه المتأخرين ، ثم شغل نفسه بتوافه عجيبة ، ودون وعى مع ما يقع فى الخارج . ولذلك فهناك ضمور غريب فى الفقه الدستورى والفقه الدولى وفقه العمل ، والعمل ينقل من نقابات وقوانين العمل والعمال فى الخارج . لماذا لأن هناك مؤلفًا فى الأصول اسمه «الحاصل» وجاء بعده مؤلف آخر «المحصل» وثالث اسمه «التحصيل» وكل هذا يمضغ نفس العلكة ولا يوجد جديد! وهكذا! فالأمر يحتاج إلى أن الفكر الإسلامى لا بد أن يتفتح ويعود إلى أصالته الأولى .

مالك جرح وكسرت ذراعه ، فعندما وجده الخليفة يأخذ أيمانًا مغلظة على أن فلانًا من الضرب الذى حدث له .

ولكن السؤال : من الذى ضرب مالك؟ إنه كلب ذهب وانتهى فى التاريخ وتبقى مالك ، ملء الأرض . أيضًا فإن حسن البنا قتله شخص نكرة ، لا أحد يعرفه ، ولكن بقى حسن البنا خالدًا فى الآخرين وإن شاء الله يخلد مع الصحابة والتابعين .

إذن القصة قصة تاريخ الفكر الإسلامى وتاريخ الفقه ، والتأريخ للرجال ذوى العقول والتى تقود النهضات وتقود الأمم . أنا أريد من أمتنا أن تعرف نفسها لكى تعرف فكرها .



هناك شيء كتبته في هذا الموضوع سوف أخصه لكم : أولاً قلت لكم في يوم من الأيام : إن الله ربى محمدًا ليربى به العرب ، وربى العرب بمحمد ليربى بهم الناس أجمعين ، الناس أجمعين ، هل هم الروم والفرس فقط؟ كلا . الناس أجمعون تعنى منذ بعث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فى القارات كلها .

إذن فالأسلاف عرفوا ما عندهم ، فكل شبر معمور من أرض الله مشوا ووصلوا إليه وبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، الآن أين العرب؟ الحقيقة أن العرب هم الذين كان ينبغى أن يكونوا فى الأولين ، فهم دماغ الإسلام وقلبه (أى عقله وعاطفته) . . فالقرآن عربى ، والكعبة عربية ، والرسول عربى ، والثقافة عربية !! ـ أنظر فأجد أمتهم الآن تتسكع فى مؤخرة القافلة البشرية لا تعرف لها رسالة !!

هناك طالب من طلابى قال لى : هل رأيت جريدة الأهرام؟ قلت له : ماذا فيها؟ قال : هذا الولد الشيوعى كتب مقالاً فيها يقول فيه ما يدافع به عن الشيوعية أو يعتذر عن شيء . قلت ألا تعرف حديث البخارى الذى يقول فيه : إن هناك أناسًا من العرب كانت تعبد الجن وبقى هؤلاء يعبدون الجن التى أسلمت!! وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾[1] . أى أن الشيوعية انهزمت وتركها أصحابها ومازال العرب الشيوعيون يعبدون الشيوعية ، إنهم بهائم !!

قلت له : يا بنى ، إن العيب ليس منهم ، هؤلاء العميان! ولكن العيب ممن يحمل أمانات الفكر الإسلامى!! قلت له : نحن الذين نسمى علماء الدين فنحن لم نحسن عرض الإسلام! فربنا يقول لنا آية فى آخر سورة الحج :

﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . . ﴾[2] فالرسول شهيد علينا ، ولن نستطيع أن ننكر شهيدًا علينا !

---

(١) الإسراء : ٥٧ .

(٢) الحج : ٧٧ ، ٧٨ .

ولكن ذلك بالنسبة لـ : ﴿ شُهداءَ علَى النَّاسِ ﴾ وقد تكررت فى سورة البقرة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] .

أما عندما يعذب الله شخصًا إنجليزيًا أو طليانيًا أو أستراليًا ويقول له : سوف ندخلك جهنم ، لقد بعثت لك الأنبياء ، فيقول لله : كلا ، لم أر نبيًا ولا أتباع النبى بلغونى أى شىء . لقد وصلت لهم القول ، لكن هؤلاء حبسوا القول عنهم ، ولا نعرف شيئًا .

فقلت له : يابنى إننى متأكد أن هناك أناسًا من أمريكا ، وأستراليا سوف يخرجون من النار ويدخل بدلاً منهم عرب! لأنهم فرطوا فى الإسلام ، نحن الإسلام ربانا لنربى به الناس ، ولكن التربية أيضًا لها مؤهلات ، أتريد يا عربى أن تكون أستاذًا للعالم وأنت ليس لديك أى شىء!! أنت نفسك يا عربى لا تفهم الإسلام . أنت لا تفهم دينك .

أقول لأحد الناس : عندما ذهبت لمسجد باريس سألنى شخص عن امرأة مسلمة تريد أن تتزوج قلت له «تعقد» هى تعقد على نفسها . قال لى : كيف نحن مالكية! قلت له : يا أخى هل النبى مالكى!! المذاهب كثيرة . أبو حنيفة يقول المرأة تعقد على نفسها والأوروبيات عندما يتزوجن ، فمثلاً إذا أرادت تاتشر أن تتزوج أقول لها : اذهبى فأحضرى والدك! يا أخى سبحان الله . الناس هناك ، مستواهم العلمى جعل المرأة سيدة نفسها فى كل الأمور . فلماذا لا تأخذ مذهب أبو حنيفة الذى انتهى إلى الآية القرآنية التى تقول : ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾[2] .

وقال : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾[3] .

وعندما جاءت له بنت تشكوه وتقول له : أبى زوجنى من ابن عمى ليرفع به خسيسته وأنا له كارهة ، فقال لها : الأمر إليك إن شئت أمضيت أمر أبيك وإن شئت فسخته . فقالت أمضيت أمر أبى . ولكن فعلت هذا حتى يعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء .

أبو حنيفة أخذ بهذا المذهب من المذاهب . فعندما أنشره فهو ملائم للفرنسيين . تقول لى : كلا . توقف حال الإسلام ، لكى تفتى بمذهب مالك أو الشافعى ، لماذا؟ لتكن قريبًا من الوضع الذى أنت فيه .

ما معنى أن تقول لا بد أن تضرب بالنقاب على وجهها ! من أين أتيت بهذا؟ الأئمة الأربعة ليس لديهم نقاب ، والمفسرون الكبار ليس لديهم نقاب ، الألبانى الذى من أشد الناس تعصبًا للسنة ذكر عشرة أحاديث لا تحتوى على نقاب ، من البخارى

---

(١) البقرة : ١٤٣ .　　(٢) البقرة : ٢٤٠ .　　(٣) البقرة : ٢٣٠ .

ومسلم وغيره ، وأنا ذكرت عشرة أدلة فى كتابى بأنه لا يوجد نقاب . أما إذا أردت نقابًا يخصك فأنت حر ، لكن تذهب إلى أوروبا وتقول لهم « لا إله إلا الله ، النقاب شرع الله» عندئذ سيقول لك : لا نريد دينك هذا !

إذن لماذا نضيع الإسلام بفقه مذهبى ضيق ، فالأفضل أن نوسع الفقه ، ولكنى أقول أن تترك النص ، ولكن حيث اجتهد العلماء ، اختر من الاجتهاد ما يصلح لك وأنت تبلغ الدعوة ، لذا فنحن ما زلنا لا نعرف الإسلام .

لقد قال لى أحد إخواننا فى دعوة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إننى أخالف المذاهب الأربعة فى الفتوى . فقلت له : هل هذا حرام؟ قال : نعم حرام ، قلت له ما رأيك فى ابن تيمية؟ قال : ابن تيمية الإمام الأعظم . فقلت له : وهو أيضًا من الأئمة الكبار لكنه خالف الأئمة الأربعة . رفض طلاق البدعة وقبله الأربعة . فسكت . فقلت له : يا أخى ابن حزم يقول : المرأة يؤخذ رأيها فى الشهادة ، فى الدماء والأموال والأعراض على سواء . فإذا رأت امرأة لصًا يسرق من بيتها ، وامرأة رأت أباها أو أخاها يقتل ، نقول لها : كلا ، أنت حمارة وليس لك رأى ولا شهادة . وقد ناقش هذا الموضوع ، ابن حزم ، وقال لا . قبلت شهادتها فى الدماء وفى الأعراض وأتى بخمسين رواية فى هذا الموضوع . ما هو المانع أن آخذ برأيه ، أثناء نشر الإسلام فى أوروبا وأمريكا . لماذا توقفون حال الإسلام؟ هل الاجتهاد خطأ؟ كلا إنه مأجور . خطأ مأجور ، فالخطأ له أجره . لماذا هكذا؟ كيف نخدم الإسلام بضيق العقل؟ كيف نخدم الإسلام بضيق العقل فى عرض الدعوة الإسلامية؟ لقد اضطررت كما قلت لكم أن أعود إلى دراسة الفقه مرة أخرى وأنا كاره . لماذا؟ لأن هوايتى الأدبية وهوايتى النفسية ، أن أدرس العلوم الإنسانية وعلم النفس والاجتماع والتربية والفلسفة وعلم الجمال والآداب وعلوم كثيرة . أقرأ كثيرًا جيدًا . ولقد كنت أدخل كلية الشريعة ومعى «العهد القديم حتى جاءنى رجل دماغه مغلقة ، صاحب منصب كبير ، فقال لى ما هذا . فقلت له أعلم الأولاد الملل والنحل ، حتى يعرفوا الديانة التى تحاربهم الآن كيف أنهم وضعوا أيديهم على بيت المقدس وفلسطين . فقال لى : لاتجوز هذه الطريقة ، ولا يصح لهم أن يطلعوا على مثل هذه الأشياء ، فقلت له : من سيطلع إذن؟ وقد أُلْغِيَتْ المادة ، بهذا البلاء . فالقصة إذن أننا لا بد أن نفهم الحقائق .

هناك مسائل قانونية أسأل فيها ، فرفضت أن أتقيد بمذهب ، لأننى أنشر الإسلام ولست سمسارًا للمذاهب الأربعة ، ولكنى سمسار للكتاب والسنة إذا صح التعبير ، ولكنى أختار من الفقه ما يساعد على دخول الإسلام فى قلب هذا الرجل .

خبرنى بالله العلى العظيم ، عندما أقول لشخص : نحن نتكلم فى حقوق الإنسان ، يا أخى نحن الذين اقترحنا هذه الحرية ، ففى مذهبكم : الكاثوليكى لا يتزوج بروتستانية ، ولكن الإسلام يقول إن المسلم يتزوج يهودية أو نصرانية ، فلا بأس من هذا . . لا إكراه فى الدين . وعندئذ أجد شخصًا يأخذنى على انفراد- وهو من الخليج ، ويقول لى : يا أخى هذه الآية منسوخة ، قلت له : «لا إكراه فى الدين» منسوخة؟ قلت له : قطع الله دابرك ودابر من نسخها .

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه : ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ وفى عهد نوح ، نوح يقول لهم : أنا لا أكرهكم على دينى ، ثم بعد هذا نقول إن الإسلام يكره على الدين!! ومتى أكرهنا على الدين ؟

الأمة فى حاجة إلى أهل فقه ، الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ** ﴾ . وليس اسألوا أهل البلاهة والبلادة . ﴿ **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ فالفقه له رجال ، ولا يمنع أن بعض الناس عظيم جدًا ، فسيدنا داود عظيم ، ولكنه عندما أراد أن يفتى فى القضية أو يحكم فيها ، حكم حكمًا . وقد بعث الله سليمان ، وقال فيه : الحكم هذا ليس جيدًا . ونزلت الآية : ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ إذن فالناس لهم قدرة عقلية على الفهم والاجتهاد . وهذه هى الواجبات التى تحكم فى قضايا الخلق ، وتقود الأمم ، فالأمة الإسلامية ليست أمة لنفسها ولكنها أمة للعالم كله ، ولقد أحصيت اثنتى عشرة آية فى القرآن الكريم نزلت تؤكد عمومية الدعوة الإسلامية . وعندما أحصيت الآيات ذكرت متى نزلت فوجدتها كلها نزلت فى مكة ، أى فى الأيام التى كان فيها الإسلام سجينًا ، يحاول أن ينطلق من الوثنية التى ضيقت عليه آفاق الأرض وحبسته ، فى هذا الوقت نزلت آيات كلها تفيد عالمية الدعوة .

وإننى أقول فى القرآن المكى ، ردًا على بعض المستشرقين الذين قالوا كاذبين إن محمدًا مرسل للعرب وحدهم . وهناك كاتب شيوعى قال هذا الكلام فى مصر . قال

هذا الدين للعرب وللعروبة فقط!! هذا الكلام فارغ وساقط . الإسلام هو أساسنا وشرفنا . فالمستشرقون يقولون إن هذا الدين للعرب والنبى ﷺ أغراه النجاح وأغراه الانتصار على العرب بأن يفتح ما وراء البلاد العربية!! كلا هذا لم يحدث ، فمات النبى ﷺ والإسلام ما زال فى مكة وفى الجزيرة ، وأهله الذين تربوا على يديه وتلامذته هم الذين قادوا الإسلام للعالم كله تنفيذاً لوصايا القرآن الكريم .

يوم أن تكون داعية للإسلام ويسمعك من يراك دونه عقلاً ، دونه علمًا ، دونه خلقًا ، دونه مستوى حضاريًا ، فإنه لن يستمع إليك ولن يحترمك ، فالأستاذية لها مؤهلات ولها خصائص .

وهل هذا وقع عندما كان الفرس والروم والمصريون هم قادة العالم يومئذ والعرب ما زالوا متخلفين!! قال : لا ، إن الإسلام نقلهم نقله هائلة . فمثلاً فلسفة الحكم فى الروم أو الفرس ، هل كانت تعرف كلمة عمر ابن الخطاب لوليه على مصر : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا) لم تعرف هذه الفلسفة . هل كانت تعرف كلمة عمر :

(لو عثرت بغلة فى العراق لحسبت عمر وهو فى المدينة مسئولاً عنها لِمَ لَمْ يسوِّ لها الطريق) .

فلسفة الحكم بهذا المعنى لم تعرف إلا فى العصر الحاضر أو فى عصر الخلافة الراشدة . هل كانت تعرف كلمة عمر : (لو عزت لهم ليصلن الراعى فى صنعاء حقه أو حظه من هذا المال) ، هذه فلسفة لا يعرفها الروم ولا الفرس .

إن البدوى كان أعلى مستوى من رستم ومن الفرس، عندما قال : جئنا نخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام ، جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد . فقد جاء بحقوق الإنسان وكرامات الشعوب . هذا هو الفقه الإسلامى فى أوله . وضربت مثلاً ولكن بعض الناس قد استغربوا . ولم أكن أنا الذى عملته ، ولكنه «ابن عابدين» الفقيه الحنفى المتأخر يقول : إذا وجد لقيط وقال ذمى هو ابنى ، وكان الذمى حرًا ، وقال المسلم هو عبدى ، ألحقنا نسبه بالذمى ليكتسب الحرية ، قلت إن هذا دين يعمل ضد نفسه لأنه يعتنق الحرية!! هذا هو فقهنا الإسلامى الحقيقى . ولكن أين الفقهاء الآن؟ ولكنى أكاد أجن لأن هناك أزمة طاحنة فى الدعاة ، وأزمة طاحنة فى الفقهاء ، وأزمة المثقفين المسلمين أزمة كبيرة جدًا .

وأسأل الله لى ولكم التوفيق وأن يعيننا على خدمة ديننا وأن يجعلنا أهلاً لهذه الدعوة ولهذه الرسالة . . وصلى الله على محمد وآله . .

فى النظام العالمى الجديد.. القوى يأكل الضعيف

ويستمر الحوار مع فضيلة الشيخ محمد الغزالى ذلك الحديث الشامل الذى أخذناه منه قبيل وفاته رحمه الله بزمن قصير، ولا ننسى هنا حرص فضيلته على مجلة الدعوة وسؤاله عن أحوالها وعن أوضاعها وحرصه ـ رحمه الله ـ أن يخصها بهذا الحوار الشامل الطويل . . وقد تحدث فى الجزء الأول من حوارنا معه عن واقع الدعوة الإسلامية وسبل تطويرها . . واستنكر مهادنة بعض المسلمين لأعداء الإسلام على حساب دينهم وكرامتهم، ووصف حال المسلمين الآن بأنه واقع مظلم، وقال إن العنف والتطرف نتيجة طبيعية للجهل بالدين وضعف الدعوة بسبب إقحام المدعين وأنصاف المتعلمين عليها .

وفى هذا الجزء من حوارنا معه يحذر الشيخ الغزالى من التيارات الإلحادية وحملات التنصير، ويؤكد على أهمية إحياء الولاء لله والانتماء للأمة . وحذر الشباب من أن يستكبر برأيه، وقال إن الاستكبار بالرأى رذيلة . . وأيضًا يتحدث الشيخ عن الأقليات المسلمة، وما أسماه «وهم» النظام العالمى الجديد فإلى التفصيل .

التيارات الإلحادية

* يتكالب الأعداء على الإسلام، وينشط أدعياء المذاهب الوضعية لاستقطاب المسلمين . . فما السبيل للمواجهة ؟

– لا ينبغى – والحال على هذه الصورة من تكالب الأعداء على الدين – أن يفوت دعاة الإسلام ضرورة دراسة الفرق والتيارات المعادية بجوار دراسة الإسلام فى معارفه القديمة والحديثة دراسة واعية وجادة يقفون من خلالها على الأسباب التى جعلت تلك الفرق والتيارات تكسب مساحات من الأرض، وتستحوذ على آلاف العقول . ومن ثم يمكن التصدى لها .

ومع دراسة كل تلك الفرق دراسة موضوعية فإنه بإمكاننا أن نعرف كل ما يراد بنا وما يحاك لنا ومن ثم يسهل على المسلمين دفع المخاطر عن أمتهم .

لكن من المؤلم أن بعض دعاة الإسلام لا يدرى شيئًا فى كثير من القضايا المعاصرة، ولذا فهو يتوقف عن الأخذ بالجديد الذى يصل إليه علماؤنا المخلصون من

خلال جهودهم ودراساتهم وبحوثهم ، ومن ثم يقف هذا البعض عند معارفه القديمة التى يرددها دون أن يستخلص منها النافع للأمة فى هذا الوقت الذى تواجه فيه بمناهج اقتصادية واجتماعية وسياسية انتفعت بكل ما وصل إليه البشر من معارف حديثة .

الثقافة القديمة والحديثة

* معنى ذلك أن الداعية فى الوقت الحاضر لابد له من مواصفات محددة ، وهو يختلف عن سلفه الماضى ؟

- الداعية المعاصر يجب أن يقبل على تفهم حقيقة الدين الإسلامى الذى يحمل أمانة الدعوة إليه بين البشر من مختلف الألوان والأجناس والألسنة . . وعلى الدعاة أن يجتهدوا فى تكوين اتصالهم الفكرى والعاطفى بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وإدراكهما إدراكًا صحيحًا .

ولا يكون داعية ناجحًا من لا يبذل قصارى جهده فى أن يكون طالب علم طوال أيام عمره . فالغوص فى الثقافة الإسلامية سواء القديمة أو الحديثة أمر لا غنى عنه لأى داعية . . والثقافة الإسلامية القديمة أعنى بها نتاج علمائنا من السلف الذين نهلوا من مختلف المعارف الدينية والتجريبية وتركوا لنا تراثًا هو مفخرة الثقافات كلها .

أما الثقافة الإسلامية الحديثة فاجتهادات علماء الإسلام المعاصرين ممن استفادوا بشكل طيب من مختلف التجارب التى خاضها المسلمون فى الماضى ، ومن تاريخ العلوم الدينية والعلوم الإنسانية . . وهذا كله من الضرورات بالنسبة لدعاة هذا العصر حتى يواجهوا تحدياته العلمية وقضاياه التقدمية .

الولاء للأمة

* أكدتم فى كثير من كتاباتكم على أهمية إحياء الولاء لله والانتماء للأمة فى نفوس المسلمين إعلاء لراية الإسلام وتوحيدًا للصف؟ فكيف ترون الطريق الأمثل لبلوغ هذا الهدف ؟

- المؤسف أن تهمة عدم الانتماء أصبحت ظاهرة فى الأمة الإسلامية وأن ضعف الولاء للإسلام جعل بعض أبناء المسلمين يخرجون على أهليهم زاعمين أن العودة إلى أحكام الإسلام نوع من الرجعية أو التخلف أو الانهزامية النفسية إلى غير ذلك من العبث الفكرى الناتج عن التشويش المتعمد ضد تعاليم الدين .

والمؤسف أيضًا أن المسلمين فى حاضرهم تشغلهم قضايا مصطنعة ودخيلة دستها عليهم أيدى أعدائهم عن العناية بقضاياهم المهمة التى تحتاج منهم للرعاية والجهد لضمان مستقبل مشرق لأمتهم . ومن ذلك رعاية متطلبات التربية الإسلامية الصحيحة للأجيال الجديدة ، بغية إيجاد وتكوين أجيال صادقة فى علاقاتها بربها سبحانه وتعالى وبدينه الحنيف ، وموطدة لعلاقاتها بمجتمعاتها عن طريق الولاء الكامل والانتماء الواعى للمسلمين كأمة تدين لله الواحد سبحانه وتعالى ، وتربطها علاقة واحدة ، وتاريخ واحد ، وهدف واحد ، ومصير واحد .

ولعل أهم خطوات العلاج المنشود تتمثل فى توجه المسلمين للتعرف الكامل والدقيق على حقيقة وحجم ما أصابهم من نكبات وآلام ومصائب ، حتى يتسنى لهم أن يختاروا من الأساليب والوسائل والمناهج ما يصلح لتنشئة الشباب والأجيال الجديدة على قيم الإسلام وتعاليمه السمحة . وأؤكد على ضرورة العناية بتربية النشء داخل المجتمعات الإسلامية ، وحبذا لو أعدت مناهج تعليمية ، وخطوات ، وبرامج يمكن أن تتعهد الناشئة ورعايتهم فى مختلف سنى أعمارهم . والقدوة الصالحة ضرورة لتخليص الشباب من تخبطهم وحيرتهم .

أنصاف المتعلمين

* بمناسبة تنبيه فضيلتكم على ضرورة القدوة للشباب ، ما رأيكم فى تلك الجماعات التى تستقطب الشباب وتأسره بفكرها وآرائها ورفض فكر ورأى الآخرين؟

– هذا يرجع إلى ترك المجال فى الدعوة الإسلامية لأنصاف المتعلمين الذين يهملون القضايا الأساسية أو يجهلونها ، ويحدثون مجازر من أجل قضايا فرعية ، مما أصاب الإسلام فى مقتل .

والمعروف فى الإسلام أن العصمة صفة لرسول الله ﷺ أما بقية البشر فمن طبائعهم الاختلاف فى الرأى ، واحتمال الصواب والخطأ لهذا الرأى . .

ولا يقبل من أحدهم أن يؤكد أن رأيه هو الصواب ولا يحتمل الخطأ ، ولكن يمكن أن يناقش ويأتى ببرهانه ليثبت أن الحق معه . . ولا يجب أن يستكبر أحد برأيه ، فالاستكبار بالرأى رذيلة فى الأخلاق ، ولو علم الناس أنهم إنما إذا أصابوا فهذا بفضل الله وتوفيقه ، وإذا أخطئوا فهذا بضعف نفوسهم وغلبة الشيطان لهم ، فإذا علموا هذا

استكانوا إلى الله وتواضعوا وقد أمر الله نبيه : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾[1] فلنبحث عن الحق ، ونتمسك به ، وإذا هدانا الله إلى علمه فيكون بتواضع ، دون غرور ، ودون إهانة للآخرين .

وهم النظام الجديد

* في إحدى ندواتكم الفكرية قلتم إن ما يحدث في العالم الآن ليس نظامًا جديدًا . . والنظام العالمي الجديد وهم لا وجود له ، فما هي وجهة نظركم . . وكيف ترى مستقبل العالم الإسلامي في ظل هذا «الوهم» ؟

– أعود وأؤكد أنه لا نظام عالمي جديد ، فالنظام لم يتغير ، لأن القوى مازال يسود ، والضعيف لا حقوق له ، ومازال أعداء الإسلام يتربصون به ويحيكون المؤمرات لإبادته وتنصير معتنقيه ، ولكن هناك (آخر) ولا بد من التعامل معه . . والسؤال يكون كيف نتعامل مع هذا الآخر . . وما هو مستقبل العالم الإسلامي في ظل هيمنة الآخر؟ . . وهذه قضية خطيرة جدًا لأن هذا الآخر هو الدائرة التي أدعو فيها إلى ديني . . وهو أيضا الذي يحارب ديني . . فالإسلام ليس دينًا للعرب وحدهم أو لإفريقيا وآسيا فقط ، وإنما هو دين للعالمين جميعًا .

والمطلوب في التعامل مع الآخر هو حوار العقل والفكر . والاقتراب منه ، لهذا لا يجب أن أبدأ معه بقضايا ثانوية ، ولكن تكون قضيتي الأولى معه هي وجود الله . وما يستحقه الإله العظيم من عبادة وتكبير وإجلال ، وما ينبغي له وكيف نقترب منه ونسترضيه . . وكيف نستعد للقائه . وهنا سنصل معهم خطوة خطوة إلى معنى كلمة (لا إله إلا الله) التي ندعوهم إليها ، وإذا أردنا أن تصل دعوتنا إليهم ، لابد أن نحسن معاملتهم كما يجب وكما أمرنا ديننا الحنيف . وأن ندعوهم بالحكمة والموعظة ، والحجة والإقناع .

الأقليات المسلمة

* وماذا عن الأقليات المسلمة ؟

– وضع الأقليات الإسلامية في العالم وضع سيئ للغاية ، فثمة تعذيب واضطهاد وإبادة يعاني منها المسلمون في كثير من الدول حتى الدول التي ترتبط بعلاقات طيبة

(١) سبأ : ٥٠ .

مع الدول العربية والإسلامية . . وللأسف فإن الأقليات المسلمة هى وحدها المقصودة بالاضطهاد والتعذيب والإبادة فى بعض المجتمعات كما يحدث للمسلمين فى الهند . والفلبين وبورما والبوسنة . . وغيرهم فى حين أن الأقليات النصرانية واليهودية وحتى البوذية ، والذين لا دين لهم يعيشون فى أمن وسلام سواء داخل المجتمعات الأوروبية أو المجتمعات الإسلامية ويحصلون على حقوقهم كاملة ، بينما تحرم الأقليات المسلمة من معظم حقوقها وتعامل معاملة شاذة وغير مقبولة .

إن مناصرة الأقليات المسلمة فى كل دول العالم واجب الحكومات الإسلامية .

كما أن المؤسسات والجامعات الإسلامية مطالبة بدراسة أوضاع الأقليات المسلمة فى كل دول العالم وتقديم العون المناسب واللازم لها .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أشكر خادم الحرمين الشريفين وحكومته الرشيدة وشعبه المؤمن على الجهود المبذولة من أجل الأقليات وأدعو بقية الدول والحكومات لحذو هذا الحذو . فالمملكة قدمت الشىء الكثير للإسلام والمسلمين ويكفى أنه البلد الإسلامى الأوحد الذى يطبق أحكام الشريعة ويلتزم بها كاملة اليوم ونحن نقدر للمملكة هذا الدور الإسلامى الرائد الكبير .

فضيلة الشيخ: ماذا عن التفسير الموضوعى الذى تقوم به لتفسير آيات القرآن الكريم؟

– الهدف منه أننى أريد تقديم تفسير موضوعى لكل سورة من سور القرآن الكريم ، وأنا أحاول أن أقدم تفسيرًا لمقدمة السورة وآخرها بشكل مترابط . . صورة موضوعية للسورة ككل . . فهو تفسير موضوعى وليس موضعيًا ركزت فيه على وحدة الموضوع فى السورة وإن كثرت قضاياها . .

* وهل هناك هدف محدد من وراء هذا التفسير الموضوعى للسور ؟!

– لقد شعرت أن هناك حاجة من المسلمين إلى هذا النوع من التفسير ، فقد صحبت القرآن منذ طفولتى فحفظته منذ نعومة أظفارى فى الكتاب بقرية نكلا العنب ، ومازلت مداومًا على تلاوته بانتظام ولله الحمد وأنا على مشارف العقد الثامن من العمر ووجدت أن ما أقتبس من معانيه قليل وأن وعيى لا يتجاوز المعانى القريبة ، وشعرت بالتقصير تجاه كتاب الله وحاولت أن أبذل جهدى فى إتمام هذا التفسير .

*** وهل هناك من سبق فى وضع تفسير موضوعى لكتاب الله؟!**

أنا لست مخترعًا لهذا التفسير فهناك محاولات سابقة بدأها فضيلة الشيخ عبدالله دراز- عليه رحمة الله- وألف كتابا أسماه «النبأ العظيم» تناول فيه سورة البقرة على أنها موضوع واحد ، وقد أعجبنى هذا التفسير فتأسيت به . .

*** وهل يغنى التفسير الموضوعى عن غيره من التفاسير؟!**

– من قال ذلك ، هذا التفسير لا يغنى عن غيره فهو يتكامل مع التفسير الموضعى للسور والآيات ، الجميع يكمل بعضه البعض . .

*** حذرت كثيراً من تقصير المسلمين تجاه كتاب الله، لماذا؟!**

– إنه لأمر غريب ، القرآن الكريم كتاب الله الذى أحيا أمة من العدم تحول لدى بعض المسلمين إلى كتاب للموتى يقرأ فى الجنائز أو يوضع على تابلوهات السيارات للزينة أو على أرفف المكتبات . والعياذ بالله هجران له وفوق ذلك بدع وخرافات ، فى حين أن القرآن نزّل ليقرأ والقراءة فى جميع اللغات تعنى الفهم والتدبر والعمل بما نفهم . كما أنه دستور ومنهج ، ولننظر إلى تاريخنا الناصع عندما قرأ العرب الأوائل كتاب الله وفهموا معانيه وتدبروه وعملوا به تحولوا إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد . . أمة يسودها العدل الاجتماعى وتنبذ التفرقة العنصرية . . فالقرآن يبنى الشعوب ويصون النفوس ويصنع الحضارة . . فى العالم الآن ٥ مليارات من البشر محجوب عنهم نور القرآن الكريم لأن المسلمين أنفسهم محجوبون عن هذا النور وفاقد الشىء لا يعطيه .

المؤسسات الإسلامية

*** فضيلة الشيخ.. نجد فى العالم الإسلامى من يوجه سهام نقده السام إلى المؤسسات والمراكز والهيئات الإسلامية العاملة على الساحة.. فكيف ترون دور هذه المؤسسات؟!**

– إنه لأمر محزن أن نجد من يتطاول على هذه المؤسسات الدعوية التى تحمل هم الدعوة وللأسف بعض هؤلاء يحملون أسماء إسلامية ، ولا نجدهم يتعرضون للدور التنصيرى الذى تقوم به الكنائس . . المؤسسات الإسلامية لها دورها فى الصحوة الإسلامية ولها نشاطها فى التوعية والتوجيه والإغاثة ، فقد يكون بعضها مقصرًا لأسباب مادية أو محدودة الدوائر لأسباب مختلفة . . إننا نريد أن نعين ونساعد هذه المؤسسات على أداء دورها . .

القمة.. والقاع

* تجولت فى البلاد الإسلامية وفى الكثير من بلدان العالم واجتمعت مع أبناء المسلمين فى بقاع شتى وشاركت فى منتديات ولقاءات ومؤتمرات تتعرض لأوضاع المسلمين . . ترى هل توصلت إلى السبب الحقيقى وراء تخلف المسلمين بصفة عامة؟!

- نحن أمة لنا تاريخ طويل ، وحضارة كبيرة ، لقد لاحظت أن تخلف المسلمين أولاً يعود إلى بعدهم عن تاريخهم وعن إسلامهم وعن عقيدتهم ومحاولتهم أن يتلمسوا ما عند الغير ليكون سببًا فى نهضتهم ، ويتركون دستورهم القرآن . . أمر محزن . . نحن أمة تاريخها الحضارى عجيب فالخط البيانى قد يرتفع إلى القمة وقد يهبط فجأة إلى القاع . . إننا مطالبون أن نحكم كتاب الله فى شتى أمورنا ولا نأخذ منه ما يرضى حالتنا ونترك ما لا نريده ، لا بد من التطبيق الشامل . .

القدس.. والأقصى

* إسرائيل أعلنت أن القدس الموحدة عاصمة أبدية لها والمحاولات لهدم المسجد الأقصى مستمرة ومشاعر المسلمين فى جانب وما يدور فى الدهاليز من مؤامرات حول المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى جانب آخر . . ففى ظل «مرحلة الهرولة» كيف يستعيد المسلمون المسجد الأقصى ؟

- عندما يستعيد المسلمون حكمهم لأنفسهم ويحكمون بكتاب الله وسنة رسول الله ، وعندما يصبحون أهل شرف وقدوة وينتجون ما يستهلكون ولا يعيشون عبئًا على الغير ، وعندما يصبحون أهل شرف وقدرة على أداء حقوق الله عندئذ فإن الله سوف ينصرهم . . ولكن علينا أن نحاول بكل ما نستطيع استعادة القدس . .

وعندما تكون القدس محتلة والمسجد الأقصى أسيرًا يظل الجهاد فرض عين على كل مسلم فلا يمكن أن نقبل سلامًا دون القدس . .

خطوطنا الدفاعية

* فى عصر الأقمار الصناعية والبث الفضائى ومحاولة الغرب فرض ثقافته وسلوكياته على العالم الإسلامى ألا ترى أن هناك خطرًا على المسلمين ؟ !

- الغرب يعلن الحرب على الإسلام ، والغزو الثقافى لديار المسلمين مستمر ومع انتشار الوسائل الحديثة والتقنية فى علوم الاتصال فالغزو يزداد قوة ، ولابد من المواجهة . . مواجهة هذا الغزو بكل قوة فكريًا وعقديًا وتربويًا . . إن خطوطنا الدفاعية

مهددة من الداخل من قبل العلمانيين والشيوعيين والمستغربين الذين يريدون ثقافة وفكر الغير يتحكم فينا ومن الخارج من الغزو الفكرى . . إننى أشعر وأحس أن خطوطنا الدفاعية مهددة من خلفها وأن المؤامرات تحاك على الإسلام من كل جانب وأمة الإسلام غافلة وأن هذه المؤامرات أخذت أبعادًا جديدة . . لقد وهنت قوى المسلمين بسبب الضربات الشديدة التى وجهت إلى العالم الإسلامى- ثقافية وسياسية واقتصادية وعسكرية- ومع ذلك سيبقى الخير فى هذه الأمة بإذن الله .

المستقبل للإسلام

* البعض يرى أن عقد التسعينيات شهد انحسارًا للصحوة الإسلامية وهناك من قال إن الصحوة الإسلامية فى حالة جزر فهل هذا صحيح ؟ !

- هذا كلام غير صحيح فإذا كان هناك من يتخيل أن الصحوة الإسلامية فى حالة جزر فهم واهمون فلا أمل فى المسلمين بدون الإسلام . . والصحوة الإسلامية هى معبر المسلمين إلى القرن الحادى والعشرين والذين يقولون بأن الصحوة الإسلامية فى حالة جزر يدللون بذلك على الضربات التى وجهت لأبناء المسلمين فى أماكن شتى ولكن الصحوة الإسلامية ستستمر فى الصعود بإذن الله . . وسيكون القرن القادم قرن الإيمان . . وقرن الإسلام بعد نهاية الشيوعية وبداية تفكك المادية الرأسمالية .

حروب الغزالى

*دخلت فى حروب شتى مع العلمانيين ومع المنصرين والدور التخريبى للكنيسة ومع الشيوعيين وصرت مصنفًا فى القائمة السوداء لهؤلاء جميعًا فهل مازلت فى حرب معهم ؟ !

- إننى أسأل الله عز وجل أن أكون على الحق وأدعو له ، أنا مع الإسلام ومع القرآن ومع السنة . . ولا يهمنى إن كان النصارى أو اليهود أو الشيوعيون وغيرهم من الملاحدة يصنفوننى فى أى قائمة . .

أنا همى الإسلام والدعوة إلى الله وكشف أباطيل هؤلاء ضد الإسلام . . فماذا يكسب النصارى من سياساتهم الحاقدة التى ينتهجونها ضد المسلمين ، إنهم يريدون تمويت الإسلام ومخاصمة أهله وتكريس العمل التنصيرى فى ديار المسلمين . .

*** فضيلة الشيخ، أمنية تريد أن تتحقق ؟ !**

- أن أرى المسلمين وحدة واحدة ، وديارهم مستقرة ، وأرى جميع المسلمين يعودون إلى دين الله .

عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق

كان الوحى الإلهى قديمًا ، يتخير بقاعًا من الأرض لينزل بها ، كما ينزل الغيث فى مكان دون مكان . لكن بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت نقلة جديدة بالعالم كله ، وتحولاً فى حركة الوحى الإلهى على ظهر الأرض ، إذ جاءت الأخيرة لكل بشر يعقل ما يسمع . . . ثم هى قد صحبت الزمان فى مسيرته ، فإذا انتهى جيل من الناس ، فإن الجيل الذى يليه ، مخاطب بها ، مكلف أن يمشى فى سناها . والإجماع معقود بين المسلمين على عموم الرسالة وخلودها ، ونريد أن نلقى نظرة على الآيات التى دلت على عالمية الرسالة لنستخلص منها حكمًا محددًا . قال تعالى فى سورة التكوير : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾[١] ، وقال فى سورة القلم : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٢] .

وقال فى سورة سبأ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٣] .

وقال فى سورة الفرقان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[٤] .

وقال فى سورة الأنبياء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٥] .

وقال فى سورة يوسف : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٦] .

وقال فى سورة الانعام : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[٧] .

---

(١) التكوير : ٢٦ ـ ٢٨ . (٢) القلم : ٥١ . (٣) سبأ : ٢٨ .
(٤) الفرقان : ١ . (٥) الأنبياء : ١٠٧ . (٦) يوسف : ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٧) الأنعام : ١٩ .

وقال أيضًا في السورة نفسها : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾[1] . وهذه الآيات كلها مكية ، أى عالمية الرسالة تقررت منذ الوحى وفى الأيام التى كانت الدعوة فيها تعانى الأمرين .

كان القرآن يقرر أنه رسالة للعالم كله ، فى الوقت الذى كان فيه أهل مكة يستكثرون أن يكون محمد ﷺ رسولاً لهم وحدهم ! ولم تنزل بالمدينة آية تتحدث عن هذه العالمية ، اكتفاء بما تمهد فى صدر الدعوة ، إلا آية واحدة من سورة الأحزاب هى قوله جل شأنه : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[2] . وختم النبوة تقرير لهذه العالمية ، فإن القارات الخمس إلى قيام الساعة لن يطرقها من السماء طارق ، ولن يجيئها من عند الله رسول ، وسيبقى كتاب محمد ﷺ وحده ، صوت السماء بين الناس ، الى أن يحشدوا للحساب فيقال لهم : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[3] وآية ختم النبوة ، صدقتها الأيام المتتابعة ، فها قد مضت أربعة عشر قرنًا ، وما نزل من السماء وحى . وقد حاول الاستعمار الأوربى أن يضع يده على مخبول فى الهند ، وآخر فى إيران ، ليصنع منهما أنبياء يكابر بهما نبوة محمد ﷺ وهيهات هيهات ! فإن الأوروبيين أنفسهم احتقروا الرجل الذى صنعوه ، فما تبع أحدهم نبى الهند ، ولا نبى العجم ، وبدأت اللعبة تتكشف ويفر عنها المستغفلون! . إن الصباح العريض الذى بزغ مع رسالة محمد ﷺ ، سوف يظل وحده النور الذى يغمر العالم ويملأ الأفق ، إلى أن يأذن الله بانتهاء الحياة والأحياء .

وإنما لفتنا النظر إلى أن الآيات الناطقة بعالمية الرسالة مكية ، كى ندحض فرية لبعض المستشرقين ، الذين زعموا أن محمدًا ﷺ ، بدأ عربى الرسالة ، معنيًا بقومه وحدهم ، فلما نجح فى إخضاعهم ، أغراه النجاح بتوسيع دائرة الدعوة ، فزعم أنه للخلق كلهم! وهذا تفكير متهافت بين السخف ، فقد رأيت بالاستقراء ، أن عالمية الرسالة ، تم التصريح بها فى أوائل ما نزل من الوحى !

ثم نسأل : متى تم خضوع العرب لمحمد ﷺ حتى يغريه النجاح بمزيد من التوسع؟ إن مكة التى طاردته ، لم تفتح له إلا قبل الممات بسنتين اثنتين ، فأين استقرار النصر ، والتطلع إلى إخضاع الدنيا ، وهو لما ينته من الجزيرة العربية نفسها ؟؟

(١) الأنعام : ٩٠ . (٢) الأحزاب : ٤٠ . (٣) الروم : ٥٦ .

إن هذا الفكر الاستشراقى ، لم يلق حفاوة من عاقل ، ولذلك نخلص منه ، لنقرر حقائق أخرى ، نابعة من هذه الحقيقة المؤكدة ، إن محمدًا رسول العالم من رب العالمين ، وأول ما نقرره أن هذه الصفة انفرد بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فكل الأنبياء من قبله محليون ، رسالتهم محدودة الزمان والمكان . ابتداء من آدم إلى عيسى .

والنصارى يرون أن رسالة عيسى عالمية ، وينطلقون بها فى كل مكان ، ليبلغوها وينشروها ، ونحن نحب نبى الله عيسى ، ونعتقد أنه رسول حق إلى بنى إسرائيل خاصة ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . .** ﴾[1] .

على أن النصرانية ، التى تشيع بين الناس اليوم ، وتساندها قوى كثيرة ، تخالف رسالات السماء كلها ، إذ هى فلسفة ، تجعل من عيسى إلهًا ، أو شبه إله ، يرسل الرسل ، وينزل الكتب ، يغفر الذنوب ، ويحاسب الخلائق .

والنصرانية بهذا المفهوم المستغرب لا يعنينا أن تكون عالمية أو محلية لأنها شىء آخر غير ما ينزل به الوحى على سائر الرسل ، قال تعالى لنبيه محمد : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[2] إن هذه النصرانية الجديدة ، لا تتصل بعيسى الذى مهد لمحمد ﷺ ، كما لا تتصل بعيسى الذى بلغ تعاليم إبراهيم وبنيه ، ومن ثم فهى فى نظرنا منهج بشرى مستقل ، بأفكاره عما قبله وعما بعده ورسل الله ، يصدق بعضهم بعضًا ويمهد السابق للاحق ما استطاع .

ورسالة محمد ﷺ ، أقامت مفهوم العالمية فيها على أن الدين واحد من الأزل إلى الأبد ، وأن الأنبياء إخوة فى التعريف بالله ، والدلالة عليه ، واقتياد البشرية إليه . . وأن القرآن الكريم جمع فى سياقه الباقى ، كل ما تناثر على ألسنة النبيين من عقائد وفضائل ؛ ولذلك فإن الإيمان بهم جميعًا مطلوب ، والكفر بأحدهم انسلاخ من رسالة محمد ﷺ نفسه . ومن الطبيعى أن تبدأ الرسالة عملها فى بقعة ما من أرض الله وقد شرع النبى العربى محمد ﷺ ، يعلم الأميين عبدة الأوثان ، ويرشد الحائرين والجاحدين من أهل الكتاب ، وبعد تسعة عشر عامًا من الدعوة الدائبة استطاع أن يظفر من الوثنية الحاكمة بحقه فى الحياة ، وحق من يتبعونه فى العيش بدينهم والتجمع عليه .

(١) الصف : ٦ . (٢) الأنبياء : ٢٥ .

عندما نال هذا الحق ، فى معاهدة الحديبية ، وأصبح له موضع قدم يستقر فيه ، ويدعو منه ، أخذ يرسل إلى أهل الأرض يبلغهم الحق ، ويفتح عيونهم على سناه .

ومن أهل الأرض يومئذ؟ الروم غربى الجزيرة وشمالها . والفرس فى الناحية المقابلة ، وحكام آخرون ، يعيشون فى جوارهم ، أو يدورون فى فلكهم .

هل كان وراء الرومان من يفهمون الخطاب شمالى أوروبا أو وسطها؟ أو وسط إفريقيا وجنوبها؟ كانت هناك قبائل السكسون ، والجرمان ، والعدالة ، والوندال ، وقبائل أخرى مشابهة لها فى إفريقية ، وكانت هناك وراء الفرس ، شعوب جاء وصفها فى قصة ذى القرنين فى القرآن الكريم بأنهم لا يكادون يفقهون قولاً وعلى أية حال ، فإن النبى المبعوث للعالم أرسل إلى إمبراطور الروم وملك الفرس ، وحاكم مصر ونجاشى الحبشة ، وإلى الأمراء المنتشرين حول الجزيرة العربية يدعوهم إلى توحيد الله ، واعتناق الإسلام لعله ، بدأ بالجيران الذين يلونه فبلغ أمر ربه ، حتى إذا أتم هدايتهم تجاوزهم إلى من يلونهم من أجناس البشر .

أو لعل الفكر البشرى فى هذه الآونة لم يبلغ درجة الوعى ، وأهلية الخطاب إلا فى هذه البقاع المتحضرة التى ظهرت فيها جمهرة الرسالات السماوية من قديم .

على أية حال ، فإن اليقظة الإنسانية التى بدأت فى جزيرة العرب ما كانت نهضة جنس متفوق ، ولا طماح زعيم متطلع ، بل كانت حركة قبيل من الناس ، اختارتهم العناية العليا ، ليربطوا جماهير البشر بالله الواحد ، وليسيروا فى هذه الدنيا ، وفق هداه لا وفق هواهم : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾[(١)] .

وأكذب الناس على الله وعلى عباده ، من يزعم الإسلام طورًا من أطوار البعث العربى ، إن هذا الكلام ، لا يساويه فى الرخص والغثاثة إلا ما تضمنه من إفك وتضليل ، فإن محمدًا عليه الصلاة والسلام رفض رفضًا باتًا أن يكون للعرق ، أو اللون أو القوة ، أو الثروة ، أى رجحان فى موازين الكرامة الإنسانية ، والمحور الذى دار عليه الإسلام ، هو التوحيد فى العبادة ، والتشريع ، واخلاص الوجه لله : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾[(٢)] وقد قلنا ، ولا نزال نقول : إن الله تعالى ربى

(١) إبراهيم : ١ - ٢ .   (٢) الأنعام : ١١٥ .



محمدًا عليه الصلاة والسلام ليربى به العرب وربى العرب بمحمد عليه الصلاة والسلام ليربى بهم الناس ، فرسالة العرب أن يكونوا جسورًا لهدايات السماء ، وأن يعلموا الخلق ما تعلموه من الخالق .

وإذا كانوا تلامذة لخاتم الرسل ، فهم بما درسوا أساتذة للشعوب الأخرى تتلقى عنهم وتستضىء بهم . وهذه المكانة للأمة العربية مكانة عالية حقًا ، بيد أنها لا تقوم على الدعوى بل على البلاغ ، ولا تقوم على البطالة ، بل على التضحية ، وذلك معنى قول الله تبارك اسمه :

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾[١] .

وقد قامت دولة الإسلام بدورها العالمى هذا على عهد النبوة ، وأيام الخلافة الراشدة ، وتدافع التيار الى مداه أيام الأمويين ، والعباسيين ، والعثمانيين ، وإن كان هذا التيار قد شابه من الكدر والدخن ما أزرى به وحط قدره حتى توقف آخر الأمر!

والمسلمون فى هذا العصر يكادون يجهلون أن لهم رسالة عالمية ، بل إن حياتهم وفق شرائع دينهم وشعائره موضع ريبة وقد تكون موضع مساومة !

وأذكر أن حوارًا دار بينى وبين الأستاذ «على أمين» بعد ما كتب يستنكر أذان الفجر ويزعم أنه يزعج النيام المستريحين (!) قلت له : إن إيقاظ الناس للصلاة مقصود قصدًا وفى أذان الفجر كلمة تقول : الصلاة خير من النوم! قال : من أراد الصلاة فليشتر «منبهًا» يوقظه ليصلى . قلت له : إن جمهور المسلمين وهم كثرة هذا البلد يريدون الصلاة علانية ويريدون أن يصبغوا الحياة الاجتماعية بها ، وأن ينظموا نومهم وانتباههم على أوقاتها ، فإذا شاء الكسالى غير ذلك فليتواروا بإثمهم ، لا أن يفرضوه على المجتمع ويطلبوا من المؤمنين التوارى بدينهم .

وأشهد أن الرجل لان وتأثر واستكان ، وأرجو أن يكون قد تاب ومات مغفورًا له ، وإنما ذكرت هذا الحوار ، ليعرف من جهل مبلغ ما انحدرت إليه أمتنا !

---

(١) الحج : ٧٨ .

إن الشيوعية تريد أن تكون نظامًا عالميًا ، وكذلك المادية والإباحية ، وكذلك الصهيونية والصليبية ، أما الإسلام فإن طبيعته العالمية يراد إنكارها ، وإذا تم ذلك فإن وجوده المحلى ينبغى الخلاص منه والإجهاز عليه . . .

وأريد أن نعرف : من نحن؟ وما ديننا؟ وما هدفنا؟ وما طبيعة جهادنا؟ إننا ورثة الإسلام وحملته وأصحاب الحضارة الوحيدة التى تعترف بالدنيا والآخرة ، والروح والجسد والعقل والعاطفة .

وفى قرآننا وسنة نبينا صلاحنا وصلاح العالم من حولنا ، وقد هنا على أنفسنا ، فكان طبيعيًا أن نهون على غيرنا ، وزهدنا فى ديننا ، فكان طبيعيًا أن يزهد العالم فيه .

وقد بدت فى الأفق تباشير عودة ناجحة إلى هذا الدين العظيم فلنصور بدقة طبيعة النور الذى خصنا الله به ، طبيعة الرسالة التى شاء الله أن تحق الحق وتبطل الباطل وتهدى الحيارى فى المشارق والمغارب ويفرض علينا هذا المعنى أمورًا ذات بال . .

أولها : ما دام محمد عليه الصلاة والسلام للعالم كله وليس للعرب خاصة ، فيجب على العرب- وهم الذين تحدث محمد ﷺ بلغتهم ، وكلفوا بنقل رسالته إلى غيرهم- يجب عليهم أن يوصلوا هذا القول إلى كل قبيل من الناس ، وبكل لغة يتم التفاهم بها .

أى أنه يجب عليهم أن يتقنوا اللغات العالمية ، وما استطاعوا من اللغات المحلية ، وأن يودعوها خلاصة كافية هادية من تعاليم الإسلام فى مجال العقيدة والخلق والعبادة وشتى أنواع المعاملات ، وأن يذكروا بدقة ولطف الفروق الكبيرة بين أصول الإيمان عندنا وعند أهل الأديان الأخرى ، سماوية كانت أو أرضية .

إن هذا الواجب لم يكن منه بد ، حتى لو كان الميدان خاليًا لنا وحدنا ، كيف وهناك أجهزة عالمية ضخمة . تخصصت فى تحقير الإسلام وإهانة نبيه ؟ عليه الصلاة والسلام . فكيف وقد تآمرت على الإسلام شتى القوى ، وتألب ضده خصوم خبثاء ، يصطادون الشبه ويتلمسون للأبرياء العيوب ؟

إن الاستعمار ، سخر أجهزة إلحادية وصليبية سبقتنا إلى أجيال كثيفة من الزنوج والجنس الأصفر ، تركت فى نفسه سمومًا ضد محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وانتهزت الصمت الذى خيم على أجهزة الدعاية الإسلامية والسلبية المشينة التى لذنا

بها ، وراحت تكذب وتكذب حتى نجحت فى تلويث سمعتنا ، وقدرت على غرس تدين مختل الأصول ، مضطرب السلوك . وأمكنها بسهولة أن تصد عن سبيل الله وتردم معالم الصراط المستقيم! إن ذلك يوجب علينا الإحساس المضاعف بخطئنا وتخلفنا ويحملنا عبء المسارعة إلى تعليم الجاهل ، ومراجعة المخدوع وتعريف الناس بربهم الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وربطهم بالدين الذى حمل رايته جميع الأنبياء ، ثم نقاه وشد دعائمه وثبت أهدافه النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ .

والأمر الثانى : المتصل بعالمية الرسالة ، يرجع إلى اللغة العربية . فلغة الرسالة الخالدة ، يجب أن تتبوأ مكانة رفيعة لدى أصحابها ، ولدى الناس أجمعين ، فإن الله باختياره هذه اللغة وعاء لوحيه الباقى على الزمان- قد أعلى قدرها وميزها على سواها والواقع أن اللغة العربية ، مهاد القرآن وسياجه فإذا تضعضعت وأقصيت عن أن تكون لغة التخاطب والأداء ولغة العلم والحضارة ، أوشك القرآن نفسه أن يوضع فى المتاحف ، ولهذه الغاية الخاسرة تعمل فئات غفيرة من المستعمرين وأذنابهم . وما أكثر أولئك الأذناب فى الجامعات والمجامع ودور الإذاعات ، والصحف وغيرها ؟

إن آباءنا عليهم الرضوان نشروا اللغة العربية بكل الوسائل المتاحة لهم ، وما تأسست مدرسة لخدمة الدين ، إلا انقسمت علومها بين مناهج الشريعة ، ومناهج اللغة والأدب . . ويلاحظ الآن انكماش مفزع فى هذا الميدان ورواج سمج للهجات العامية والمصطلحات الأجنبية ، والترجمات الركيكة ، والكلمات الدخيلة . .

واللغة العربية لا تخدم بالحماس السلبى ، بل لا بد من إعادة النظر فى شئون شتى تتصل بكيانها وتعاليمها .

ولنفرق من الآن بين طرق تعليمها للتلامذة الأجانب وتلامذتنا ، ولنبتكر أساليب ميسورة لتدريس المصادر ، وتصريف الأفعال وجموع التكسير وأنواع المترادفات وغير ذلك مما يعانيه طلاب العربية . .

إن هناك لغات لم يشرفها الله بوحى ، ولم تصحب حضارة إنسانية مشرقة يخدمها أبناؤها بذكاء نادر ، فما دهى العرب حتى تركوا لغتهم توشك أن تكون من اللغات الميتة أو الثانوية فى هذه الدنيا ؟ !

إننا عجزنا عن جعل اللغة العربية لغة أولى بين الألف مليون مسلم ، الذين يعتنقون الإسلام ، وهذا وحده فشل ذريع نؤاخذ به يوم الحساب ، ويرجع هذا الفشل إلى أن العرب

أنفسهم لا يجلون لغتهم . بل لقد استطاع الاستعمار الثقافى أن يكرهها لهم أو يحقرها لديهم فأى بلاء هذا؟ والمطلوب الآن للفور إقصاء اللهجات العامية والرطانات الأعجمية عن جميع منابر الصحافة والإعلام وإعادة الحياة إلى اللغة الفصحى فى كل محفل . .

وأكرر مطلبًا آخر ذكرته فى أحد المؤتمرات وهو إنشاء مدارس وإرسال بعثات لنشر اللغة العربية وحدها أى دون ربط اللغة بالدين ، فإن هذا التعليم المجرد سيوسع القاعدة الثقافية للغة القرآن ، وسيكون يومًا ما رافدًا من روافد الحق والإيمان .

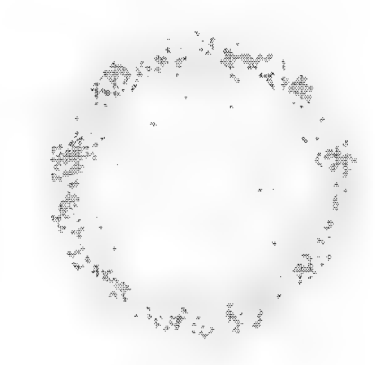
والأمر الثالث والأخير فى عملية الدعوة يتصل بالوضع الأدبى والمادى داخل الأمة الإسلامية نفسها . إن الخلق الزاكى لغة إنسانية عالمية تعجب وتقنع ، وبهذه اللغة تفاهم الصحابة والتابعون مع الشعوب التى عرفوها وعرفتهم فدخل الناس فى دين الله أفواجًا .

أى أن القدوة الحسنة فردية كانت أو جماعية تفرض احترام العقيدة والحفاوة بها وهذه القدوة ليست دورًا تمثيليًا يؤدى بالخداع واجتذاب المشاهدين كلا كلا! فحبل الكذب قصير ، إن هذه القدوة هى الحلاوة فى الثمرة الناضجة أو الرائحة فى الزهرة العاطرة ، أى هى نضج الكمال الذاتى ، وقد شاء الله أن يؤتى السلف الصالح أنصبة جزلة من هذا الحسن الذاتى ففتحت لهم المدن العظام أبوابها وألقت إليهم الجماهير بقيادها .

وإننى أشعر اليوم بغضاضة شديدة حين أرى السائحين والسائحات يجوبون بلادنا ويدرسون أحوالنا ، ثم يتجاوزوننا بقلة اكتراث أو باستهانة بالغة !

إنهم لا يرون- فيما يشهدون - أثر الإسلام الحق فى نظافته وسموه بل يرون شعوبًا أقل منهم كثيرًا فى المستوى الحضارى ولا أقول فى المستوى الخلقى المعتاد .

وتلك أحوال تصد عن الإسلام ولا تغرى باعتناقه ، وعالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديرة بالإكبار . أو على القليل جديرة بالسؤال عن حقيقة الإسلام لمن لم يعرفوا هذه الحقيقة ، وما أكثرهم فى أرض الله .



هزائم إسلامية.. رهيبة النتائج

قد يظن البعض أن هذه الهزائم هى ما أصاب العاملين فى الميدان الإسلامى من تقتيل وتعذيب ، وما لحق بهم وبأهليهم من بلاء عظيم . . لا ، إن للحديث هنا هدفًا آخر لابد من شد الانتباه إليه وإلا ضقنا . .

وما نهون من النكال الذى مس جماهير المؤمنين خلال ربع قرن ، ولكننا نعلم أن من استشهد مغبوط على مكانته عند الله ، وأن من جرح أو أهين أو اضطهد قد وقع أجره على الله ، وأن النتائج الأخيرة لهذه الحرب ضارت الظالمين أكثر مما ضارت المظلومين . .

إن الحسين لو انتصر فى كربلاء ما هز الملك الأموى ، ولأوشك الأمويون أن يداووا ما ربما نالهم منه ، ولكن مصرع الحسين فى كربلاء وانكشاف أهل البيت معه كان الزلزال الذى جر الأمويين إلى الرغام . .

وشهداء الإسلام على يد جمال عبدالناصر وطغمته سيبقون إلى آخر الدهر مشعلاً للكفاح وعارًا على الفراعنة الطغاة .

لندع هذا الحديث إلى حديث آخر أهمنى أمره وأزعجنى وقعه وأحسست معه أن القوى المعادية للإسلام ألحقت بنا هزيمة نكراء إن لم ندركها أتت علينا من القواعد . لقد راقبت المسلمين خلال رمضان وتحسست الموقف من فريضة الصيام وأخذتنى غصة . . ركبت عدة طائرات فى أسفارى فما وجدت صائمًا بين المئات إلا نفرًا يعدون على الأصابع ، وكان الطعام يوزع جهارًا نهارًا دونما حرج ولا وجل . .

ولم أستطع التعليق على هذا الإثم لأنى قدرت أن الاعتذار العاجل هو : نحن مسافرون! ذلك لو اعتذر أحد! ويعلم الله أنهم يفطرون عن عمد لا عن عجز وأن أحدًا منهم لا يفكر فى قضاء ولا فدية ، وأن أحدًا منهم لم يحاول أن يقدر حرمة الشهر ويتوارى بفطره عن العيون . . بقية حياء!

وعدت إلى القاهرة عاصمة العالم الإسلامى فوجدت الصائمين كثيرين والمفطرين كثيرين ، وفى بعض مواقع العمل وجدت المفطرين كثرة ظاهرة ، والأدهى أن أحدًا لا يستطيع زجرهم أو التنديد بمعصيتهم! قلت : لقد استفحل الشر ، ربما قدر الشيوعيون أو الصليبيون أمس القريب على اصطياد طالب غر ، ربما خدعوا ـ باسم الثقافة المزعومة ـ

امرءًا قليل الفطنة ، أما أن تفلح هذه العناصر فى الوصول إلى جماهير العمال أو الفلاحين لتغريهم بالتمرد على فرائض الله فهذه طامة كبرى هذه هزيمة إسلامية شديدة!

كان هناك مسلمون يكسلون عن الصلاة فإذا جاء رمضان صاموا مع الصوام وسيطر على سلوكهم ظل من وقار الشهر الكريم فانتظموا مع القافلة العابدة لله الحريصة على رضاه ، أما اليوم فالجرأة على الإسلام عطلت الصلاة والصيام جميعًا ، وأغرت أعدادًا كبيرة أن تجاهر بالإثم وأن تتحلل من قيود الإيمان وشعار الهدى .

هذه هزيمة إسلامية كبيرة ، إن كياننا مهدد فى صميمه ولا يمكن التهوين من الانتصار الذى أحرزته القوى المعادية للإسلام فى هذا الميدان .

قد يقال : إن السلطة التنفيذية مسئولة عن وقف هذا التحلل . وهذا قول مرفوض! إننى أعلم أن جراثيم النخر التى تسللت إلى مجتمعنا المؤمن تسللت إليه فى حماية مسلحة تارة بالقهر المادى وتارة بالضغط الأدبى . . ومع ذلك فأنا أرفض أى عبادة ينشئها قانون مرهب فإن الأصل فى العبادات أن تنبعث من ضمائر تقية وقلوب مهدية ، إنها استجابة لإيمان عميق وتدين خاشع ، وإنما يجىء دور القانون فى ردع الشذوذ والفوضى ، أى فى رد جراثيم التحلل التى أشرنا إليها آنفًا والتى انطلقت إلى غايتها فى كنف الاستعمار والحكومات الموالية له والمتأثرة به!

ودور جماعة الإخوان ، وسائر الجماعات الإسلامية الأخرى لابد أن يبرز فى تربية الأجيال الناشئة ، وأخذها بالإقناع والأسوة الحسنة كى يبقى ولاؤها لدينها ، وارتباطها بتعاليمه ، نعم لقد نزلت بالمسلمين المكافحين ضربات موجعة ، بيد أن هذه الضربات لابد من احتمالها برجولة ، ولابد من التغلب عليها لاستنقاذ المجتمع الإسلامى من الكوارث التى حلت به وأذهلته عن شعائره المقدسة وتقاليده النبيلة . . إن بعض الناس يتصوروننا منافسين على الحكم متطلعين إلى مناصبه ، وهذا خطأ ، فشغلنا الشاغل هو الحفاظ على الإسلام ودعم أركانه والإمساك بعراه كلها .

إن الحكومات المتجهمة للإسلام جعلت مواقيت الأعمال شاغلة عن مواقيت الصلاة بالنهار ، وجعلت برامج التسلية صارفة عنها بالليل ، وقد سمعت قصائد الغزل فى شهر الصيام والتحيات المقدمة لوجهه الجميل ، وإنما أبهت لها لأنها حجاب غليظ عن العبادة الصحيحة ورأيت جوانب الحركة والنشاط التى يتعرض لها الصغار والكبار فتشاءمت منها ، لأنى رأيت بعينى صور الفتية اليهود يحملون السلاح ويتدربون منذ نعومة أظفارهم على مقاتلة العرب وتسجيل ضياع فلسطين إلى آخر الدهر .

إن المجتمع الإسلامى يترنح تحت اللطمات الهائلة التى تناولته من اليمين واليسار . وعلى المسلمين المخلصين من دعاة ومدعوين أن يسارعوا إلى مساندته قبل أن يسقط ، وذلك بالتربية الجماعية الواعية الهادية . .

والحكم الإسلامى المنشود ليس هيكلاً من حجارة . . أو من ناس كسائر الناس ، إنه يقوم ابتداء وانتهاء على الرجل المسلم الرجل الذى إن قام قامت معه الصلاة والزكاة ، وانتعشت فى ظلاله الضمائر التى تحرس المصلحة العامة ولا يعنيها إلا ابتغاء وجه الله . .

المفروض أن نشتغل بتربية هذا الفرد وأن نوفر كل العناصر التى تتطلبها هذه التربية لقد لاحظت فى بعض البلاد الإسلامية أمورًا لها ما بعدها! مستشفيات احتاجت إلى ممرضات ، فجىء بالممرضات كلهن من المبشرات الهنديات! وبين خمسين طبيبًا عينوا لاحظت أن المسلمين منهم أحد عشر . . لا غير!

ورمقت بأسف بعض دور التعليم خصوصًا دور الأطفال فوجدت الإشراف الإسلامى مفقودًا لأن أرباب هذه الدور غير مسلمين وقد نشأ عن تجمد النشاط الإسلامى فى ميادين الثقافة والمجتمع ما لا يمكن السكوت عنه .

فى لبنان الآن مائة ألف يتيم مسلم قتل آباءهم ضغن أسود على الإسلام ونبيه وأمته ، ما مصير هؤلاء الأيتام البائسين؟ أخشى أن يتعرضوا لما تعرض له مئات الألوف من أطفال أندونيسيا الذين تخلفوا عن الحرب الأهلية الأخيرة! لقد حلت مشكلتهم ملاجئ التبشير ما دام النشاط الإسلامى «الشعبى» . . صفرًا . .

إننى أصيح محذرًا من مغبة الهزائم الإسلامية فى مجالات شتى لابد أن نثبت فيها وجودنا وأن نتحامل على جراحاتنا ونستأنف السير ولو نزفنا الدم! العاملون فى الميدان الإسلامى مجندون اليوم لا للمشاركة فى نشاط سياسى طويل المدى أو قصيره ، بل للدفاع عن العقائد والعبادات والأخلاق والتقاليد الإسلامية التى اخترق الاستعمار الثقافى خطوطها فى أماكن لا حصر لها!

ما يشك مسلم فى أن الإسلام عقيدة وشريعة ولكننا لا يجوز أن نقف متفرجين حتى نقيم الحكم الإسلامى المنشود ، أمامنا عمل تنصب فيه الجباه وتتسابق فيه الهمم وهو الجهاد الأكبر فى تلك الأيام العجاف .

الإنسان فى القرآن

ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير فى انحدارهم!

إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الإغراء والإغواء . والإنسان هو الذى يهيئ أقطار نفسه لاستقبال هذه الإذاعات والتجاوب معها .

وأنت الذى تتخير ما تسمع من محطات «الراديو» المختلفة . ولو شئت أغلقت للفور ما تعاف سماعه . أو ابتعدت عنه حتى لا يصل صداه إلى سمعك . أو قاومته بمشاعر النفور والمقت حتى لا يستولى عليك!!!

وقد منح الشيطان من أول يوم القدرة على إغواء الإنسان وخداعه . ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونصب أحابيل مختلفة لإيقاع الأغرار والغافلين .

كانت الملائكة متشائمة من مستقبل الإنسان على ظهر الأرض . لعلها أحست أن أصله الترابى سيجعله هشًا أمام الاختبارات الصلبة . وأنه سيفقد تماسكه أمام الأهواء والمغريات؟

لعلها رأت أنه يشبه أجناسًا أخرى لم تصدع بأمر الله . ولم تحسن تنفيذ وصاياه؟

أو لعل شعاعًا من عالم الغيب طلع عليها فرأت معه صورًا من الحروب الدامية والمسالك المعوجَّة التى سوف يخوضها البشر ويظلمون بها أنفسهم .

على أية حَال لقد تساءلت الملائكة مستغربة وقالت لله جل شأنه : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[1]!

وخلق الله آدم ووهب له عقلاً محيطًا بالأشياء كلها . ووضع فى هذا العقل خاصة باهرة يستمكن بها من معرفة الأسرار والظواهر . ويهيمن بها على شتيت من القوى والعناصر . إن هذا الإنسان المحدود فى أعضائه ومشاعره يملك طاقات ضخمة تجعله سيدًا لما حوله . بل تجعله ملكًا واسع السلطان ممدود النفوذ .

ولعل الملائكة اليوم ترقبه دهشة وهو يخترق الفضاء ويغزو الكواكب .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

لكن عظمة الإنسان لاتكمن فى هذه القدرات الطيّعة . إنها تكمن فى أمر آخر أهم منها وأجل . هو معرفته لمن خلقه فسواه لمن أعلى قدره ورفع مستواه! لله الذى خلق هذا الكون ومكنه فيه وسخره له .

إن هذا الفريق من الناس الذى عرف ربَّه وأسلم له وجهه . . وافتتح مغاليق الحياة باسمه . هو الذى يبرز الحكمة من وجود الإنسان فى العالم . وأحسب أن هذا الفريق الصالح المصلح هو الذى استَشَفَّتْ الملائكة خبره ثم قالت لله : ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[1] .

وقصة الحياة الإنسانية كما ساقها القرآن الكريم تستوقف النظر من نواح عدَّة نحب أن نتبيَّنها :

أولها هذا التنعيم الذى أحاط بها منذ بدايتها فبين يدى عرض القصة فى سورة البقرة نقرأ قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا . .** ﴾ وقبل ذلك بقليل نقرأ : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴾ .

وبين يدى عرضها فى سورة الأعراف نقرأ قوله : ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ . .** ﴾ .

وبين يدى عرضها فى سورة الحجر . سردٌ للنعم التى تحف الحياة البشرية نقرأ منه قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ . .** ﴾ .

والواقع أن الرغيف الذى يطعمه إنسان تشترك فى إنباته وإنضاجه فجاج الأرض وآفاق السماء .

---

(١) البقرة : ٣٢ .

فتربة الأرض . والسحب الهامية . والأشعة العمودية أو المائلة التى تتعرض لها الحقول وأثر الضوء فى تكوين الخضرة مثلاً وأشياء أخرى كثيرة تتعاون جميعًا على تكوين الغذاء والكساء والدواء الذى يحتاج إليه البشر .

إن شبكة من المواد الدقيقة جدًا . والجسيمة جدًا ، انتظمت فى خدمة الإنسان وتأمين معايشه وتخطيط حاضره ومستقبله . كل يؤدى دوره بوفاء وقدرة ، الكواكب السباحة فى الفضاء . والجراثيم التى لاتراها العين!!

وذلك سرّ الأقسام الكثيرة التى وردت فى القرآن الكريم مشيرة إلى فخامة هذا العالم ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ⦗١٦⦘ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ⦗١٧⦘ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ⦗١٨⦘ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** ﴾[1] .

﴿ **كَلاَّ وَالْقَمَرِ ⦗٣٢⦘ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ⦗٣٣⦘ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ⦗٣٤⦘ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ** ﴾[2] .

وتدبر القسم بالرياح المثيرة والسحب الحافلة وما يتبع ذلك من زرع وحصاد وتجارة واحتراف وخيرات تعمّ البشر ﴿ **وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ⦗١⦘ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ⦗٢⦘ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ⦗٣⦘ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ⦗٤⦘ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ** ﴾ .

إن ربَّ العالمين أبدع ما صنع! وحدثنا عن هذا الإبداع لنعجب به ونتذوق جماله .

وإنى لأستغرب أحوال ناس ينتسبون إلى الإسلام ويديرون ظهرهم للكون . فلا يدرسون له قانونًا ، ولا يكشفون له سرًا .

أى إيمان هذا؟ وأى جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه فى ربوعها . .؟

إن الإنسان فى القرآن الكريم كائن مكرم مفضل محترم مخدوم ، ومن حق الله تبارك اسمه أن يعاتب البشر على سوء تقديرهم لآلائه ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** ﴾[3]!!

هذه ناحية تتصل بالتكريم الماديّ للإنسان ، وثم ناحية ثانية تتصل بكيانه المعنوى .

---

(١) الانشقاق : ١٦ ـ ١٩ . (٢) المدثر : ٣٢ ـ ٣٥ . (٣) لقمان : ٢٠ .

فالإنسان نفخة من روح الله الأعلى ، هكذا بدأ خلق آدم ، وهكذا تتخلق الأجنة فى بطون الأمهات .

إن الحياة فى شتى الأجسام المتحركة شىء ، وخصائص الحياة الرفيعة فى أبناء آدم شىء آخر ، وقد أشاع الله نعمة الخلق بين خلائق كثيرة برزت من العدم إلى الوجود ، بيد أن آدم وحده هو الذى وصفه بقوله : ﴿سَوَّيْتُه وَنَفَخْتُ فيه من رُوحى﴾[1] .

واطرد هذا التكريم فى ذريته إلى قيام الساعة ﴿ الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ . . ﴾[2] .

والإنسان بهذه النفخة كائن جديد يعلو فوق ما يشبهه من ضروب الحيوان ولذلك قال جلَّ شأنه ﴿ . .فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[3] .

وبعد أن تم خلق آدم على هذه الصورة أمر الله الملائكة أن تسجد له سجود تعظيم وتوقير لا سجود عبادة!!!

والملائكة هى التى أبدت دهشتها لإيجاد هذا الإنسان واستنكرت ما سوف يقع منه من فساد وفوضى .

إنها طولبت بالسجود له بعدما تم تكوينه!! وعوقب من رفض السجود بالطرد من رحمة الله .

وسواء كان إبليس من الملائكة . أم صادف وجوده بينهم وهو من الجن ، فإن النتيجة لاتختلف . إذ إن الاستهانة بالإنسان هى عند الله عصيان وخيم العاقبة!

وهذا التكريم البيِّن ينضم إليه أمر آخر عظيم الدلالة على مكانة الإنسان وحفاوة الله به . هذا الأمر هو الفرح الإلهى بعودة الإنسان التائب واستقبال الله له بإعزاز بالغ وتجاوزه عما فرط منه من خطأ وقوله فى عفو شامل ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[4] .

---

(1) ص : ٧٢ .
(2) السجدة : ٧ ـ ٩ .
(3) المؤمنون : ١٤ .
(4) طه : ٨٢ .

كلتا الناحيتين من تكريم وتنعيم استتبعت ناحية ثالثة كان لها الأثر الأكبر فى مستقبل الإنسان ومستقبل الكوكب الذى أُعدَّ لسكناه . بل فى مستقبل المجموعة الشمسية كلها التى سينتثر عقدها وينطفئ نورها مع انتهاء الرسالة الإنسانية على ظهر الأرض .

هذه الناحية هى «التكليف» . فإن الله الذى زوّد الإنسان بهذا السمو فى مواهبه لم يتركه سدى . بل أمره ونهاه وطلب منه أن يفعل وأن يترك! وربما كلفه أن يفعل ما يثقله . وأن يترك ما يشتهيه!!

وهنا نقف وقفة يسيرة أمام سر التكليف ومعناه لنتناول جملة أمور .

إن أبانا آدم ، وهو الإنسان الأول ، كلف ألا يأكل من شجرة معينة وكان جديرًا به أن يعرف حق الآمر جل شأنه وأن يدع الأكل من هذه الشجرة أبدًا .

ولكنه بعد مرحلة من الذهول والضعف عرضت له ساعة انهيار فى إرادته وامتداد فى رغبته فأكل من الشجرة المحرمة ، وشاركته زوجته فى عصيانه فطردًا جميعًا من الجنة .

وكانا قد أحسا بالخطأ الذى تورطا فيه فدعوا الله نادمين ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾[١] .

ونزل أبوانا إلى الأرض وشرع كثير من الأبناء يمثلون القصة نفسها ويرتكبون الخطأ ذاته . ولكنه ليس أكلاً من شجرة بل اتباعًا للشهوات التى تقود إلى العصيان والحرمان!

العنوان متغير والحقيقة واحدة . . إن هذا السلوك من الإنسان الأول يجعلنا نتساءل عن علته؟ والعلة واضحة فإن الإنسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة ، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض!!!

إن الله تبارك اسمه بعدما صوّر الإنسان من التراب وسواه ، نفخ فيه من روحه ، فإذا كائن عجيب يجمع النقائض فى تركيبه ، يقدر على التسامى وعلى الإسفاف ، يقدر على الاستقامة وعلى الانحراف .

وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخليط فى التكوين البشرى فقال جل شأنه : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[٢] كما نبه إلى أن إلمامه

(١) الأعراف : ٢٣ ـ ٢٥ .   (٢) الإنسان : ٢ .

بالخطايا ليس مستغربًا ، إنه ينزع إلى عرق فيه! ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ . . ﴾[1] .

وكلتا النزعتين الأرضية والسماوية تجد فى الحياة ـ أو فى البيئة ـ ما يضعفها أو يقويها ، وقبل ذلك كله تجد فى الإنسان نفسه ما يرجح كفة على أخرى ، وما يسلم زمامه للخير أو للشر ، كما يريد هو لنفسه دون تدخل من أحد فى اتجاهه هنا أو هنا .

إن إيثار الوقوف عند الإشارة الحمراء أو المروق منها والتعرض لأخطار الانطلاق الأحمق تصرف إنسانىٌّ محض .

وفى هذا يقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا «أى لو تسامى وترفع» وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ . . ﴾[2] فتركه الله حيث شاء لنفسه .

ولابد من توكيد هذه الحقيقة ، حقيقة الإرادة الحرة فى الصعود والهبوط ، فى التقوى والفجور ، فى إغضاب الله وإرضائه . فإن الرحمن الرحيم يستحيل أن ينقم على إنسان سعى فى مرضاته ، كما أنه لايرضى عن إنسان سعى فى إغضابه .

وبعض الناس يمارى فى هذه الحقيقة عن مكابرة ، أو تمحُّل أعذار ، وهيهات فقصة الوجود الإنسانىِّ تقوم على اختبار حقيقى لاكتشاف المحسن والمسىء ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . ﴾[3] والمحسن إنسان أتقن العمل واحترم الصواب . والمسىء إنسان فرط ولزم العوج . .

والعراك داخل النفس الإنسانية لاختيار أحد النهجين عراك حقيقى لا صورى .

وتلمح صدق هذا العراك وقبول نتائجه فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[4]!!

---

(١) النجم : ٣٢ .　(٢) الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٦ .　(٣) الملك : ٢ .　(٤) النازعات : ٣٧ ـ ٤١ .

إن السالم فى هذا العراك إنسان يشعر بقيام الله عليه وعلى سائر الكائنات ، ومع نماء هذا الشعور يخفت صوت الهوى ويغلبه صوت الضمير اليقظان أو القلب الحىّ . . فأين التمثيل أو المحاباة أو الخداع فى هذه الحالات؟

* * *

الله جل شأنه ينادى الإنسان ويذكره ويهديه ، وعلى الإنسان أن يلبّى ويتذكر ويهتدى ، فإذا أبى إلا الشرود فهو وحده الملوم ، ومن ثم تقررت هذه الأحكام العادلة التى ندركها من قوله تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا** . . ﴾[1] ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾[2] .

والتزكية والتدسية جهد بشرى محض ، أو كذلك يكون أول الطريق ثم يلحقه من مشيئة الله ما يصل به إلى النهاية ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ** ﴾[3] . .

ونتساءل مرة ثانية : ما قيمة الصوت المضلل الذى يتسمع إليه الإنسان فيزيغ ويشقى؟

الحق أنه صداه الضخم أضعاف أضعاف حقيقته التافهة ، إنه كنقيق الضفدعة يملأ أكناف الليل ومصدره لا قيمة له!

ما الشجرة التى أكل منها آدم؟ هل أحس طويلاً لذة ثمرها ومتعة ازدرادها؟ لقد كانت وهمًا هذه النشوة المأمولة ولو فرضناها لذة ساعة فما قيمتها! إذا وزنت بما أعقبته من حسرات سنين عددًا؟ بل دهرًا طويلاً!!

إن الإنسان فى هذه الدنيا تهيجه رغبة حمقاء إلى شىء محرم ، ما إن يواقعه حتى يحس الفراغ والضياع ، وحقيق بالإنسان أن يتماسك أمام عوامل الاستفزاز ومزالق القدم .

ونتساءل مرة أخرى ما مصدر هذا الصوت النابى المجهول الذى يُزل الإنسان .

والجواب أن له مصدرين اثنين : أولهما نفس الإنسان أو الإهاب الترابى الذى غلفت به ، والمصدر الثانى من كائن آخر خاصم الإنسان من النشأة الأولى وهو الشيطان الذى آلى على نفسه استدامة هذا الخصام إلى يوم النشور . .

---

(١) الأنعام : ١٠٤ . (٢) الشمس : ٧ - ١٠ . (٣) النساء : ١١٥ .

فى المصدر الداخلى للمعصية يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾[1] .

فالنسيان وضعف العزيمة رذائل وقع فيها الإنسان الأول ، ومع تولدها فى نفسه تتَهيأ الإمكانات للشيطان كى يوسوس ويخادع ويقول لآدم وامرأته : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾[2] .

وما تمت هذه التدلية ولا نجح الشيطان فى خدعته إلا لأن آدم كان قد ضعفت ذاكرته وضعفت إرادته .

الضعف النفسى أولاً ثم وساوس الشيطان ثانيًا ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير فى انحدارهم!

إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الإغراء والإغواء ، والإنسان هو الذى يهيئ أقطار نفسه لاستقبال هذه الإذاعات والتجاوب معها .

وأنت الذى تتخير ما تسمع من محطات «الراديو» المختلفة ، ولو شئت أغلقت للفور ما تعاف سماعه ، أو ابتعدت عنه حتى لايصل صداه إلى سمعك ، أو قاومته بمشاعر النفور والمقت حتى لايستولى عليك!!!

وقد مُنح الشيطان من أول يوم القدرة على إغراء الإنسان وخداعه .

ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونَصب أحابيل مختلفة لإيقاع الأغرار والغافلين ، وقيل له : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[3] .

وكان الشيطان لايملك أكثر من الكلام يكذب فيه ويَغُرُّ . وقد نبه الله آدم وبنيه إلى هذا العدو الغار الكاذب . وحذره من الشراك المنصوبة والأقاويل المزَوَّرة .

إن الشيطان يَعِدُ كاذبًا ، ويقسم حانثًا ، وينصح غاشًا ، ويلين ليلدغ وينحنى ليثب ويصرع .

وهو فى هذا كله لايملك إلا شيئًا واحدًا ، الكلام ، الكلام وحده! فلا يجوز أن نصدقه ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾[4]

---

(١) طه : ١١٥ .
(٢) الأعراف : ٢١ .
(٣) الإسراء : ٦٤ .
(٤) طه : ١١٧ .

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾[1] .

ومع ذلك فقد قدر الشيطان بالكلام المضلل أن يزيغ الكثيرين .

وسيقول يوم القيامة لمن استجابوا له : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾[2] .

إن سلاح الشيطان مفلول والنجاة منه ميسورة ميسورة!! وعندما يقع البعض فى قبضته فلا حماية له لأن القانون لايحمى المغفلين .

ومن ثم فالجهد الحقيقى فى النصح والتربية يتجه إلى الإنسان أولاً وآخرًا ليوقظ فيه أسباب الحذر ، وليسدّ الثغرات التى يمكن أن يتسلل منها الشيطان بوساوسه الماكرة .

لقد أشرنا إلى الأمشاج التى يتكون منها الإنسان ، والحق أن فى الإنسان ـ مع أصله السماوى ـ طباعًا لايجوز تركها حرة تتصرف كما تشاء ، لابد من مراقبتها وإخضاع حركاتها وسكناتها لحكم الله ، وإلا جرَّته من القمة إلى الحضيض ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾[3] .

وليس معنى هذا الردِّ أنه تحوّل إلى مسخ ذميم بعدما كان فى ذروة الحسن! كلا . .

المعنى أن إمكانات الهبوط جاورت معانى الرفعة فى نفسه ، وأنه يستطيع التحليق والإسفاف معًا ، وذاك سرُّ الاستثناء بعد ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[4] أى سوف يبقى قوامهم حسنًا . ماديا ومعنويًا!!

وجاءت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر الطبائع الرديئة التى ينبغى الخلاص منها .

فالإنسان «أنانىّ» يحب نفسه وحسب ، وقد تكون محبة النفس أصلاً فى استبقاء الحياة ، ولكن هذه المحبة تتحول إلى مرض خطير يورث الشره والطمع والبغى واجتياح الحقوق بنزق .

وقد ذكر القرآن أن هذه الأثرة لايطفئها الغنى مهما اتسع ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾[5]!!

---

(١) الكهف : ٥٠ .
(٢) إبراهيم : ٢٢ .
(٣) التين : ٤ ـ ٥ .
(٤) التين : ٦ .
(٥) الإسراء : ١٠٠ .

والإنسان نَسَّاءٌ أو غافل ، وقد يكون هذا أو ذاك أصلاً فى استبقاء الحياة ، فلو استصحب المرء حزنه إلى الأبد على ما فقد ما صلحت الدنيا .

ولكن هذا الذهول قد يكون جرثومة الكنود ونكران الجميل ونسيان الربِّ وما أولى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾[1] ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[2] .

والإنسان الذى يحلو له أحيانًا أن يفخر ، ويتطاول ، وينظر إلى السماء بقلة اكتراث ، تذله علّة فى أى مكان من جسمه ، أو تُزِلُّه غلطة فى أى وقت من تفكيره مهما كان عبقريًا . . ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾[3] .

والإنسان محتال كبير فى الدفاع عن نفسه ، والتماس الأعذار لأخطائه وعدِّ ما يقع منه وجهة نظر مقبولة أو مغفورة ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾[4] .

وهذه الطبائع جميعًا مزالق لمن يسترسل معها ، وقد نبه القرآن الكريم إلى أمراض شتى تعترى النفس ، فالإنسان قد يبطر مع الغنى ويطغى مع السلطة ويقنط مع الفشل ، وقد يستحلى من شهوات النساء ، والرياء ، والاستعلاء ما يحيله إلى عبد لنفسه وهواه .

ولكن الفكاك من هذه الآثام كلها ميسور فإن القرآن الكريم لما خوَّف عواقب هذه الانحرافات الإنسانية ذكر أسباب النجاة منها : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾[5] .

وما أجملته سورة العصر من وصف للداء والدواء فصلته سور أخرى .

نختار منها سورة المعارج التى أسندت للإنسان هذه الخلال ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . . ﴾[6] لكن الإنسان يبرأ من هذه العلل إذا قام بجملة العبادات المفروضة .

ونتساءل : هل هذه العبادات «مصل» واق أم شفاء من أمراض توجد وتتجدد؟ قد يكون هذا أو ذاك!

---

(١) الإسراء : ٦٧ . (٢) العاديات : ٦ ، ٧ . (٣) النساء : ٢٨ .
(٤) الكهف : ٥٤ . (٥) العصر : ١ - ٣ . (٦) المعارج : ١٩ - ٢١ .

ولنتدبر أولاً الاستثناء الذى تضمنته السورة الكريمة ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾[1] .

لاشك أن هذه العبادات مجتمعة تنشئ إنسانًا كاملاً شريطة أن تؤدى أداء حقيقيًا لا أداء تمثيليًا ، وأحب أن أقف عند واحدة من هذه العبادات لأتأملها وأتعرف على آثارها النفسية . وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾[2] .

إن الإنسان المسلم يجب أن يكون مستعدًا دائمًا لأداء الشهادة على وجهها ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويدعم العدالة .

والقيام بالشهادة يتطلب صراحة لا تخاف فى الله لومة لائم ، ذلك أن الحق يختنق فى هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعد من هنا وهناك .

والمرء ينكل عن الإدلاء بالرأى الصحيح والقول الصحيح لأنه يخشى على مستقبله مثلاً ، أو يريد محاباة قريب ، أو يسمع فى مال ، أو يتطلع إلى منصب إنه لايستبين وجه الله من غلظ الحجب على بصيرته!!

والمجتمع الإسلامى يسقط مع اختفاء الذين هم بشهاداتهم قائمون .

وكم رأينا من أناس قدّموا وحقهم التأخير أو أخِّروا وحقهم التقديم ، لأن المؤمنين ليسوا بشهاداتهم قائمين ، ربما سكتوا أو قالوا فلم يعدلوا!!

ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقًا بعيدًا عندما قرأت أن زوج الملكة فى هولندا عزل وجرد من أوسمته لما كشفت صلته بقضية رشوة ، وأن رئيس وزراء اليابان عزل ورمى به فى السجن للتهمة نفسها!!

---

(١) المعارج : ٢٢ ـ ٣٥ .

(٢) المعارج : ٣٣ .

إن القيام بالشهادة يعنى ألا نترك صاحب حق مستوحشًا فى هذه الدنيا لا صديق له ولا ظهير .

والشهادة بداهة ليست ما يقال أمام الحاكم فقط ، بل ما يقال فى كل خلاف أو مشورة أو اختيار أو انتخاب أو أى شأن ذى بال .

والقائم بالشهادة رجل أسلم لله وجهه وقرر أن يحيا للحق وحده!

وقد تتشابك فى نفس الإنسان عدة طباع مثل تَشَهّى الحياة ، وتعجّل النتائج . وغلبة الأثرة ، فيصدر أحكامًا خاطئة على ما يصيبه من خير أو شر ، وتستبد به المبالغة فتجمح به مشاعره نحو نفسه ونحو الناس . وفى هذا يقول جل شأنه : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾[١] .

فى هذه الآيات صورة الإنسان الذى تستعبده الساعة الحاضرة وحدها ، فهو عند فقد ما يسرّ منهزم كسير من شدة القنوط ، وعند وجَدَانِه ، ينتشى ويغتر من شدة الفرح .

وكان يجب أن يتمالك نفسه فى الحالين وينظر إلى أصابع القدر وراء ما يحسّه فيستكين لله ويؤدى ما عليه بتعقل . .

ثم ينضم إلى هذا الإحساس المعتدل شعور آخر ، أساسه أن ما يناله من خير ليس تمتيعًا له وحده ، فإن للمحرومين سهمًا فيما جاءه ، وقد يكون سهمًا كبيرًا ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾[٢] .

والآيات تشير إلى أن الغنى ابتلاء ، وأن الفقر ابتلاء ، ومن الخطأ تصوّر الإغناء تكريمًا والإفقار إهانة . العبرة بالنتائج ، فإن الذى يستعفّ فى فقره أسبق عند الله وأرجح فى الميزان من الذى يطغى بغناه .

---

(١) هود : ٩ ـ ١١ .

(٢) الفجر : ١٥ ـ ٢٠ .

والذى يمنح الثراء ، فيفتح أبوابه لليتيم والمسكين ويسارع بالبذل فى مواطن النفقة هو الإنسان الناجح فى الامتحان السابق فى الميدان .

لكن البشر ـ للأسف ـ يحسبون العطاء تدليلاً لأشخاصهم ، والحرمان إهانة وإذلالاً . . وذلك خطأ بالغ فى فهم الدين والدنيا .

وعندما خال الناس أن الغنى تكريم ذاتى لبعض الأفراد والأسر ، وأن الفقر هوان ذاتى قصده الله لبعض الأفراد والأسر ، عندما شاع ذلك انفجرت براكين الأحقاد ضد أصحاب الثروات ، وانفجرت معها عواصف الإلحاد والكفر ، وتعرض مستقبل الإنسانية كلها للبوار ، وهل انتشرت الشيوعية إلا فى هذا الجو؟ إن العباده هى السلَّم الفذ الذى تصعد فيه النفس الإنسانية إلى الكمال المنشود .

يجب على الإنسان أن يعرف ربه ، وأن يقف فى ساحته عبدًا نقيًا من الآفات والعاهات .

إن آدم لما نسى وضعف أضحى دون مستوى الجنة فأخرج منها .

ولن يعود أبناؤه إلى الجنة وهم يحملون أوزار النسيان والضعف ، لابد من إيمان واضح وعمل صالح .

وفى طول القرآن وعرضه توكيد لهذه الحقيقة التى يحاول كثيرون الزوغان منها . .

ونعود إلى الخاصة الأولى فى تكوين آدم وبنيه ، خاصة العقل العالم بالأشياء الخبير بالحقائق والأسماء ، إن الإنسان المكلف بعبادة الله لايعبده بشبحه المحدود ، وجسمه المادى القاصر! إنما يعبده بتطويع طاقاته كلها لله . إنه يضع بصماته المؤمنة على الأرض حتى إذا سجد سجد معه زرعها وضرعها وحديدها وذهبها وكل ما ملك وارتفق!!

وأرى أن ذا القرنين عندما ساوى بين الصدفين ، وذوب الحديد والنحاس داخل سلسلة من القلاع التى تحمى الضعاف وتذود الطغاة ـ أرى أنه أحق الحق وأبطل الباطل لا بالكلام وحده ، ولكن بجعل الأرض ومعالمها ومعادنها تؤدى وظيفته وتحمل طابعه وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده .

وهل ملَّكَ الله الأرض للإنسان إلا لهذا؟

عندما تعطى خادمك أسباب الزينة والوجاهة فيجيئك أشعث أغبر فأنت تضيق به .

والعبّاد الجهلة بالحياة ، الغرباء فى الكون ، سوأة زريَّة ، وجهل أو تمرد على الخلافة الإنسانية فى العالم .

ونحن المسلمين سنحاسب حسابًا عسيرًا على تخلفنا الفاضح فى العلوم الطبيعية .

ربما احتاج الإنسان كى يصلى إلى مساحة من الأرض لاتعدو ذراعًا فى ذراع، ولكنه كى يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ بل إلى الشمس، معرفة فى هذا العصر تهيمن على ما فى الأرض وما فوق الثرى. وتخترق طباق الجو متحسسة آفاقًا بعد آفاق من أغوار الكون البعيد.

كتب الدكتور فاروق الباز الخبير فى غزو الفضاء عن حاجة العرب إلى «متنقِّل فضائى» يستعينون به على اكتشاف أرضهم وما أودع فيها من خيرات، وأهاب بالحكومات العربية أن تموِّل هذا المشروع، قال: «ليس من المستبعد فى نظرى أن تخطو دولة أو دول عربية هذه الخطوة فتحقق ما فيه الخير للعالم العربى كله. نحن نعلم أن الصحراء تكون ٩٦٪ من جملة الأراضى العربية، ولابد من الانتفاع بجزء كبير من هذه الصحراء إلى جانب دراستها دراسة علمية صحيحة فنحن لانعلم عن الصحراء إلا قليلاً، وربما كان سبب هذا أن علماء الغرب لم يهتموا بالصحراء لقلة الصحارى فى بلادهم ولصعوبة التنقل فى صحرائنا الشاسعة. .!!

ويلزم العلماء العرب أن يدرسوا الصحراء وتضاريسها وتراكيبها دراسة تفصيلية، لأن البادية منبع كل ما هو عربى.

والصحراء تحيط بالعرب من كل ناحية، يتضح هذا لرواد الفضاء فى المدار الأرضى وضوحًا تامًّا حتى أن رواد القمر كانوا يتعجبون لظهور الصحراء العربية فى صورهم الملتقطة كتلة واحدة على بعد ٤٠٠٠٠٠٠ كيلومتر».

قال: «وتعتبر الصحراء خزانًا عظيم الشأن للنفط وللمياه الجوفية. ويصلح بعض أجزائها للزراعة المثمرة.

وأهم من ذلك كله أن الصحراء خزان عظيم لطاقة لا نهاية لها هى الطاقة الشمسية. ولذلك يجب أن تشتمل دراسة الصحراء العربية تحديد أصلح الأماكن لأبحاث الطاقة الشمسية وطرق الإفادة منها.

ومن الناحية الاجتماعية يجب أن تشمل الدراسة التعرف على الأماكن المختارة لمعيشة الإنسان وإنشاء المدن الكبيرة والصغيرة وطرق المواصلات ومنتجعات السياحة والترفيه، وتحديد بنية الخضرة فى الصحراء لاستغلالها، ومعرفة المؤثرات المختلفة على حياة البدو، إلى غير ذلك مما يجعل الصحراء بقاعًا لائقة للعيش الكريم».

قال: «وينجح هذا العمل إذا تم على مستوى عربى جماعى! فالصحراء العربية برغم

ترامى أطرافها إقليم واحد له ميزات ومعالم جغرافية واحدة ، ولا صلة لهذه الوحدة بالحدود السياسية الوهمية بين الدول وخطوط الشتات التى مزقت الكيان الواحد» .

قال : «أما المطلوب لدراسة الصحراء على المدار الأرضى فهو فى اعتقادى قمر صناعى يرحل إلى الفضاء مع «المتنقل الفضائى» ـ الذى سبق للدكتور الباز اقتراحه ـ يرجع صورَه الملتقطة إلى الأرض روادُ الفضاء المختارون ، وذلك بين آونة وأخرى!

ويكون هذا القمر عربيًا فى أغلب نواحيه ، يختار مكوِّناته علماء يقومون بتشغيله ، وتدرس المعلومات المرسلة فى عدة معاهد عربية أو فى مركز عربى موحّد تشترك فيه الدول العربية كلها» .

قال : «وكنموذج للمكونات التى يجب أن يشتمل عليها القمر الصناعى العلمى ينبغى وجود عدة «كاميرات» أهمّها «كاميرا» للتصوير الطبوغرافى ، و«كاميرا» للتصوير الدقيق ، أى بانورامية و«كاميرا» لأخذ الصور المتعددة الأطياف ، على نمط أجهزة لاندسات بل أكبر دقة وأقل تعقيدًا .

الكاميرات الطبوغرافية تلزم لأخذ الصور المطلوبة لخرائط على مقياس ١ : ١٥٠٠٠٠ من ارتفاع ١٨٠ كيلومتر ، وطول عدسة هذه «الكاميرا» هو ٣٠٥ ملليمترات ومساحة الصورة الواحدة ٢٣ × ٤٦ سنتيمترًا . . إلخ» .

إننى تعمدت هذا النقل ليعلم من يجهل أن دراسة الكون شىء مثير وخطير ولا بد منه لدنيانا وديننا معًا .

وأن هذه الدراسة برع فيها غيرنا ونبت لديه جيل من الرواد والباحثين العباقرة على حين تراجعنا نحن وراء وراء .

إن هذا التخلّف إذا بقى فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر ، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء . .

وإننى لأصرح دون مواربة أن هذا التخلف جريمة دينية لاتقل نكرًا عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التى ألفنا الترهيب منها .

بل لعلها أشنع وأوخم عقبى .

إن الجو الذى يحيا فيه قارئ القرآن يسع البر والبحر . والسماء والأرض ، ويطلق الفكر سابحًا فى ملكوت لا نهاية له .

ويؤكد للإنسان أنه ملك يخدمه كل شيء فما الذى جعل الفكر الدينى يعيش فى قوقعة؟

إننى أحس فزعًا كبيرًا عندما أرى بعض المتصدرين فى العلوم الدينية ـ هكذا يوصفون ـ يمارى فى دوران الأرض أو ينكر وصول الإنسان إلى القمر! لماذا؟

لأنه يعيش فى مغارة سحيقة صنعها أشخاص قاصرون ، لايتصلون بحقيقة القرآن إلا كما يتصل القروى بعلوم الذرة . .

وإذا كنا هنا قد أطلنا الكلام فى التسامى الروحى للإنسان فلنذكر أن القرآن الكريم ينشد التسامى العقلى والخلقى معًا .

ويشدد النكير على السقوط الفكرى كما يشدد النكير على السقوط النفسى .

أى إنه يحارب الخرافة بالقوة نفسها التى يحارب بها الرذيلة .

بل إن منابع الإيمان فى نفس الإنسان تنبجس من علم عميق محيط دارس للكون دراسة ملاحظة وتجربة واستقراء لا دراسة تخمين وظنون وخيال . . وإذا لم تنبعث نهضتنا من هذا الأصل فلن تكون نهضة إسلامية صحيحة .

إن هذا العلم بالمادة ، بالفطرة التى فطر الله الكون عليها ، بالسنن التى تحكم هذا الكون علوه وسفله ، وطوله وعرضه ، إن هذا العلم ينظم الإنسان مع الملائكة فى الشهادة لله الكبير بالوحدة والعدل .

نعم إن أولى العلم ، والملأ الأعلى يؤكدون هذه الحقيقة التى شهد الله بها لنفسه فقال : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[1] .

(١) آل عمران : ١٨ .

نحو سلفية واعية

الاصطلاح الشائع أن المذاهب الفقهية لاتعدو أن تكون وجهات نظر محترمة فى العبادات والمعاملات ، وأن الوحدة الجامعة بين أتباعها لاينكرها أو لايخدشها عاقل ، وأنه لايجوز إطلاق كلمة فرقة على الحنفية أو الحنبلية مثلاً ، فإن التبعية المذهبية ما كانت لتميز إحداهما عن جماعة المسلمين . . .

أما اصطلاح فرقة فيتناول فى تاريخنا أصحاب الاختلاف العقائدى أو السياسى فيقال فرقة المعتزلة ، أو المرجئة ، أو الشيعة إلى آخره . . .

ولا مشاحة فى الاصطلاح ، وعذر الذين فرقوا بين المذاهب والفرق أن التنازع فى الأصول غير التنازع فى الفروع ، وأن النتائج الكبيرة هنا غير النتائج المحدودة هناك . . .

وأريد أن أقف وقفة تأمل فى هذه القضية ، إنه من فضل الله على سلفنا الأول أنه لم يتقعر فى بحوث ما وراء المادة ، ولم يحاول استكناه الغيبيات ، بل كان جيلاً مستقيم الفطرة ، سوى النظرة ، أحسن علاقته بالله فى العبادة الخاشعة ، وأحسن علاقته بالناس فيما التزمه من خلق حسن وعدالة مطلقة . . .

وقد أعانه ذلك على إبلاغ رسالة الإسلام ، فشرق وغرب ، وتألق وتأنق ، واندكت أمام عزماته الصعاب والعقاب . . .

ولو أنه اشتغل بالفلسفة اللاهوتية ، والمناظرات الكلامية ما خرج من جزيرة العرب ، بل لأرسلت له فارس أو الروم كتيبة من كتائبها تركته شذر مذر بين الرمال والتلال . .!!

فلماذا ذهبت الأجيال الزاكية ، وولى رهبان الليل فرسان النهار ، وخلفت البطالة ناسًا يحسنون اللغو ، ويطيلون الفكر العابث والنظر الشرود؟

وأوجد الفراغ مجالس كلامية كثيرة كان لها فى تاريخنا وكياننا أثر ردىء . .

ونستطيع القول الآن بأن العراك الذى نشب كان جهاداً فى غير عدو ، أو كان حربًا عمياء أذكى نارها المراء والغباء . . .

فالخوارج حين كفروا العصاة كانوا جهلة بطبائع البشر ، وعجزة عن فهم الأسباب الدخيلة والأصيلة فى الانحراف عن الطريق القويم . . .

والمرجئة حين هونوا قيم الصالحات، ومقارفة السيئات كانوا جهلة بحق الله، وما أوجب على عباده، وكانوا عجزة عن صيانة المجتمعات وتحصينها ضد التحلل والعطب . . .

ودعك من المتقعر السمج الذى تساءل : كيف كلم الله موسى تكليمًا؟ أكان الكلام بلفظ وصوت أم ماذا؟ والسمج الآخر الذى تساءل : كيف اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ وكيف انعقدت مودة بين الله وعبده؟

ثم دعك من تقليد المعتزلة لليونان فى نمط تفكيرهم البالى، لقد اقتفوا أثر أرسطو فى فهم الألوهية، ومعروف أن أرسطو أوغل فى تنزيه إلهه حتى قطع علائقه بالأرض وما فيها، لأنه أكبر من ذلك!

وجرده من أن تكون له صفة فوق الذات، لأن مقتضى التوحيد أن يعلم بذاته، ويرحم بذاته، ويقدر بذاته، فلا تكون له صفات العلم والرحمة والقدرة . .!!

وهذا التفكير لا وزن له من ناحيتى العقل والنقل، ولكن المتأثرين قديمًا بالغزو الثقافى تبنوه وشغلونا به، وأقحموه إقحامًا على تفكيرنا النظيف . . .

ماذا لو بقى منهج السلف يخط أصول الإيمان كما ورثناها عن نبينا وصحابته، واشتغل الجمهور بما يرفع مستواه فى معاشه ومعاده؟

تلك صورة سريعة للهيجان العقائدى الذى اكتنف تاريخنا العلمى أول الأمر ثم تلاشى منه ما تلاشى وبقى منه ما بقى . . .

على أن هناك خلافات قد تنشأ من التدبر الذاتى للنصوص، وقد نظرت فى هذه الخلافات فوجدت ما بها من نزق واستطالة أكثر مما بها من ذكاء وتعبد لله . فقضايا خلق الأفعال، والتحسين والتقبيح كان يمكن علاجها بأفضل من الأسلوب الذى مزق الشمل وقسم الأمة . .

نعم من شيوخنا من رأى أكثر الخلافات لفظيًا لا ثمرة له، فالذين أنكروا رؤية الله مثلاً أنكروا رؤية مادية لها جهة وتحيز وانحصار! والذين أثبتوها لم يقرروا لها هذه الخواص ولم يقيسوا غائبًا على شاهد . . .

والذين قالوا بالصلاح والأصلح لم يحسنوا اختيار العبارة المهذبة، وهم إنما عنوا وصفه بالحكمة والرحمة كما قال تبارك اسمه عن نفسه : ﴿ **كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ** . . ﴾[1] .

---

(١) الأنعام : ١٢ .

وهذا الجدل بعيد عن دائرة العقيدة عند أولئك المعقبين ، يقول الشيخ محمد المدنى : إنها نظريات كلامية لا عقائد تعتمد على اليقين الذى يحف أصول الإيمان ، فإن المسلمين متفقون على أن الله موصوف بكل كمال منزه عن كل نقص ، ثم تأدى الجدل بعلماء الكلام إلى تساؤل : هل يجب على الله فعل الصلاح والأصلح أم لا يجب؟

فمن الناس من ينظر إلى الصلاح والأصلح على أنهما كمال وجمال ويرى إيجاب ذلك على الله ـ لأنه أوجب على نفسه الرحمة ـ وهو متصف أبدًا بكل كمال . . . ومن الناس من يقول : لا يجب على الله شىء ، لأن الإيجاب تقييد ، والله جل وعلا ليس عليه قيد ، ولا يمكن أن نوجب عليه شيئًا ، ومن ثم يرفضون القول بأنه يجب على الله فعل الصلاح والأصلح . .

كلا الفريقين عند التأمل يقصد إلى تقرير الكمال الأعلى ، وإلى تنزيهه ـ سبحانه وتعالى ـ عما لايليق به . . . ولكن اختلفوا فى إدراك هذا الشىء بالذات . هل هو من قبيل الكمال فى جانب الله؟ أو هو يعد نقصًا فى جانبه؟ فلا يثبته مؤمن إلا وهو معتقد أنه كمال ، ولاينفيه مؤمن إلا وهو معتقد أنه نقصان .

نقول : هذا اعتذار لبق عن المعارك التى أدارها الكلاميون قديمًا ، وهى معارك كنا والله فى غنى عنها ، اختلقها الترف العقلى ونماها وشغلت بها الجماهير عن خير الدنيا والآخرة ، وبقيت فى كتب العقائد ذكريات مؤسفة . . .!

وها قد سلخ الإسلام من عمره المديد أربعة عشر قرنًا ، وعانت أمته أيامًا عصيبة لانطلاقها بغير قواها ، وإلى غير وجهتها . .!

ونحن ما نقلق من كثرة المذاهب الفكرية فى شئون الأدب والحياة ، ولا من كثرة هذه المذاهب فى ساحات العبادة والمعاملة مادام المفكرون المجتهدون من أهل الذكر وذوى الأصالة العلمية والخلقية . . .

وإنما نكره التفرق فى المعتقد ، والتحزب فى أصول الديانة ، ونؤثر دراسة العقائد من منهجها القرآنى ونبعها النقى كما تدفق به الوحى الأعلى ، ونهض عليه سلفنا الصالحون . . .

والسلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعًا من العرب وتحيا على نحو اجتماعى معين ، إننا نرفض هذا الفهم ونأبى الانتماء إليه . . .

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون؟ .

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه على العقل . . .

وقد رأيت ناسًا يفهمون السلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وهذا خطأ ، ففقه أحمد أحد الخطوط الفكرية فى الثقافة الإسلامية التى تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا ، ورأيت ناسًا يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص ، وهذا خطأ؟ فإن مدرسة الرأى كمدرسة الأثر فى أخذها من الإسلام واعتمادها عليه . .

والحديث النبوى الشريف ليس حكرًا على طائفة بعينها من المسلمين ، بل إنه مصدر رئيسى للفقه كله . . .

ورأيت ناسًا تغلب عليهم البداوة أو البدائية يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة ولايحسنون الانتفاع بها فى الرسالة الإسلامية وحماية تعاليمها ، يرفضون الحديث فى التليفزيون مثلاً ؛ لأن ظهور الصورة على الشاشة حرام ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزء ، والإنكار ، وهذا فى الحقيقة لا سلف ولا خلف ، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد . . .

ورأيت ناسًا يتبعون الأعنت الأعنت ، والأغلظ الأغلظ كل رأى قيل ، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم ، وينغص معايشهم ، ويؤخر مسيرة المؤمنين فى الدنيا ، ويأوى بهم إلى كهوفها المظلمة . .

وهؤلاء أيضًا لا سلف ولا خلف ، إنهم أناس فى انتسابهم إلى علوم الدين نظر ، وأغلبهم معتل التفكير . .

ورأيت ناسًا يتبعون إلغاء الرقيق بعيون كئيبة! قلت لهم ألا تعرفون أن هؤلاء العبيد هم أحرار أولاد أحرار اختطفتهم عصابات النخاسة من أقطارهم ، وباعتهم كفرانا وعدوانًا ليكون لكم خدمًا ، وهم فى الحقيقة سادة؟

ما السلفية التى تقر هذا البلاء؟ وما هؤلاء العلماء الذين ضاقوا بتحريرهم ، وإلغاء بيعهم وشرائهم؟

ورأيت ناسًا يقولون : إن آية ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا** . . ﴾[1] مرحلية! فإذا أمكنتنا اليدان لانبقى على أحد من الكافرين!

---

(١) البقرة : ١٨٩ .

قلت : ما هذه سلفية ، هذا فكر قطاع طرق لا أصحاب دعوة شريفة حصيفة ، وأولئك لايؤمنون على تدريس الإسلام لجماعة من التلامذة بله أن يقدموه فى المحافل الدولية والمجاهل العالمية . . .

إن العالم الإسلامى الآن متخلف حضارياً ، ومضطرب أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً ، وبينه وبين الأمم القائدة الصاعدة أمد بعيد . . .

هذه الأمم تعلم ظاهرًا من الحياة الدنيا ، وتفتقر إلى جيل من البشر يذكرها بالله ولقائه .

والإسلام وحده هو المالك لهذه الحقائق الهادية ، ولكى تؤدى أمته رسالتها يجب عليها أمران :

الأول : أن تطوى مسافة التخلف الحضارى ، والاضطراب الإنسانى الذى يشينها ولايزينها . . .

والثانى : أن تتقدم بشرف وكياسة لتقول للناس كلهم :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً** ﴾[1] .

ولكى ننجح فى عملنا يجب أن نقتفى آثار سلفنا . . .

والسلفية هنا عنوان كبير لحقيقة كبيرة أساسها العقل الحر المكتشف الدءوب . .

إن هذا العقل عندما رغب عن البحث فى الذات العليا وحقيقة الصفات ، كان يحترم نفسه ، والعلم المعاصر نجح أيما نجاح عندما بحث فى المادة التى بين يديه ولم يبحث فى ربها ـ سبحانه ـ فأنَّى له البحث فيما لايملك ولايقدر؟

من أجل ذلك نرفض النظريات الكلامية ، ونقبل المذاهب الفقهية ، ونصنع الشبكة القانونية التى يتطلبها انتقال الحياة من طور إلى طور . . .

ومن أجل ذلك نهش للتقدم العلمى ونطوعه لنصرة مبادئنا ومثلنا . . .

ومن أجل ذلك نرى ضرورة إزاحة البله وذوى العقد النفسية من قيادة الفكر الدينى فإنهم غشاوات على البصائر ، وحجب على الضمائر . .

إننا محتاجون إلى فقهاء يمعنون النظر فى سياسة المال والحكم ، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الغفيرة فى هذه الميادين الخطيرة . ومحتاجون إلى فقهاء يهيمنون على شئون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشته لا بالتزمت والتكلف . .

* * *

إن الفقه الإسلامى كما قدمه سلفنا خلق حضارة معجزة ، أما الفقه الإسلامى كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولايحيى . . .

---

(١) النساء : ٧٤ .

بين النص والمصلحة

جرت على الألسنة عبارة غامضة ، أن عمر بن الخطاب ألغى بعض النصوص أو أوقف العمل بها على نحو ما ، لأنه رأى المصلحة فى ذلك .

وهذا كلام خطير ، معناه أن النص السماوى قد يخالف المصلحة العامة ، وأن البشر لهم ـ والحالة هذه ـ أن يخرجوا عليه ، ويعدموه وكلا المعنيين كاذب ومرفوض ، فلايوجد نص إلهى ضد المصلحة ولايوجد بشر يملك إلغاء النص ولننظر إلى ما نسب لعمر رضي الله عنه فى هذا الشأن ، قالوا : منع سهم الزكاة أن يصرف للمؤلفة قلوبهم بحجة أن الإسلام استغنى عن تأليفهم .

وفهم صنيع عمر على أنه تعطيل للنص خطأ بالغ ، فعمر حرم قومًا من الزكاة لأن النص لايتناولهم لا لأن النص انتهى أمده .

هب أن اعتمادًا ماليًا فى إحدى الجامعات خصص للطلبة المتفوقين ، فتخلف فى المضمار بعض من كانوا يصرفون بالأمس مكافآتهم ، فهل يعد حرمانهم إلغاء الاعتماد؟ إنه باق يصرف منه من استكملوا شروط الصرف .

وقد رفض عمر إعطاء بعض شيوخ البدو ما كانوا ينالونه من قبل تألفًا لقلوبهم أو تجنبًا لشرورهم بعد ما استطاع الإسلام أن يهزم الدولتين الكبريين فى العالم ، فهل يظل على قلقه من أولئك البدو النهابين أمثال عباس بن مرداس والأقرع بن حابس؟

أبعد هزيمة كسرى وقيصر يبقى الإسلام يتألف حفنة من رجال القبائل الطماعين؟

ليذهبوا إلى الجحيم إن رفضوا الحياة كغيرهم من المسلمين . .

إن مصرف المؤلفة قلوبهم باق إلى قيام الساعة يأخذ منه من يحتاج الإسلام إلى تألفهم ، ويذاد عنه من لا حاجة للإسلام إليه .

وعمر وغيره من الخلفاء والحكام أعجز من أن يعطلوا نصًا ، وأتقى من أن يتقدموا بين يدى الله ورسوله ، ويجب أن تفهم التصرفات بدقة ولاتساق التهم جزافًا . .

درء الحد بالشبهة؟

وقالوا : إن عمر عطل حد السرقة عام المجاعة . . . نقول : إن الجائع الذى يسرق ليأكل أو ليؤكل أولاده لا قطع عليه عند جميع الفقهاء ، فما الذى عطله عمر؟

إن قطع السارق المعتدى الظلوم هو حكم الله إلى آخر الدهر ، ولا يقدر عمر ولا غير عمر على وقف حكم الله .

ولإقامة الحد شروط مقررة ، فمن سرق دون نصاب ، أو سرق من غير حرز لم تقطع يده ، ولا يقال عطل الحد ، بل يقال : لم يجب الحد .

والذى حدث أيام عمر أن المدينة وما حولها تعرضت لقحط عام ، وفى عصرنا هذا نسمع بمجاعات فى آسيا وإفريقية يهلك فيها الألوف وليس بمستغرب أن يخرج الناس من بيوتهم يطلبون القوت من أى وجه وقد يحملهم ذلك على الخطف والسرقة ، فهل تعالج تلك الأحوال بالسيف؟

إن عمر درأ الحد بالشبهة - كما أمرت السنة الشريفة - ولا يعاب إذا توسع فى هذا الدرء ، وقدر آلام الجياع فى تلك المحن المجتاحة . .

ذلك تفسير ما روى عنه ، وقد قال فيه «إنا لا نقطع فى عام جدب» وقد نقلنا فى مكان آخر من كتبنا اكتشافه لعيلة بعض العمال ، وقلة الأجور التى يتقاضونها مع وفائهم بالأعمال التى يكلفون بها ، ورفضه - رضى الله عنه - لقطع أيدى الغلمان الذين سرقوا ناقة لابن حاطب بن أبى بلتعة .

وظاهر مسلكه إجراء استثنائى تجاه ظرف استثنائى ، وأنه نفذ الحد عندما وجب ، ودرأه بالشبهة عندما لم يقم ، ولا يمكن أن يفهم ذلك بأنه وقف للنص أو تعطيل له .

جواز تقييد المباح :

وقالوا : إن عمر حرم الزواج بالكتابيات معطلاً بذلك قوله تعالى :

﴿ . . وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . . ﴾[1] .

ونقول : إن الزواج باليهوديات والنصرانيات مباح على الصفة التى ذكر الكتاب العزيز . فمن شاء فعل ومن شاء ترك وفق رغبته ، وقد تقوم حوافز على الفعل أو على الترك لا تغير الحكم الأصلى .

فإذا رأى الشخص أن ذلك الزواج وسيلة هداية إلى الحق فعل ، وإذا رأى أحد أن ذلك يجعل سوق المؤمنات كاسدة ترك ، ونصح غيره بالترك ، وهذا ما فعله عمر .

(١) المائدة : ٥ .

قال ابن جرير بعدما حكى الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات أو لمعنى آخر ، ثم قال : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر «خل سبيلها» فكتب إليه حذيفة : «أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها» فقال عمر : «لا أزعم أنها حرام ، ولكنى أخاف على المؤمنات أن تزهدوا فيهن وتقبلوا عليهن» أو كما قال .

ونظرة عمر موضع تقدير ، وهى لاتلغى نصّاً كما رأيت ولكنها تلفت النظر إلى مصلحة اجتماعية تجعل تناول المباحات أدق وأرشد . . .

وللفقهاء بحوث فى تقييد المباح ، وفى عصرنا تجنح حكومات كثيرة إلى حظر الزواج من الأجنبيات على رجال السلكين السياسى والعسكرى ، وإنما تفعل ذلك حفاظا على أسرارها وأمانها . .

ويرى الشاطبى أن تقييد المباح لا شىء فيه إذا كان من دائرة «العفو» أى مما سكت الشارع عنه أما إذا كان هناك نص بالإباحة فلا مكان لقيد ما ، حتى لا نحرم ما أحل الله . . .

وهذا نظر دقيق ، وفى قضية الزواج باليهودية التى كرهها عمر نراه أكد أصل الحل والحرمة ، ولكنه كره من رجل كبير مثل حذيفة بن اليمان أن يسىء إلى المؤمنات بما قد يضيرهن . . .

إن المصلحة لابد من رعايتها ، ومعنى النص الشرعى أن المصلحة ارتبطت به أبدًا ، فهو دليلها وضمانها وأى تعطيل له فهو خدش للمصلحة أو تطويح لها . .

ونحن نلحظ فى العقوبات الشرعية المنصوص عليها أنها تناولت عددًا معينًا من الجرائم ، فالحدود المقررة تعد على الأصابع . . . ويستطيع الحاكم فى جرائم لاتحصى أن يضمن المصالح بما يشاء من عقوبات .

هناك جرائم الربا والغصب والفرار من القتال والغش والخيانة وكذلك أكل مال اليتيم وكل أنواع العدوان على المال والعرض والدم التى لاتتناولها الحدود أو ضروب القصاص ، وهذه سيئات كثيرة ودائرة التعزير تسعها ، والقضاء يقدر على إرصاد ما يرى من عقوبات تحفظ مصالح الأمة وتقر الأمن هنا وهناك .

إمضاء أمر الله نماء وبركة:

إن المصلحة لايمكن أن يحفظها تعطيل نص ، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة وفى الحديث أن أبا هريرة قال :

قال رسول الله  : **«لحد يقام فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحاً»** .

وعندما يشكل المجتمع بالوعد والوعيد والرغبة والرهبة وفق أوامر الله سبحانه ، فإن الرخاء يعم والشؤم يستخفى والمخاوف كلهن أمان . .

والفقه الصحيح أن نتعرف على المصلحة حيث لا نص ، وأن نجتهد فى تفهمها ثم تحقيقها ناشدين إرضاء الله وخير الأمة .

الإسلام مثلاً لم يضع رسمًا محددًا لأسلوب الحكم ، وإنما وضع له أخلاقًا وقيمًا تصان ، فكيف نولى حاكمًا وكيف نعزله؟ وكيف نحاسبه ونراقبه؟ وما هى أجهزة الشورى؟ وكيف نستوثق من التقاء الآراء الناضجة فيها؟ وكيف تمضى فى مجراها دون إرهاب أو إغراء؟

للأمم فى هذه الميادين أن تجتهد فى وضع النظام الذى يحقق مصلحتها دون قيد ما .

وأذكر أن أحد الناس سألنى - ورئيس الجمهورية يختار لبضع سنين - فقال أليست هذه بدعة؟ قلت : ما البدعة؟ قال توقيت مدة الرئاسة . فإن الأصل اختيار الحاكم مدى الحياة .

قلت له : التوقيت والإطلاق سواء من الناحية الفقهية ، وتتواضع الأمم على ما تراه أكفل لحقوقها ، فإذا آثرت أن يكون اختيار الحاكم لأمد معلوم فلها ذلك . . قال : كان اختيار الخليفة الأول مدى الحياة . .

قلت : لقد آثر الصحابة أحد الوجوه ولا تحريم للوجه الآخر . .

قال : ألا يكون سنة؟ قلت : لا . . لا سنة إلا بنص ، ولا نص هنا .

إن فعل النبى ﷺ . قد يكون دليل إباحة ، وقد يكون دليل أفضلية ، ولا وجوب أو ندب إلا بدليل أو بنص .

وفى مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم على ألا يصطدموا بنص قائم ، فإن هذه النصوص معاقد المصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار .

الأصل فى العبادات التوقيف وفى المعاملات التعليل :

وتتصل النصوص بنوعين من السلوك يغاير أحدهما الآخر ، وذلك التغاير يرجع بدءًا إلى الطبيعة البشرية فهناك أعمال محتومة يباشرها الناس دون انتظار وحى ملهم كالزواج مثلاً ، فإن البشر منذ بدء الخليقة اتجهوا إلى إجابة غرائزهم بالزواج ، ولبقاء

نوعهم ولتجميل معيشتهم . . فلما جاء الدين كان إرشاده لهذا النوع من السلوك رفض الزواج بالمحارم وبناء الأسرة على الاختيار لا على الإكراه وتشريع آداب كثيرة فى العلاقات الجنسية وما ينشأ عنها .

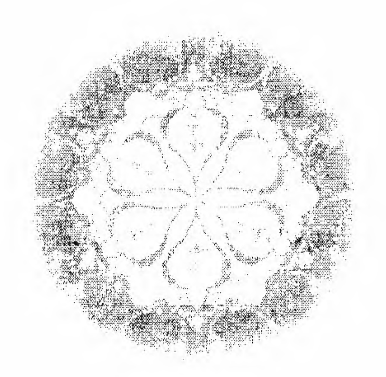
وقد تبايع الناس قبل مجىء الوحى ، فلما بعث الرسل هذب المعاملات التجارية بما صانها من الغش والقسر والربا والاحتكار وغير ذلك من تظلمات الأثرة والجشع .

فالتشريع فى ميدان المعاملات ـ كما قال فقهاؤنا ـ يقوم على رعاية المصلحة وضبطها ، ثم إشراب هذه المعاملات رقابة الله وانتظار ثوابه .

لكن هناك تشريعات أخرى تتصل بعبادة الله سبحانه ، إننا قد نعرف ربنا بفطرتنا السليمة ، بيد أن الأسلوب الذى نترجم به عن حبنا له وعن خضوعنا وإخلاصنا ليس من وضعنا نحن . . إنه من حق الله وحده ، فهو الذى يعرفنا بأسمائه الحسنى وهو الذى يعلمنا كيف نصلى له وكيف نصوم وكيف نحج بيته العتيق .

إن نصوص العبادات أو المعاملات سواء فى ضرورة الاحترام والإنفاذ ، ومن حسن الفقه أن نعرف المحور الذى تدور عليه التعليمات الدينية فى كلا المجالين .

وفى ذلك يقول الإمام الشهيد حسن البنا «**ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه وفيما يحتمل وجوهاً عدة، وفى المصالح المرسلة، معمول به مالم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل فى العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعانى، وفى العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد**» .



الفهرس